وجهات نظر

الكتب

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 70 - November 2004

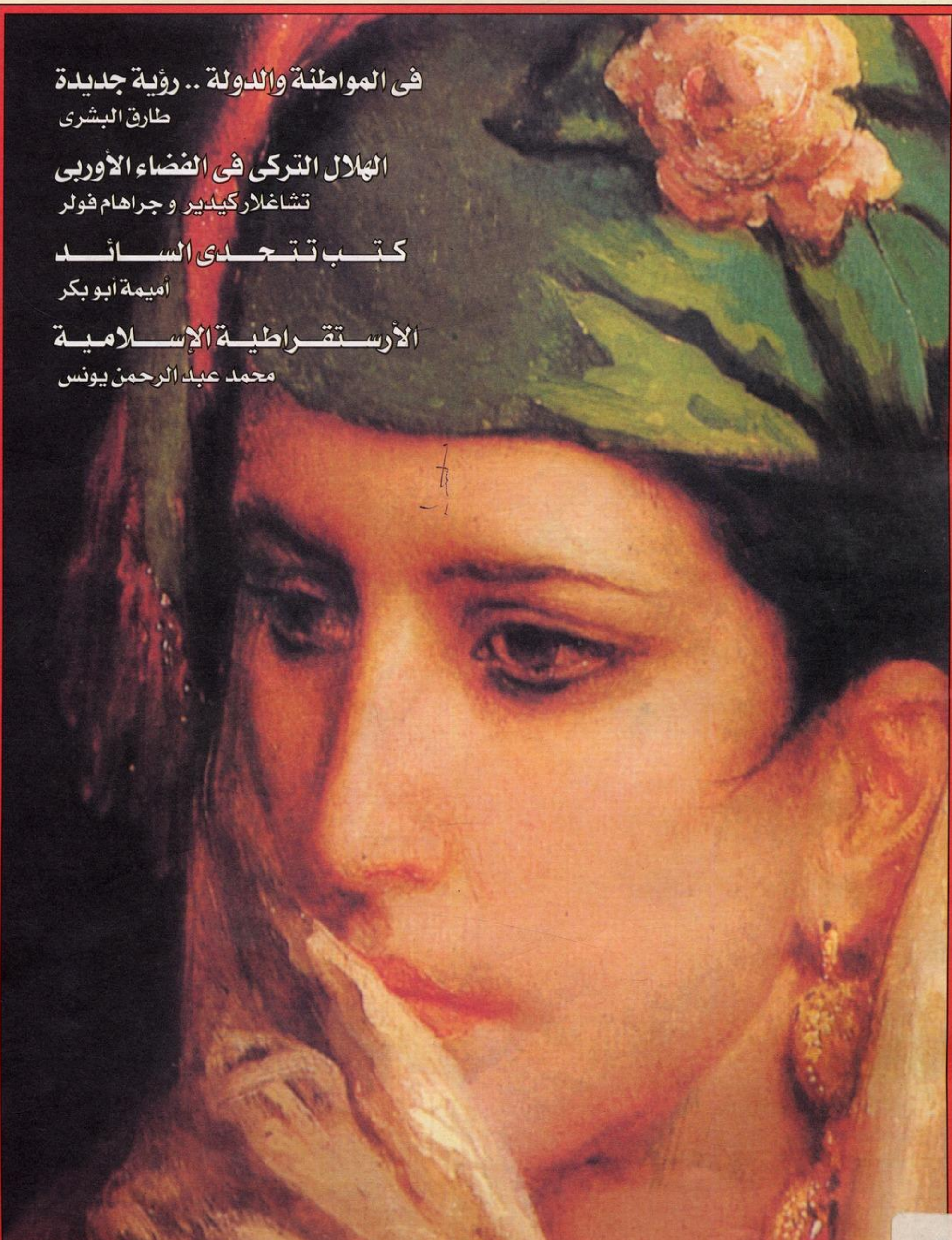
مجلة شهرية. العدد السبعون. السنة السادسة. نوفمبر ٢٠٠٤. الثمن عشرة جنيهات

فى المواطنة والدولة .. رؤية جديدة
طارق البشرى

الهلال التركى فى الفضاء الأوربى
تشاغلار كيدير و جراهام فولر

كتب تتحدى السائد
أميمة أبو بكر

الأرستقراطية الإسلامية
محمد عبد الرحمن يونس



السنة السادسة
العدد السبعون
نوفمبر ٢٠٠٤

الكتب وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

محتويات العدد:

• طارق البشرى ٤
«منهج النظر فى تشكيل الجماعة السياسية: فى المواطنة.. والانتماء.. والدولة..».
• تشاغلار كيدير ١٤
«من قيود العسكر إلى قيود بروكسل.. صعود تركيا الجديدة»
• جراهام فولر ٢٠
«تركيا: «النموذج»»
• حسن مكى ٢٤
«مصر.. والسودان.. والقرن الأفريقى.. إسرائيل على الخط»
• أميمة أبو بكر ٢٨
«فهم جديد للصحوة الإسلامية: كتب تتحدى السائد»
The New Mamluks: Egyptian Society and Modern Feudalism،
تأليف: أميرة الأزهرى سنبل
Face to Face With Political Islam، تأليف: فرانسوا بورجا
• محمد عبد الرحمن يونس ٣٤
«قصور وديباج وصحاف من ذهب.. الأرستقراطية الإسلامية»
• علاء الدين وحيد ٤٤
«الفاطميون: الحكم.. القهر والإلهاء»
الفاطمية دولة التفاريح والتباريح، تأليف: جمال بدوى
• محمد المهدى ٤٨
«فى غابة الفكر.. الأسد الأمريكى والفيل الأوروبى»
• جان شَلَبى ٥٤
«عولمة فضائية.. التلفزة عابرة الحدود والنظام العالمى الجديد»
• أمينة شفيق ٥٩
«الإعلام الوطنى.. وسط أعاصير الفضاء العالمى»
• دنيس جونسون ديفيز ٦٤
«كنت صديقًا ليحيى حقى»
مقدمة كتاب: *The Lamp of Umm Hashim and other Stories*،
تأليف: يحيى حقى
• رجب سعد السيد ٦٨
«مستهلكون وجوعى.. معدة العالم فى خطر»
State of the World 2004 - Special Focus: The Consumer Society
• إصدارات جديدة ٧٢
صفحات من كتاب: المأزق العربى.. غياب الفعل الجماعى وعنف الأقلية،
تأليف: صالح السنوسى
• رسائل ٨٠
• أيمن الصياد ٨٢
قراءة: «قصة».

كتَّاب العدد:

- اميمة ابو بكر.. أستاذة الأدب الإنجليزى المقارن بجامعة القاهرة.
- امينة شفيق.. صحفية.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- تشاغلار كيدير.. أستاذ علم الاجتماع بجامعة بنهامتون فى نيويورك.
- جان شَلَبى.. أستاذ علم الاجتماع بجامعة سيتى - لندن.
- جراهام فولر.. باحث ونائب سابق لرئيس المجلس الوطنى التابع لوكالة المخابرات الأمريكية.
- حسن مكى.. عميد مركز البحوث الأفريقية بجامعة أفريقيا العالمية بالخرطوم.
- دنيس جونسون ديفيز.. كاتب ومترجم مهتم بالأدب العربى.
- رجب سعد السيد.. كبير الإخصائيين العلميين بالمعهد القومى لعلوم البحار والمصايد (مصر).
- طارق البشرى.. كاتب ومؤرخ.
- علاء الدين وحيد... كاتب.
- محمد عبد الرحمن يونس.. محاضر فى جامعة الدراسات الأجنبية بيكين.
- محمد المهدى... مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى - سعد الدين شحاتة - أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب . القاهرة . جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - آمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٣ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ . فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

فـــى المــــــــواطنــــــــة

منهج النظر فى تشكيل الجماعة السياسية

[١]

طـــــــارق البـشـــــرى



■■ أقصد بالجماعة السياسية، هذه المحموعة من البشر التى تتحدد وفقًا لتصنيف معين يقوم على وصف فعال يصدق عليهم ويميزهم عن غيرهم من المجموعات، وذلك متى كانت الأوضاع التاريخية قد رشحت الجماعة المصنفة. وفقًا لهذا الوصف. بأن تقوم بوظيفة محددة لحماية صالحها المشترك بعيد المدى.

فثمة وصف يلحق بالجماعة وغيرها، وثمة وظيفة تؤديها الجماعة الموصوفة بهذا الوصف.

والوصف يتعين أن يكون لصيقًا وفعالاً. والإلصاق يعنى ألا يكون الوصف طارئًا أو عابرًا أو يسهل كسبه ويسهل تركه. لأن الوصف الذى تقوم به جماعة يتعين أن يكون أكثر ثباتًا من الناحية النسبية. والجماعة تشكُّل تاريخى، تنشأ وتقوم وتبقى عبر مراحل تاريخية ممتدة، فهى لا تتبلور بموجب الطارئ سريع الكسب أو الفقد، مثل المهارات وأوضاع التنقل، وهى تلتزم من الأوصاف ما لا يتغير مثل علاقات النسب مثلاً، أو ما يكون قابلاً للتغيير ولكن بصعوبة وبطء وعبر ما يحسب بالزمن التاريخى وليس بأزمان الحياة اليومية، أى بما لا تصلح الحياة الفردية لأن تستوعبه كاملاً بآثاره، بله أن تستوعب عددًا منه، وذلك مثل اللغة باعتبارها وصفًا جماعيًا أو الدين باعتباره كذلك.

كما يجب أن يكون الوصف فعالاً، أقصد بذلك أثره فى تغذية التفاعل الذى يربط بين المتصفين به ليمكن لديهم الشعور بالانتماء، لأن الجماعة عندما تنشأ إنما تكون ذات تميز عن أفرادها. وإذا كان آحاد الأفراد هم من تتشكل منهم، فإنها تكون هى من يقيم الوصف المهيمن عليهم، ولا منافاة بين إسهام الآحاد فى المشاركة وبين انتمائهم وخضوعهم من بعد لما تشاركوا فيه؛ فإن من ينتمى لدين معين باختياره إنما يخضع من بعد لهذا الدين، ومن ينضم إلى نقابة أو لحزب مثلاً يمتثل من بعد لقرارات ما انضم إليه بإرادته، ناهيك عمن يكون انتماؤه إلى الجماعة لم يتم بموجب توجه إرادى طوعى لواحد من بدائل اختيارية متساوية، وإنما يكون جرى بموجب وصف لصيق لا يملك تعديله أو الخروج منه بالطواعية السهلة السريعة. لذلك فإن أوصافًا بشرية مثل طول القامة أو وزن الجسم أو مستوى التعليم لم تصلح أبدًا أن تكون وصفًا فعالاً بالمعنى المقصود هنا. والأمثلة ذات التكرار فى التاريخ

والانتمـــاء والـــدولـــة

مع ما يجرى على التخوم العربية شرقًا وجنوبًا، ومع الدعوات الـ «شرق أوسطية» الملحة والمتلاحقة، يرتجّ عالمُنا العربى. إن لم يكن بفعل قذائف تنهمرُ علينا هنا وهناك، فتحت وطأة أسئلة ثقيلة وصعبة.

يتواترُ الحديث، يعلو حينًا ويخفت أحيانًا أخرى، عن إعادة رسم خرائط المنطقة، إن لم يكن حدودًا سياسية على الأرض، فحدودا للقوة والمكانة والنفوذ. فضلاً عن محاولات لتذويب الانتماءات والمرجعيات، أو على الأقل تهميشها. وبغض النظر عن مدى واقعية هذا الحديث، أو قدر المبالغة فيه، تبقى العواملُ الديموجرافية وطبيعة تكون الجماعات السياسية رقمًا أساسيًا فى المعادلة. وليس العراق والسودان، بل وحتى سوريا ولبنان، الا مجرد أمثلة. كاتبنا ومؤرخنا طارق البشرى، المشغول دومًا بقضية المواطنة، ينظر فى التاريخ والجغرافيا ليقدم لنا منهجًا للنظر فى تشكيل الجماعة السياسية وحركيتها.

المحــرر

لم يحتل الغرب الأرض ويستعمر الشعوب فقط، ولكنـه انتهـك الجماعـــات السياسية فى توحدها وتكاملها، وقسم الأقطار والأقاليم لا على وفق هذه الجماعات، هذا الفعل الاستعمارى كافحته حركـات التحريـر، ولكـن لم تلـغ مشيئتـــه فى التقســيمـات الحــاصـــلة منــــه

للأوصاف الفعالة ذات الأثر فى تكون الجماعات، إنما تتعلق بالعقيدة من الأديان إلى الماركسية، وباللغة مثل القوميات، وبالنسب مثل القبائل والعشائر، وبالإقليم الجغرافى.

والعنصر الفعال . هنا . هو ما يمكن للصيرورة التاريخية أن تشكل من تفاعلاته مناطًا لقيام الجماعة السياسية، وما تشكل تفاعلاته قوة تماسك لأفراد هذه الجماعة ووحداتها الفرعية المتعددة. والفاعلية هنا يتحول بها العنصر المكون للجماعة إلى معيار معرِّف للجماعة يجمع أفرادها ووحداتها ويميزهم عمن عداهم؛ لأن الفاعلية أو التفاعل بموجب كونها صيرورة تاريخية، تنشئ إدراكًا ذهنيًا بالتوحد وبالمشترك العام داخل الجماعة المعنية، كما تنشئ شعورًا وجدانيًا بالانتماء لهذه الجماعة وقابلية للاندراج بين وحداتها.

وقد سبقت الإشارة، إلى أن الأوصاف التى بنيت منها التصنيفات الأساسية المتكررة فى التاريخ البشرى للجماعات السياسية، كانت فى الغالب الأعم هى ما يلى:

- التصنيف القبلى القائم على وحدة الانتماء الأسرى وعلاقة النسب.
- التصنيف الدينى القائم على وحدة الانتماء العقيدى والرؤية الثقافية للكون وللمجتمع.
- التصنيف القومى القائم على وحدة الانتماء اللغوى.

ويمكن القول بأن أيـاً من هذه العناصر المذكورة هو مثل المادة الخام، لا تؤتى أثرها إلا بتفاعل يقوم بين وحدات من تضمهم، وهو تفاعل لا يتأتى إلا بتوافر ظرفى المكان والزمان، أى الجغرافيا والتاريخ، فإن أمة قبلية أو دينية أو قومية، لا تقوم إلا بتفاعل أفرادها فى بيئة جغرافية معينة، وإلا بصيرورة تاريخية بما يُنشئ ذاكرة مشتركة واشتراكًا فى أحداث واحدة وتكوين ثقافى واحد. وأقصد بالثقافة التكوين العقلى والوجدانى معًا، أى التكوين النفسى المشترك الذى يتيح للأنا الفردية أن تندمج فى «أنا» جماعية يقوم بها الضمير «نحن». إن الشعور بالانتماء إنما يكون لتكوين كلى خارج عن الذات، ولكنها تكون قابلة للانجذاب إليه والاندراج فيه بموجب إدراكها لتحققها فيه.

وإذا كانت أوصاف الانتماء قائمة فى الصورة السابقة، وأمثالها فى التاريخ البشرى موجودة دائمًا، فإن التاريخ وأحداثه هو ما يصنع الوظائف التى تقوم بها هذه الأوصاف. ودائمًا هناك أوصاف جماعية تقيم مشاعر بالانتماء المشترك بين من تضمهم هذه الأوصاف، أسرية قبلية كانت أو عقيدية أو قومية لغوية، ولكن أحداث التاريخ وحركة البشر والمجموعات هى ما يحدد مدى الأثر والفاعلية التى تقوم بها أى من هذه الأوصاف فى جماعاتها، كما تحدد ترتيب الأولويات بين بعضها البعض، بما يقوم به الوصف الجماعى الحاكم لغيره من الأوصاف الجماعية فى كل مرحلة تاريخية.

وأنا لست على ثقة من أن هذه الانتماءات تترتب مع بعضها البعض وفقًا لحتمية تاريخية عالمية، باعتبار ظهور التكوينات القبلية أولاً، ثم التكوينات العقيدية، ثم التكوينات القومية. إن هذا الترتيب التاريخى حدث فى أوروبا، واعتبرته أوروبا ـ ومؤرخوها خاصة. أساسا للترتيب الجماعى العالمى، لما وَقَر فى ذهن الأوروبيين عامة من أن تجربتهم هى معيار تشكل تجارب العالم كله، وأن تاريخهم هو ما يقاس به تاريخ شعوب العالم جمعاء.

ولكن الأوروبيين أنفسهم، والغربيين بعامة، هم من نقض هذا التصور من بعد، فإن الوحدة التى أساسها الماركسية هى وحدة عقيدية وقامت فى داخل الفكر الأوروبى وحركته السياسية، وكانت تنقض التكوين القومى، كما أن الحركة الصهيونية نشأت هى الأخرى فى الرحم الأوروبى وهى تقيم وحدة انتماء أساسها الدين اليهودى. ثم العولمة الآن ترد من أقصى الفكر الغربى؛ من الولايات المتحدة الأمريكية.

إن وحدات الانتماء هى «مكنات» تتواجد وتتزاحم وتتبادل الترتيب والتأثير وفقًا لعوامل تاريخية أخرى، تمكن من ظهور بعضها وخفوت الأخرى، ومن سيادة بعضها وحاكميته على غيرها. فحيث سادت القبيلة كانت هى الانتماء الحاكم، وكان اختلاف المعتقد يشكل انتماء محكومًا وتابعًا. ونحن نعرف كيف أن قريشًا وبنى هاشم كانوا يحمون رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، رغم اختلافهم مع دعوته ورغم حربهم له. وحيث سادت الوحدة الدينية، سواء الوحدة الإسلامية حتى الدولة العثمانية، أو الوحدة المسيحية الأوروبية فى القرون الوسطى، كانت التكوينات اللغوية أو القبلية تشكل وحدات انتماء محكومة بالوحدة الدينية الشاملة هذه. وعلى العكس عندما سادت التكوينات القومية صارت الوحدة المؤسسة على العقيدة مما يشكل وحدات انتماء فرعية محكومة بالجماعة القومية.. هكذا.

وفى الأدب السياسى الإسلامى كان تآزر الجماعة مع بعضها البعض يسمى العصبية أو الحمية، وهى هذا الشعور الداعى إلى نصرة الجماعة، وكان تحسينه أو تقبيحه يتوقف على ما إذا كان يقوم بنصرة الجماعة ضد أعدائها فيكون حسنًا مدعوًا إليه، أو يقوم بنصرة جماعة فرعية ضد الانتماء العام فيكون قبيحًا منهيًا عنه. ومن هنا فإنه عندما تتراتب وحدات الانتماء بين عام وخاص وبين حاكم وتابع، بفعل ما يقوم فى مرحلة تاريخية ما من ترتيب يصون الجماعة الأشمل، فإنه يقوم لدى الجماعة العامة الحاكمة واجب أن تحمى الجماعات الفرعية المندرجة تحتها، أن تحميها من تهديدات الخارج وأن تحفظ لها نصيبها فى الوجود الذاتى إزاء الجماعات الفرعية الأخرى. وهى إن لم تفعل، إن لم تقم بواجب ما نسميه الآن بحفظ أمن الجماعة الأشمل وتحقيق التوازن بين الجماعات الفرعية، فإنها تنكسر وتنفك على المدى الزمنى المناسب لذلك.

وأذكر هنا عبارة رفيق العظم عندما قال: «للاجتماعات نظامات وروابط هى العصبيات، تكاد تكون طبيعية بين البشر، أهمها الروابط العامة التى تجمع قومًا أو أقوامًا على كلمة واحدة، وهى رابطة العشيرة أو الجنس أو الوطن أو الدين...»، «كل مجتمع مهدد فى كيانه من المجتمع الآخر، ما لم يكن ذا رابطة تجعله متكافئًا معه فى القوة، تراعى فيها النسبة فى القوة بين الرابطتين، فكلما اتخذ المجتمع رابطة أوسع تحتم على الآخر أن يتخذ ما يقابلها...»، «ولا يصح أن نقابل أية رابطة أو عصبية برابطة أو بعصبية أقل منها؛ عشيرية كانت أو وطنية أو دينية». وكان يقول ذلك ليزكى الجامعة الإسلامية العامة فى ظروف الهجمة الأوروبية العامة على الديار الإسلامية. وهذا الذى زكاه. وقتها ـ لم يحدث؛ ولذلك

انكسرت الجماعات الإسلامية المفككة أمام الطغيان الأوروبى فى بداية القرن العشرين.

[٢]

إن ظاهرة الاستعمار التى عانت منها بلادنا كانت أعمق أثرا مما يبدو فى الكثير من الدراسات التى عالجت أوضاعنا السياسية والاجتماعية ومشاكلنا الحياتية. أقول ذلك لأننا عادة ما نعالج هذه الظاهرة فى نشأتها وفى مقاومتنا لها كما لو كانت مسألة خارجية متميزة عن سياق التطور والتغيير الذى يمس كيان الجماعة السياسية، ونظم إدارتها، ومجمل الأفكار التى تسود وتتداول، والوظائف الفعلية لكل من ذلك فى الحياة الواقعية. وإن ما يمس ذلك فى الموضوع الذى نتعرض له فى هذه الورقة، إنما يتعلق بالجماعة الوطنية أو الجماعة السياسية بعامة، وبنظم إدارتها.

ونحن عندما ننظر فى التاريخ المعاصر لبلادنا الإسلامية والعربية، نلحظ أنه حتى نهاية القرن التاسع عشر كانت الجامعة السياسية الحاكمة فى إدراك المواطنين، هى الجامعة الإسلامية التى قامت على أساس حفظ الجماعة السياسية برباط الدين الإسلامى، وكانت الدولة المشخصة لها فى إدراك المواطنين هى الدولة العثمانية، وعلى الشاطئ الحضارى المقابل فى أوروبا، وفى أوروبا الغربية بخاصة، كانت الجامعات السياسية الحاكمة قد تبلورت على أساس الجماعات القومية التى تقوم برباط اللغة، وقامت على أساسها الدول المشخصة لها.

وإن ما حدث لدينا فى المشرق، لم يجر على المنوال الأوروبى الغربى، من حيث قيام التناثر الإقطاعى هناك، ثم تبلور الجامعات القومية فى حركات توحيد ونشوء للدول القومية، وذلك من خلال التفكك وإعادة التصنيف والتجميع الذاتى. إنما جرى لدينا على أساس إضعاف الدولة العثمانية القائمة على أساس الدين، أو بعبارة أدق استغلال ضعفها الذاتى والتلقائى لإبقائها على تلك الحالة من الوهن ومن فقدان القدرة على النهوض، ومن السعى لإفشال حركات الإصلاح التى بدت أحيانًا مبشرة بالنهوض، وذلك لاقتسام أشلاء هذه الدولة شلوًا شلوًا، حسبما تسنح الظروف لأى من القوى السياسية الأوروبية الطامعة فى استعمار هذه البلاد. وإن الظروف لتسنح لذلك وفق موازين القوى بين الدول الأوروبية المتنافسة، ووفق ظهور الفرص التاريخية لاستعمار قطر ما أو لاحتلال صُقع ما. وهذا ما عبر عنه المؤرخون والكتاب الأوروبيون باسم «المسألة الشرقية» فى القرن التاسع عشر، وما عبرت عنه السياسة البريطانية وقتها باسم «الرجل العثمانى المريض»، الذى يحرصون على استبقائه مريضًا لكى يستثمروا الفرص فى الاقتطاع من جسده إربًا إربًا.

فى ١٨٣٠ احتلت فرنسا الجزائر، وفى ١٨٣٩ احتل الإنجليز عدن للسيطرة على باب المندب جنوب البحر الأحمر لتأمين طريقهم إلى الهند، وفى ١٨٨٢ احتل الإنجليز مصر للسيطرة عليها وللسيطرة على شمال البحر الأحمر، وفى ١٨٨١سيطرت فرنسا على تونس، وفى ١٩١٢ سيطر الفرنسيون على المغرب وسيطر الإيطاليون على ليبيا. وبقى للدولة العثمانية أرض الأناضول والبر الشامى حتى العراق. وفى ١٨٩٩ سيطر الإنجليز على السودان حتى منابع النيل، واقتطع الصومال بين الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين فضلاً عن الأحباش، واقتطعت أفريقيا جنوب الصحراء بين الإنجليز والبرتغاليين والبلجيك والفرنسيين والألمان.

أقصد من ذلك أن أوضح أن عمليات الاقتطاع الاستعمارى لم تتوخ التكوينات الجامعة التى تقوم بها وحدات سياسية ووحدات انتماء شعبى، ولا كان هدفها أن تصون أمرًا من ذلك، إنما كان الاقتطاع يتم حسب القدرة الذاتية للدولة الاستعمارية على اختلاس إقليم ما، وحسب موازين القوى بين الدول الاستعمارية بعضها وبعض، لأن الأمر كان أمر اقتسام وتوزيع، وهو أمر انعقدت له المؤتمرات الأوروبية عندما استدعت الحاجة ذلك لتوزيع الأقطار والأقاليم، كما حدث فى مؤتمر برلين ١٨٨٤ . ١٨٨٥ الذى قسمت فيه أقاليم أفريقيا بين الدول الاستعمارية الأوروبية، وكما حدث أيضًا فى اتفاق سايكس بيكو ١٩١٦ الذى جرى وعقد سريًا أثناء الحرب العالمية الأولى بين بريطانيا وفرنسا لاقتسام بلاد الشام والعراق بعد الهزيمة المتوقعة للدولة العثمانية.

من ذلك يظهر أن التكوينات السياسية التى ظهرت، من أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين لم تكن تتطابق مع تكوينات الجماعات السياسية حسب أى من معايير التصنيف التى تجمع هذه الجماعات وتميزها عن غيرها، سواء كانت نسبية قبلية أو لغوية أو دينية عقيدية. إنما عكست أكثر ما عكست موازين القوى بين الدول الاستعمارية، سواء بالنسبة لكل منها إزاء الأخرى، أو بالنسبة لسابق وجود لها فى الإقليم المعنى، أو بالنسبة للأهمية الاستراتيجية والجغرافية لإقليم أو قطر معين بالنسبة لدول استعمارية معينة إزاء الدول الاستعمارية الأخرى.

وهذا التقسيم الذى روعيت فيه العلاقات الدولية للمستعمرين، وبما لم تراع فيه الوحدات القبلية أو اللغوية أو الدينية، هو الذى تشكلت به «الحدود الدولية» لكل إقليم أو قطر أو صُقع فى كل من البلاد الإفريقية أو بلاد ما أطلق عليه «الشرق الأدنى»، «والشرق الأوسط»، «والشرق الأقصى». باعتبارها مناطق دولية توصف لا بوصف ذاتى يتعلق بأى منها، ولكنها توصف بمدى قربها أو بعدها عن المكان الأوروبى، وذلك بما يفيد تجريدها من أية أوصاف ذاتية تتعلق بالجماعات التى تحيا فى أى من هذه المناطق.

وقد جاءت هذه الحدود السياسية بين الأقاليم والأقطار، بموجب موازين القوى بين الدول المستعمرة، لذلك لم تراع الجوامع السياسية الاجتماعية بين البشر، ولم تراع الوحدات القبلية مثلاً فى البلاد الأفريقية، ولا راعت التكوينات اللغوية والدينية، فصارت وحدات الانتماء الجماعية، فى كل من هذه التقسيمات، تدور بين التعدد داخل حدود كل تقسيم وبين عدم الاكتمال؛ لأن جزءًا أو أجزاء فى داخل كل تقسيم يجد كماله وتمامه مع ذويه خارج حدود هذا التقسيم. وهذا يظهر أوضح ما يظهر فى بلدان أفريقيا من حيث التداخل والتعدد والتنافر؛ ومن حيث تقسيم المتجانس والمتناسب، وتجميع المتنافر والمتعاكس.

وبالنسبة للبلاد العربية، لا يظهر ما الذى يضم أجزاء سوريا الحالية بعضها إلى بعض مما لا يضم لبنان مثلاً والأردن أيضًا، وما الذى يجمع بين العراقيين بعضهم مع بعض، ولا يضم أجزاء من الخليج العربى شرقًا وغربًا إليها، وما الذى يفصل المملكة السعودية عن أجزاء من شرق الجزيرة العربية من حيث التجانس القبلى والعشيرى فضلاً عن توحد اللغة والدين والتاريخ. ولا يُعرف سبب جماعى لاعتبار عدن إقليمًا سياسيًا منفصلاً عن اليمن. وبالنسبة لباكستان والهند فلا يعرف سبب جماعى أيضًا يفصل كشمير عن باكستان ويضم إليها باكستان الشرقية التى نعرفها بمنطقة البنغال التى انفصلت من بعد وكونت دولة بنجلاديش.

وبالنسبة لمصر، فقد يظهر على السطح أن جماعتها السياسية البشرية مؤتلفة وتشكل جماعة مكتملة، وقد يمكن أن يساعد على هذا التصور ما يحيط بها من الصحارى غربًا وجنوبًا ومن البحار شرقًا وشمالاً، وما فعله التجمع قرب نهر النيل من النوبة إلى الإسكندرية ودمياط، ما فعله ذلك من



إسباغ وصف «دولة» على إقليم معين إنما جرى - لا بسبب يتعلق بالجماعة السياسية ذات الوجود المتجانس التى تعبر عنها هذه الدولة وتشخصها جماعة ومصالح - إنما صارت الدولة تنشأ أولاً لاحتياج خارجى، وتترسم حدودها الجغرافية وفقـــًا لهـــذه الاحتياجـــات

تداخل بشرى كثيف ومن تزاحم وتفاعل موحد فى الشعور والخبرات التاريخية والتكون النفسى المتجانس، وكل ذلك صحيح جداً، ولكنه رغم صوابه ينطوى على نقص خطير يتعلق بتمام الانتظام البشرى. ذلك أن الحدود الجغرافية لمصر تنحسر عن أن تستوعب أوضاع أمنها القومى، ومصدر الحياة لمصر وشعبها هو مصدر شبه وحيد، وهو نهر النيل، وهو نهر واحد، وهو يأتى بالمياه من مصادر تبتعد عن مصر بمسافات تتراوح بين ألفى كيلو متر وثلاثة آلاف كيلو متر من حدود مصر الجنوبية. فمصر باعتبارها كائناً حياً (بشراً وحيواناً ونباتاً) توجد أمعاؤه خارج جسمه. أرأيت إلى النخلة، تريد أن تفصل تاجها وجزءها العلوى عن جذعها وجذرها. ومن جهة أخرى، فمصر، أغلب ما جاءها من الغزو العسكرى أو التهديد بالغزو إنما جاءها من حدودها الشمالية الشرقية. ولسنا فى مجال سرد تفاصيل التاريخ فى هذا المجال، ولكن واقع الخبرة التاريخية يُظهر أن مصر ومنطقة الشام والحجاز هى منطقة أمن واحدة، ولا أظن أن النظرية العسكرية الحالية فى بدايات القرن الحادى والعشرين، قد عدلت من هذا النظر ومما خلصت إليه خبرة التاريخ. وكتابات العسكريين فى هذا الشأن ـ وحتى اليوم ـ سافرة الدلالة، واضحة المعنى على أن الأمن العسكرى لمصر يدور فى منطقة تبدأ من باب المندب جنوب البحر الأحمر شرقاً وغرباً إلى شمال سوريا شمالاً بشرق.

وبهذا يبين أن هذا الكائن الحى الذى اسمه «مصر»، توجد أمعاؤه خارج جسمه فى الجنوب، ويصوب الرصاص إلى رأسه من خارج حدوده المتاخمة شمالاً بشرق.

ومن هنا، فإن الجماعة المصرية ـ وإن كانت متجانسة تماماً من الناحية البشرية والثقافية والتاريخية ـ إلا أن القسم الغالب من أمنها يقف خارج حدودها، فهى غير مكتملة، وأن هذه الحدود التى حُدّت بها مصر، ليست إلا نتاج عمل استعمارى غربى أقرته ووقعته معاهدة لندن فى ١٨٤٠، ورسم هذا الحد فى لندن، ولم تجتمع الدول الأوروبية الكبرى على أمر كما اجتمعت على هذا الأمر وقتها.

[٣]

عندما ظهرت حركات التحرير الوطنية فى بلادنا، كان من الطبيعى أن تظهر فى كل قطر وفى حدوده، وذلك لاختلاف الظروف السياسية والاجتماعية التى جدّت، ولاختلاف أساليب حكم كل إقليم والتنوع الكبير للوسائل المستخدمة فى الاحتلال، وأنماط الحكومات، وطرائق التعامل.

وكان لكل دولة استعمارية أساليب تعامل تختلف عن أساليب تعامل الدولة الاستعمارية الأخرى، كما كان للطريقة التى وقع بها الاحتلال أثر فى تحديد أساليب الحكم والتعامل التالية للاحتلال، كما أن طريقة مقاومة الشعب المحتل أثرت فى تحديد وجوه التعامل الاستعمارى معه، فضلاً عن أن الهدف من الاحتلال، ثروة معدنية أو حيوانية أو طريقاً عالمياً، كان له أثره فى التحديد.

وكذلك، تأثر الأمر كله بالمرحلة التاريخية التى جرت فيها واقعة الاحتلال والحكم مع تغير أوضاع القارة الأوروبية وبلدانها على مدى القرون من السادس عشر إلى القرن العشرين، واختلافات تطوير أدوات الحرب ووسائل الاتصال وتغير الثقافة الاستعمارية، ذاتها بحكم النمو والانتشار وتغير موازين القوى بين القوى الاستعمارية من جهة، وبين كل منها والبلد المحتل من جهة أخرى.

يضاف إلى ذلك أن حركات التحرر ومقاومة السيطرة الأجنبية، لم يكن كل منها فقط على تنوع وتباين مع الحركات التحررية الأخرى. بل قام أحياناً بين بعضها البعض أنواع ودرجات من الصراع، ونتج هذا الصراع أو التباين بسبب طبيعة الصراع وأنواعه أحياناً، أو بسبب سياسة التحالفات أحياناً أخرى. وبالنسبة لصيغة الصراع، وهل يكون سلمياً حيث تتيح الظروف له ذلك؟ أو عنيفاً حيث تضطره الظروف إلى العنف؟، فإن ذلك يولد درجات من عدم التفهم بين حركات التحرر المتجاورة أو تلك التى يضمها سياق واحد، بمثل ما ظهر التباين بين حركة التحرر العنيف فى الصين مثلاً وبين حركة المقاومة السلمية فى الهند، فإن ذلك يجعل قوى التحرر الوطنى متعارضة من حيث الطبيعة السياسية والانتقاء الشعبى من طبقات وفئات معينة، ومن حيث الثقافة السياسية ذاتها.

أما الاختلافات الناتجة عن سياسات التحالفات بين حركات التحرير والحركات الثورية، فيسهل ملاحظة أن أية حركة تحرير أو مقاومة إنما تتطلع دائماً إلى مدد يأتيها من حلفاء لها فى الخارج تقوى به ضعفها، وتستعين به ـ فيما تستعين ـ على مواجهة جبروت الاحتلال والاستعمار. وإن التنافس الشديد الذى عرفته الدول الاستعمارية بعضها ضد بعض، ألجأ حركات التحرير أن يستند كل منها إلى الدولة الاستعمارية المنافسة، وكل يلجأ إلى خصم عدوه، يستمد منه الدعم، فتتصارع الحركات الوطنية فى حركة معاكسة لتصارع الدول الاستعمارية.

وجدنا الحزب الوطنى المصرى فى بداية القرن العشرين يستعين بفرنسا ضد الاحتلال الإنجليزى لمصر. ووجدنا الحركات الديمقراطية العربية فى الشام يستعين بعضها بالإنجليز فى مصر ضد حركة التتريك التى ظهرت وحكمت الدولة العثمانية بواسطة حزب الاتحاد والترقى، وذلك قبل الحرب العالمية الأولى، ووجدنا حركة التحرير فى عدن تستعين بإمام اليمن ضد الاحتلال الإنجليزى، فى حين أن ثوار اليمن ضد إمامهم، كانوا يركنون إلى الإنجليز فى عدن. ثم وجدنا فى النصف الثانى من القرن العشرين، أن حركة التحرير العربية تستعين بالحليف الروسى ضد الطغيان الغربى الأمريكى الصهيونى، بينما كل من إيران وتركيا يخشون الأطماع الروسية التاريخية فى بلادهم المتاخمة لروسيا، ويركنون إلى الدعم الأمريكى الغربى لهم، وهذا التطلع يشجع حكومات إيران وتركيا وقتها على التحالف مع الغرب وإنشاء القواعد العسكرية فى بلادهم للصالح الأمريكى الغربى العام.

بذلك اصطبغت حركات التحرر بالطابع القطرى الإقليمى الذى يلتزم بالحدود السياسية المضروبة عليها بفعل الاحتلال الاستعمارى والتقسيم الذى أجراه. لأن أساليب العمل عندما تتحدد بطريقة معينة وتتقيد بالإمكانات المتاحة لها، وتنحصر فى غايات تتوافق مع هذه المكنات، فهى أيضاً تنعكس على التشكل الثقافى والرؤية الذاتية، وتتحدد بها مناظير للأحداث. فتكون الحدود القطرية المرسومة على الأرض وفى الخرائط، هى ذاتها تقوم بها حدود فكرية ومنظور للرؤية يتحدد بها، وفقاً للأهداف المحدودة وللأساليب المتاحة، ويختار الرجال العاملون فى هذا الإطار ضمن التكوين الاجتماعى والطبقى والثقافى، ثم تتراكم خبراتهم العملية فى هذا الإطار أيضاً، فتتشكل الحركة بوصفها حركة إقليمية قطرية، أياً كانت الدعاوى النظرية التى يتشدق بها البعض.

أضرب لذلك مثلاً من الحركة الوطنية المصرية المقاومة للاحتلال الإنجليزى فى النصف الأول من القرن العشرين، كانت حركة تهدف لإجلاء الإنجليز عن مصر واسترداد وحدة مصر مع السودان. وكان يفصل مصر عن السودان حد رسم عند خط العرض رقم ٢٢ شمال خط الاستواء. ورغم أن الوطنيين المصريين وضعوا مطلب وحدة مصر مع



حركات التحرر الوطنى إن كانت استطاعت أن تزيح الاحتلال الأجنبى الاستعمارى عن أراضيها فى داخل أقطارها إلا أنها احتفظت بالحدود الاقليمية والقطرية التى سبق أن وضعتها الفترة الاستعمارية

السودان وضعًا مثيلاً لمطلب جلاء الإنجليز عن مصر، فإن الممكنات السياسية لحركة التحرير المصرية قصُرت عن أن تتخطى خط العرض المرسوم، وكانت تتشكل تشكلاً مصريًا بحتًا ليس للسودانيين فيه نصيب، وكانت تتشكل بمراعاة ممكنات المواجهة مع المستعمر فى نطاق الظروف المصرية، دون حساب لما تستلزمه أهداف الوحدة مع السودان من أنواع مواجهات مختلفة. وتحدد الفعل المصرى المكافح فى إطار الرؤية المحدودة بظروف مصر فقط؛ لذلك لم يكتب لهذا المطلب المصرى الجاد أى نصيب من التحقق، ولا وسعت الخبرة المصرية ظروف السودان وشعبه.

وأضرب لذلك مثلاً آخر، يتعلق بتجربة حزب البعث العربى فى بلاد المشرق العربى. وهو حزب واحد، وتكون تكوينًا قوميًا بقيادة قومية واحدة، ظهرت فى سوريا وأرض الشام، ثم صار ذا فروع فى بلاد عربية عديدة، ومطلبه الأساسى بعث العروبة وتحقيق الوحدة العربية، وكان أقوى انتشار له فى سوريا والعراق، وتولى فريق البعث فى كل من البلدين الحكم فى بلده مستقلاً عن الآخر فى عملية سياسية أنتجتها ظروف كل بلد مستقلاً عن الآخر، وفى أوقات منفصلة. وما لبث الفريقان أن تدابرا وصارت بينهما من الجفوة السياسية الحزبية والحكومية، ما يكون من خصام الغرباء المتنافسين المتضادين، واستخدمت آلة الدولة فى كل من البلدين ضد مؤيدى الفريق الآخر من مواطنيها.

وفضلاً عن ذلك، فإن حكومات هذه الأقطار كانت نشأت فى الإطار الإقليمى الذى تحدد على وفق التقسيمات التى رسمتها موازين القوى الاستعمارية حسبما سلفت الإشارة، وحيثما كانت هذه الأقطار منسلخة من جماعات أخرى ومن دول قديمة سابقة، لم يكن لديها جهاز حكومة قديم مستقل مدرب على ممارسة الحكم وإدارة شئون الجماعة المحكومة. ومثل هذه الأقطار ساهم الاحتلال الأجنبى فى تشكيل أجهزتها الحاكمة وفى تشكيل إدارتها، وبعضها تشكل من أقليات دينية أو مذهبية أو قبلية ليسهل إلحاقها بسياسة الاحتلال، وبعضها تشكل من فئات لم تكن من النخب التى شاركت سابقًا فى الإدارة؛ حتى يسهل ارتباطهم بسياسة الاحتلال من حيث الموالاة، ومن حيث الخبرات المكتسبة التى لا تزاحمها خبرات تقليدية قديمة، إلى غير ذلك من الاعتبارات التى تجعل فئة الحكم والإدارة الجديدة أكثر موالاة لسلطة الاحتلال القائم، منها إلى الجماعة أو الجماعات السياسية التى يضمها القطر المحتل أو الإقليم. ويستثنى من ذلك أقطار مثل مصر التى لم تتعدد فيها الجماعات السياسية المتزاحمة على الاختلافات الدينية أو المذهبية أو القبلية أو اللغوية، وإن كانت هذه الأقطار لم تكن تعكس جماعة مكتملة، حسبما سبقت الإشارة عن مصر.

والحاصل أنه عندما انتصرت حركات التحرير فى النطاق الإقليمى القطرى، كل حسب ظروف نصره وأزمان نصره، سيطرت على حكومات بلادنا فى النطاق الإقليمى القطرى أيضًا، ولم تتجاوزه بطبيعة الحال، وأن حركات التحرير الوطنى التى سيطرت على دولها وأجهزة الحكم فى أقطارها، وإن عدلت وحورت من أجهزة الحكم السابقة بما يتناسب مع السياسة الوطنية الجديدة، وهى وإن غيرت فى تشكيلات كبار العاملين فى هذه الأجهزة وأحلت محلهم من أنصارها وذوى نظرتها وسياستها المستقلة المتحررة، إلا أن نطاق الحكم ظل قطريًا وإقليميًا، واصطبغت حكومات التحرر الوطنى بالصبغة القطرية الإقليمية، ولم تستطع أن تتجاوزها لا من حيث السياسات ولا من حيث الخبرة وتراكمها، وعكست فى ذلك أوضاع التقسيمات القديمة التى آلت إليها من عهد الاستعمار.

والأخطر من ذلك، أن حكومات التحرر الوطنى استمر معها قيام الفجوة بين جماعة سياسية وجماعات سياسية شعبية متعددة وغير مكتملة، فهى متعددة داخل الكيان القطرى الإقليمى الواحد الذى تحدد بالسياسات الاستعمارية وموازين التنافس بين الدول الكبرى، ولم تتكامل على حدود الجماعة السياسية وفقًا لأى من التصنيفات الفاعلة فى هذا الشأن، أى لم تتكامل تكامل الفرنسيين فى فرنسا ولا تكامل الإنجليز فى بلادهم، إنما قامت وفقًا للحدود الإقليمية والقطرية التى سبق أن وضعتها الفترة الاستعمارية التى قامت ضدها حركات التحرر الوطنى وانتصرت عليها فى القطر المحرر سابق الاحتلال.

وهذه مفارقة مهمة، فإن الفعل الاستعمارى الذى قامت به الوحدات القطرية الإقليمية، والذى لم يحتل الأرض ويستعمر الشعوب فقط، ولكنه انتهك الجماعات السياسية فى توحدها وتكاملها، وقسم الأقطار والأقاليم لا على وفق هذه الجماعات، هذا الفعل الاستعمارى بوجهيه كافحته حركات التحرير فيما يتعلق بالاحتلال والاستعمار، ولكن لم تلغ مشيئته فى التقسيمات الحاصلة منه، وما أدت إليه من تمزيق وتبعثر للجماعات السياسية المعنية. وأكثر من ذلك فإن حكومات التحرر الوطنى أبقت هذه التقسيمات واعتمدتها وأرجأت النظر فيها، إما دعمًا لها من بعض هذه الحركات وحكوماتها، وإما تفاديًا لصراعات تنشأ ولا يُعرف لها مآل بالنسبة لحكومات التحرر الوطنى حديثة التشكيل.

ولعل أهم مثال على ذلك ما حصل بالنسبة للدول الأفريقية حديثة الاستقلال فى الستينيات من القرن العشرين وما بعدها. فقد قامت منظمة الوحدة الأفريقية فى ١٩٦٣، ووقع ميثاقها فى ٢٥ مايو ١٩٦٣ فى أديس أبابا من اثنتين وثلاثين دولة مستقلة، زادت بعد ذلك بما انضم إليها تباعًا من الدول التى استقلت. وكان قد أثير موضوع الحدود لهذه الدول مما سبق للاستعمار المنحسر عن القارة أن فرضه. واختلف الأعضاء فيما إذا كان ينظر فى إعادة رسمها وفق الجماعات السياسية الشعبية أم لا، ولكن الاتجاه الغالب رجح بوضوح الإبقاء على الحدود كما هى. وهذا الاتجاه ذاته لم يشأ أن يطرح ـ صراحة ـ مبدأ المحافظة على الحدود بوصفه حكمًا فى الميثاق، لا لعدم الاقتناع به ولكن خشية ألا تحظى الموافقة على المبدأ بالإجماع المطلوب، أو أن ينكشف الخلاف ويتطور فى هذا الشأن، والمهم أن المحافظة على الحدود الاستعمارية السابقة صار مبدأ لدى حكومات الاستقلال الوطنى. وإن استمسكت دول التحرر الوطنى بميراث الحدود الإقليمية الذى آل إليها من الاستعمار.

ونحن فى عالمنا العربى نعرف أيضًا ما حدث من تمسك بحدود اتفاقية سايكس بيكو فى بلاد المشرق العربى، فقد ظلت بعد الاستقلال فى الأربعينيات من القرن العشرين على ما كانت عليه أيام الاحتلال الفرنسى الإنجليزى لهذه البلاد، إلا ما حدث فى فلسطين مما كان له شأن آخر، وقد ظهرت بعد ذلك مشروعات توحيد باسم «الهلال الخصيب» تضم بر الشام كله والعراق، ومثل «سوريا الكبرى» تضم بر الشام كله، ولم يفض شىء من ذلك إلى شىء فى الواقع.

ومصر، بترت عن جاراتها فى الشمال الشرقى، أى فى بر الشام، منذ اتفاقية لندن فى ١٨٤٠ مع بقائها الشكلى فى الإطار العثمانى، ثم بُترت عن حدودها الجنوبية مع السودان بعد الاحتلال الإنجليزى لها فى ١٨٨٢ وإنهائهم الوجود المصرى فى السودان، ثم إعادة فتح السودان لصالح الإنجليز وإبرام اتفاقية ١٨٩٩ حول هذا الأمر، وظهرت دعوة وحدة وادى النيل بين مصر والسودان، وهى دعوة صنو، لدعوة الجلاء البريطانى عن مصر، ولكن تحقق الجلاء عن مصر فى ١٩٥٦ فى ذات الوقت وفى ذات السنة التى



الجماعة المصرية ـ وإن كانت متجانسة تمامًا من الناحية البشرية والثقافية والتاريخية ـ إلا أن القسم الغالب من أمتها يقف خارج حدودها، فهى غير مكتملة، وأن هذه الحدود التى حُدت بها مصر، ليست إلا نتاج عمل استعمارى غربى

تحقق فيها الانفصال بين مصر والسودان، بجلاء الإنجليز عن السودان بموجب اتفاقية ١٩٥٣ ونشوء حكومة السودان المستقلة فى ذات السنة.

[٤]

إن الاستعمار ليس عدوانًا فقط، وليس ظاهرة سياسية عسكرية تأتى ثم تذهب منفردة، ولكنه مثل أى مؤثر سياسى اجتماعى تاريخى ذى فاعلية، يولد آثارًا ويغير من أوضاع، وإن وجوده من شأنه أن يغير من هيكل الأوضاع التى كانت قائمة قبل وفوده، فينهى عناصر قوة كانت موجودة، وينهى أيضًا عناصر ضعف كانت قائمة قبله، وكانت هى ما تسبب فى تحقيق الاحتلال، ولكن تنشأ فى ظله عناصر قوة جديدة من أنواع مستحدثة لم تكن قائمة، كما تنشأ فى ظله عناصر ضعف ووهن واضطراب جديدة من أنواع مستحدثة أيضًا لم تكن قائمة بهذه الصورة أو الكيفية من قبل، أرأيت إلى الشخص يمرض لعلل فيه، ثم يورثه المرض عللاً جديدة لم تكن فيه، فإذا أبل من مرضه الأول لزمه علاج جديد لعلته الطارئة.

وأظهر مثال على ذلك، ما سبقت الإشارة إليه، من أن الاستعمار بإمكاناته الذاتية وبموازين علاقاته مع الدول الاستعمارية الأخرى، قد أنتج تقسيمات وحدودًا للأرض المحتلة لم تكن قائمة بهذه الصورة من قبل، وهذه الحدود والتقسيمات نشأت فى ظلها مؤسسات تحددت فى نشاطها بهذا النطاق، سواء كانت حكومات عهود الاحتلال المؤيدة له، أو حركات التحرر والمقاومة لهذا الاحتلال، نشأ ذلك محصورًا كل منه فى النطاق المضروب، فصار ذا خصائص إقليمية قطرية محدودة بهذا النطاق.

أرأيت إلى المادة تنضغط فى وعاء أو تنشأ منضغطة فيه، فإذا انفك الوعاء منها وسقط، بقيت هى فى تشكلها الداخلى تتخذ حجم الوعاء المنفك وقده، وتمارس وظائفها فى هذا النطاق؛ لأنها بطاقاتها وإمكاناتها صارت محكومة بهذا القد، كما أن علاقاتها الداخلية وقدراتها الذاتية بين أجزائها صارت مترابطة على هذا الوضع، وبحيث إن امتدت أطرافها وتباعدت أوصالها، فإنها تتفكك وتتفسخ. ومن هنا تقوم هذه الذاتية - من حيث تدرى أو لا تدرى - بالمحافظة على هذا الوضع الراهن.

هكذا كان الشأن بالنسبة لحركات التحرر الوطنى التى أجلت المحتل الأجنبى وأنهت فترة الاستعمار الغربى التقليدية السابقة، وهكذا كان الشأن بالنسبة لحكومات التحرر الوطنى التى ورثت عهود الاستعمار السابقة، وحلت محلها فى حكومة مجتمعاتها، صارت محدودة القد والوظيفة والقدرة والنظرة فى الإطار الإقليمى الذى مارست حركتها السياسية فيه من قبل الإطاحة بالاستعمار، وصارت محدودة فى كل ذلك من آلة الحكم التى ورثتها وشغلتها من بعد جلاء المستعمر وحلولها محله.

ونحن نعرف أن التشكل العضوى لأىّ تنظيم سياسى حركى، من حيث صفات الأعضاء المنتظمين فيه، ومن حيث علاقات تبادل المعلومات والخبرات، وأساليب اتخاذ القرارات، والالتزام بها وتنفيذها، هذا التشكل العضوى واللائحى فى التنظيم السياسى الحركى يصير هو ذاته التشكل الذى تنبنى به الدولة التى سيطر عليها ويشغلها من بعد، وتتشكل به خرائط توزيع القرارات واتخاذها وتنفيذها، وهو ذاته الذى تتحدد به أوصاف الأعضاء ونوعياتهم. ومثال ذلك مثلاً، فإن الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط قامت فى مصر بموجب التشكل المختلط من ذوى الديانتين من المصريين، سواء فى التشكيلات الحزبية التى ظهرت فى مصر تطالب بالاستقلال واستكماله وإجلاء الإنجليز، أو فى التشكل الذى بُنى به جهاز الدولة ومن بعده؛ لذلك لم تقم مشكلة حقيقية فى مصر تتصل بهذا الشأن. أما ما كان بالنسبة للسودان، فقد كان أمرًا مختلفًا، إذ لم يُبنَ أى من حركات السياسة التحريرية فى مصر بتكوين مشترك من مصريين وسودانيين، ولا كان ذلك مما تشكلت به أجهزة إدارة الدولة فى مصر ولا فى السودان؛ لذلك لم يكتب للوحدة أن تتم بين مصر والسودان. وصار الجهاز الحكومى فى كل من مصر والسودان جهازًا معوقًا لتحقيق ما صبا إليه الجانبان من وحدة بينهما، أيقنا معًا أن صالحهما المشترك يقتضيها، فى مدى النصف الأول من القرن العشرين.

ومثال آخر، فإن حزب المؤتمر فى الهند نشأ ونما على أساس تكوين عضوى هندوسى فى الأساس، وما لبث أن ظهر بجواره حزب آخر هو العصبة الإسلامية، ورغم أن كلاً منهما كان معارضًا للوجود الاستعمارى الإنجليزى فى الهند، وكلاهما ينشد استقلال الهند من الحكم البريطانى، فإن هذا التركيب العضوى للتنظيم الحركى فى صورته الانفصالية لكل من الهندوس والمسلمين، هو ما حكَم تشكل الجماعة السياسية من بعد، وحمل فى طياته القدر التاريخى المرسوم لانفصال مسلمى الهند عن هندوسها، ونشوء جماعتين سياسيتين مستقلتين فى ربوع الهند الكبير. وصار تكوين حركتين وتنظيمين هو جنين التكوين لجماعتين سياسيتين، ثم صار تكون حكومتين لكل من الهند وباكستان عائقًا صلدًا دون تحقيق الوحدة بينهما من بعد. وإذا كان الاحتلال البريطانى هو من أغرى كلا من الفريقين بالنشوء المستقل عن الآخر، فقد صار هذا النشوء نفسه عائقًا صلدًا حتى بعد خروج الإنجليز من الهند، وآل الأمر إلى ما نعرف جميعًا من جفوة وعداء، ومن وقوع باكستان فى براثن الهيمنة الغربية، ومن تمكن الغرب (الإنجليزى ثم الأمريكى) من الإفادة من عداء كل من الجماعتين الهنديتين للأخرى. فالهند الضعيفة أفضت إلى الاحتلال الإنجليزى، والاحتلال الإنجليزى أفضى إلى التقسيم، وزال الاحتلال وبقى التقسيم، وقام التهديد المتبادل يعمق الخلافات بين أهالى الدولتين.

وفضلاً عن ذلك جميعه، فإنه إذا كانت الدولة القُطرية هى من معوقات الوحدة بين من يشتركون فى جماعة سياسية أشمل، وبين من يحتاجون إلى الاندراج فى هذه الجماعة الأشمل ليستقووا بها على ما يواجهون من مخاطر مشتركة، فإن ما حد - أيضًا - من القدرة على توحيد الأقطار المتشاركة فى جماعة أشمل، يتعلق بموازين القوى بين حركات التحرر وبين القوى الاستعمارية بخاصة والقوى الدولية الكبرى بعامة. نحن نلحظ أنه على مدى القرن العشرين تحقق الاستقلال السياسى للغالب الأعم من بلاد العالم وأقطاره التى كان تم اقتسامها بين الدول الغربية الكبرى فى مفتتح هذا القرن نفسه. ومع ذلك ورغم تحقق الاستقلال السياسى للغالب الأغلب منها، فلا نكاد نلحظ واقعة توحد جرت ونجحت بين بعض هذه الأقطار وبعضها الآخر.

ومصر والسودان، لم تستطيعا أن تتوحدا رغم دعاوى وحدة وادى النيل، ورغم الاحتياج الشعبى الحقيقى للوحدة لدى تيارات جد مؤثرة فى البلدين، وتحقق الانفصال السياسى فى منتصف الخمسينيات، ومصر وسوريا حققتا وحدة سياسية فى ١٩٥٨ وأنشأتا دولة واحدة، وسط زخم سياسى دعوى هائل تزكيه دعوى العروبة والتشوق للأمة الواحدة، ويدعمه الحس الحقيقى بالخطر المحدق من وجود دولة إسرائيل وتهديدها كلا الإقليمين المصرى والسورى فيما تهدد من أقطار العرب والمسلمين وشعوبهم، ويقويه سيطرة الوطنيين الوحدويين على الحكم فى كلا الإقليمين، فى شعور تعبوى عام يشمل العرب جميعًا ويحتضن أملهم.

ومع ذلك لم تستمر الوحدة أكثر من ثلاث سنوات ونصف (من فبراير ١٩٥٨ حتى سبتمبر ١٩٦١)، وكانت سياسات



الحدود الجغرافية لمصر تنحسر عن أن تستوعب أوضاع أمنها القومى، ومصدر الحياة لمصر وشعبها هو النيل، وهو يأتى بالمياه من مصادر تبتعد عن مصر بمسافات تتراوح بين ألفى كيلو متر وثلاثة آلاف كيلو متر. فمصر باعتبارها كائنًا حيًا توجد أمعاؤه خارج جسمه

الدول الكبرى مما أسهم فى حدوث الانفصام. فضلاً عن التكوين المؤسسى الحكومى الذى سبقت الإشارة إليه. ومحاولات توحيد مصر وليبيا والسودان فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات لم تسفر عن شىء متحقق، سواء فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر أو فى عهد خلفه الرئيس أنور السادات، وكانت الإرادة الوطنية تتكسر من دون ما تطمح إليه من توحيد، أو كانت المشيئة الاستعمارية تتغلغل فى الإرادة «الوطنية» لأى من الأقطار بما يفشل مسعى التوحيد.

وبالنسبة لغير العرب حدث ذات الأمر، فإن باكستان انشقت دولتين بانفصال بنجلاديش عنها فى السبعينيات، ويوغوسلافيا تناثرت دويلاتها شعاعاً فى شبه جزيرة البلقان، ومع انهيار الاتحاد السوفيتى، سقطت منه الجمهوريات الإسلامية لوسط آسيا والواقعة فى جنوبه، سقطت مكونة خمس جمهوريات. وهى إن كانت لم تجمعها من قبل جامعة سياسية ووحدة انتماء أشمل مع روسيا القيصرية أو روسيا الشيوعية، إلا أنها كان حريا بها عند انهيار الاتحاد السوفيتى فى بداية التسعينيات أن تتجمع بجامع الإسلام أو جامع قومياتها التركية أو غيرها، ولكن لم يحدث شىء من ذلك، وما كان لروسيا ولا لأمريكا ولا للغرب بعامة - على تعارض مصالحه - أن يسمح بشىء من ذلك، يقوم فى بطن آسيا فى جنوب روسيا وغرب الصين وشمال الهند وباكستان وشرق إيران وتركيا، كما سقط من روسيا أيضاً جمهوريات البلطيق فى شمال أوروبا عند روسيا الغربية، وتناثرت فى بضع جمهوريات منها أوكرانيا وروسيا البيضاء وغيرها من ساحل البلطيق غرباً إلى ساحل البحر الأسود جنوباً.

لا أخال أن وحدة جرت إلا ما كان من وحدة اليمن الشمالى مع جنوب اليمن المكون أساساً من عدن وحضرموت عند شاطئ بحر العرب والبحر الأحمر. وكانت هذه حالة فريدة جرت فى «غفلة من الزمان الاستعمارى، إن صح هذا «التعبير الشاعرى»، ولعل من عناصر ما يحيط بهذا الحدث السياسى، أن زمان الحدث كان يواكب بدء سقوط الثنائية الدولية وبدء انهيار الاتحاد السوفيتى دون أن يظهر بوضوح ما تستقر عليه الأحوال، وأن المنطقة ذاتها لم تكن ذات أولوية سياسية تجعلها فى بؤرة الفعل الدولى للدول الكبرى، وأن الحكم اليسارى السابق لعدن كان انهياره بغير بديل داخلى معقول.

والمهم المقصود من ذلك كله، بيان أن حركات التحرر الوطنى إن كانت استطاعت أن تزيح الاحتلال الأجنبى الاستعمارى عن أراضيها فى داخل أقطارها، وإن كانت استطاعت أن تسترد قدراً مهماً من إرادتها الوطنية تتوخى بها صالح شعوبها فى هذه الفترة لما بعد الاستقلال، فإنها لم تستطع أن تحقق إرادتها الوطنية ولا أن تستجيب لموجبات توحيد الجماعات السياسية بما يضمن لها الموقع الأمثل والأفعل فى الإطار الدولى. وإن كان ذلك بسبب عاملين أساسيين، أولهما: أن الإرادة الذاتية لمؤسسات الاستقلال الوطنى القطرى صارت معوقاً للتوحيد، والثانى: أن موازين القوى الدولية لم تكن تمكن من تحقيق هذه الأقطار التى تنشئ كيانات دولية ذات بأس وقوة ومنعة.

[٥]

المواطنة - فى ظنى - هى واحد من وجوه الانتماء للجماعة السياسية، لأن المواطنة هى صفة للفرد الذى ينتمى لجماعة سياسية معينة، قامت على أساسها الدولة. والمبدأ النظرى أن الدولة تعتبر المؤسسات ذات السلطان التى تدير الشئون العامة للجماعة السياسية، وهى - بموجب حاكميتها للجماعة وإدارتها لشئونها العامة - تكون ذات سطوة وولاية عليها، بقدر يضيق ويتسع، ويشتد ويضعف، حسب التنوع الهائل الحاصل فى هذا الشأن، ولكنه بموجب هذه الحاكمية يظهر إزاءه فى المقابل وصف المواطنة، بحسبانه وصفاً سياسياً يتحدد به الطرف الآخر للعلاقة مع الدولة. والمواطنة بذلك هى الصفة التى تتعلق بالفرد بما توافر فيه من وصف سياسى قامت الدولة على أساسه.

والفارق - فى ظنى - بين «المواطنة» وبين «الجنسية»، هو فارق بين الوصف السياسى وبين المصطلح القانونى. الوصف السياسى هو وصف واقعى يستخرج من أوضاع الحياة المعيشة، ويتعين بالاستقراء مثل ظواهر الطبيعة والظواهر الاجتماعية، وهو بذلك يعتريه التدرج بين الظهور والخفوت، وبين التحدد والتداخل، وبين الانضباط والتردد، وبين التيبس والمرونة. بينما المصطلح القانونى تتحدد به مراكز للحقوق تكون ثابتة كما تكون باتة وحاسمة، وتقطع بين الأمر وغيره. والقانون لا يحيط بالظاهرة ولا يحصى أفرادها، ولكنه يكتفى بما يتوافر «غالباً» فقط: لأن الضبط لديه أولى؛ ولأن الظهور أجدى من حيث ما يتغيا من كفالة الحقوق وتحديدها وتعيين الواجبات والالتزام بها. وإذا كان الوصف السياسى يصدر عن أصحاب رأى فى مجتمعهم، فإن المصطلح القانونى يصدر عن ذوى ولاية بسلطانهم؛ ومن ثم يملكون التقرير وإن كان يتضمن قدراً من التحكم.

فالمواطنة والجنسية، أمران يشيران إلى ظاهرة واحدة تتعلق بالوصف الذى يلحق الفرد بموجب انتمائه لجماعة سياسية قامت على أساسها الدولة. ولكن الأول يتناوله رجال السياسة والاجتماع بآرائهم ودعاواهم، والآخر يملكه رجال الحكم بقراراتهم وسلطانهم وتحديدهم لحد الواجب وحد الحق.

والمواطنة - باعتبارها وصفاً - يكفى فيه التقبل العام والتراضى العام حسبما يشيع بين الناس وتتقبله الحياة الاجتماعية، وقد كان ذلك كافياً فى المجتمعات القديمة، وقبل ظهور الدولة الحديثة فى القرنين الماضيين. أما الجنسية فهى بما يتعين أن يتوافر لها من ضبط وتحدد، إنما ظهرت مع ظهور الدولة الحديثة من حيث ما انكفل لأداة هذه الدولة من كامل الهيمنة على المجتمع، ومن حيث ثبوت الحدود الإقليمية للدول بالضبط الذى بينته الخرائط، ومن حيث ما صار لهذه الدولة من ولايات محددة لإصدار القرارات والقوانين وما كفلته أساليب الإدارة الحديثة من الإثبات الكتابى وحفظ المكاتبات وغير ذلك من ضبط السجلات والأضابير.

والمواطنة تكشف عن انتماء سياسى للجماعة، وعن علاقة بالدولة التى تحكم وتدير هذه الجماعة، ولا يقوم مشكل فى ذلك ما بقى الأصل النظرى سائداً ومطبقاً فى الواقع العملى؛ أى ما بقيت الدولة تصدر وتؤسس على جماعة سياسية محددة ومتبلورة. ولكن الخلل يظهر عندما نلحظ ما لاحظناه من أثر الاستعمار على الجماعات السياسية وعلى نشأة الدول فيها بالنسبة لشعوب آسيا وأفريقيا، وما حدث من تقسيم وتفتيت لم يراع الضوابط والميزات التى تميز كل جماعة سياسية عن غيرها، من حيث الوصف والتصنيف السائد لدى شعوبها والذى يرتضونه مميزاً لهم عن غيرهم وكافلاً لمصالحهم المشتركة.

ولقد كان من شأن هذا التقسيم والتفتيت أن يفضى إلى وضع من أوضاع الاستحالة بالنسبة لعلاقة الجماعة السياسية مع الدولة، من حيث عدم إمكان تحرير وصف المواطنة الذى يتصل بعلاقة الدولة برعاياها، ولكن الحادث أن الدولة الحديثة كانت قد نشأت وظهرت بما تتحلى به من مكنات التشريع والإقرار بالحقوق والواجبات لرعاياها، وظهرت قواعد الجنسية وأحكامها. وقد سبقت الإشارة إلى أن من الفروق بين مفهوم «المواطنة» ومفهوم «الجنسية»، أن مفهوم المواطنة تقرره



التكوينات السياسية التى ظهرت، من أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين لم تكن تتطابق مع تكوينات الجماعات السياسية حسب أى من معايير التصنيف التى تجمع هذه الجماعات وتميزها عن غيرها

الجماعة بالنسبة لأفرادها أو لجماعاتها المندرجة فى تشكيلها العام، وذلك بالتقبل والتعارف العام وفقًا لما يسود لديها من أعراف، أو بما يتداوله مفكروها وساستها من آراء يستخرجونها بالاستقراء والملاحظة لأوضاع الواقع والجماعات، بينما الجنسية تتحدد بمركز قانونى يحدد حقوقًا وواجبات، وتقرره الدولة بما تملك من سلطات التشريع والإنفاذ لقراراتها.

صار الوضع من الناحية الواقعية بالنسبة للجماعات والشعوب والبلاد التى خضعت للاستعمار، صار الوضع يتحدد - كما سبقت الإشارة - لا بموجب ما تكشف عنه التصنيفات البشرية من جماعات سياسية، ولكن بموجب علاقات القوى بين الدول الاستعمارية فى تحديد الحدود الجغرافية لمناطق نفوذها، أو بموجب علاقات القوى بين حركات التحرر الوطنى فى هذه الأقاليم والقوى الاستعمارية، وذلك بصرف النظر عن التميزات العرقية واللغوية والدينية والمذهبية والإقليمية، والتى تفرز جماعة عن جماعة، فصار الإقليم يتحدد أولاً بموجب توازنات القوى الخارجة عنه والمؤثرة فيه، ثم تتحدد على أساسه الدولة، ثم تظهر المواطنة بموجب ما تضعه الدولة من أحكام وقواعد للجنسية التى يتحدد بها رعاياها. وهذا بالضبط هو عكس الوضع الطبيعى الذى ينبغى أن يحدث.

ونحن نعرف أنه طبقًا للفكر السائد فى فقه القانون الدولى العام، أن الدولة هى جماعة من الناس تقيم فى إقليم معين وتقوم عليها حكومة، والتعريف يحدد المسألة، بما يكشف أن الجماعة السياسية هى الأساس، وهذا تكوين ثقافى - بطبيعة الحال - يعتمد على الإدراك لعلاقة الانتماء التى تربط ناساً بعضهم ببعض، بالتفصيل الذى ورد فيما سبق بصدد هذا الموضوع، وأن الإقليم هو ما يتحدد به وجود الجماعة ذات الصيرورة التاريخية، وأن الدولة هى نتاج هذا الوضع؛ لأنها مؤسسة إدارة الجماعة والذود عنها مما هو مشترك وعام لديها. أما الصورة التى صيغت بها دول ما بعد الخضوع للاستعمار، فقد تعينت - أولاً - بموجب حدود جغرافية، ثم قامت الدولة على أساس هذه الحدود وما بها من شعوب أو جماعات بصرف النظر عن مدى التجانس والتوحد بينهم، وبصرف النظر عن مدى انتماء بعضهم لباقى جماعاتهم خارج الحدود الإقليمية المضروبة عليهم. ثم إن هذه الدولة هى من أصدر قانون الجنسية الذى تحدد به من هم مواطنوها. أى أنه بدلاً من أن يكون الشعب هو من عين دولته، صارت الدولة هى من عين شعبها. أرأيت إلى جمعية من الجمعيات أو شركة مساهمة من الشركات أو نقابة من النقابات؟ الأصل فيها أن جمعيتها العامة هى من يشكل مجلس إدارتها، أرأيت صورة هذه التكوينات: أن صار مجلس الإدارة هو الأصل وهو من يعين جمعيته العمومية؟

ترتب على ذلك ما نراه فى عالم اليوم من كيانات عجيبة، اتخذت وصف «الدول»، وأقر لها النظام الدولى الذى تسيطر عليه الدول الكبرى منذ القرن التاسع عشر، أقر لها بالوجود الشرعى بوصفها دولاً، وهى فى الحقيقة دول بغير جماعات سياسية ذات تميز وتكامل متبلور. فعرفنا دولاً هى فى الحقيقة مساحات أرض لإنتاج أو استخراج مواد معينة من باطنها؛ فهى تقوم بوظائف تقتضيها الأوضاع العالمية: متطلبات واحتياجات؛ بصرف النظر عن المتطلبات والاحتياجات التى يقتضيها شعب هذه الدولة، وهى تقوم بهذه الوظائف فى إطار القدرات والممكنات العالمية: بصرف النظر عن قصور القدرات والممكنات التى يطيقها شعب هذه الدول. ومن ثم، لوحظ أن عدد الأجانب فى بعض من هذه الدول يزيد على عدد من أقر لهم بالمواطنة بموجب قوانين الجنسية.

وعرفنا أيضاً دولاً هى فى الحقيقة قواعد عسكرية وجدت لتدافع عن المصالح الاستراتيجية للدول الكبرى فى إقليم معين، وجرت حركة تهجير شعوب إليها؛ ليقوموا بوظائف الخدمة والإدارة والتعزيز للوظائف العسكرية المنوطة بهذه الدول. وعرفنا دولاً تقوم بوظائف الأسواق التجارية فقط فى المنطقة التى وجدت بها، وتعتمد فى ذلك على حركة بيع للسلع التى ترد إليها من الخارج، وحركة شراء لذات السلع التى تصدر منها للخارج، والبائع والمشترى كلاهما أجنبى، والتجار أكثرهم أجانب، أو هم وكلاء لأجانب. وعرفنا دولاً هى مجرد نقط مرور تقوم فى مضايق البحار أو وسط المحيطات لتقدم الخدمات الملاحية لمن يمرون عليها فى طرق التجارة الدولية. وصار إسباغ وصف «دولة» على إقليم معين إنما يجرى - لا بسبب يتعلق بالجماعة السياسية ذات الوجود المتجانس التى تعبر عنها هذه الدولة وتشخصها جماعة ومصالح - إنما صارت الدولة تنشأ أولاً لاحتياج خارجى، وتترسم حدودها الجغرافية وفقًا لهذه الاحتياجات، ثم تكتسب حماية المجتمع الدولى ومنظماته - لا لرعاية شعبها وجماعتها ولا ذوداً عن شعبها وتحقيقاً لمصالحه - ولكن لرعاية الوظائف التى نيطت بها خدمة مجموعة الدول الكبرى المستعمرة، وسلس كل ذلك وسهل بموجب أن الإقليم كُون أولاً، ثم نشأت الدولة، ثم قامت الدولة بتعيين شعبها، وتحديد وصف المواطنة والذى يُسبغ على من ترى جدارتهم لتحقيق الوظائف المنوطة بالدولة من الخارج.

صارت الدولة - فى هذا النطاق وبهذه الوظائف المنوطة بها - ليست فقط عائقًا فى وجه تحقيق وحدة من يخضعون لها من فصائل شعبها ومن الجماعات السياسية التى تمتد خارج الحدود الإقليمية لهذه الدولة، ولكنها أيضاً دولة تنتمى إلى نظام الدول الكبرى المهيمنة فى العالم، وتخدم صوالح هذه الدول الكبرى، بصرف النظر عن وجوه الصلاح للجماعات السياسية الخاضعة لها، وصارت منافذ للوفود الأجنبى للجماعات الخاضعة لها، بدلاً من أن تقوم بالواجب الأول الذى يتعين أن تقوم به الدولة؛ وهو حماية شعبها من المخاطر الخارجية.

وقد لا تكون مصر على هذه الصورة الأخيرة بالنسبة لعلاقة الدولة مع الجماعة: بسبب ما لشعبها من تجانس، وما لذلك من أثر مهم فى تشكل دولتها، ولكن لا ننسى قط أن مصر غير مكتملة؛ لأن ما يتهدد أمنها القومى يوجد خارج حدودها الدولية المرسومة؛ ولذلك أثره الكبير فى أنها ما بقيت منكمشة داخل هذه الحدود، فهى بالضرورة ستكون خاضعة للقوة الأجنبية.

[٦]

إن هذا الذى حدث أوجد شرخًا مؤسسياً فى بناء العلاقة بين الجماعة السياسية وبين الدولة، وذلك فى الغالب فى البلاد السابق استعمارها، أو البلاد التى نجح الاستعمار فى خط حدودها، بل الظن القوى أن هذا الحادث لم يشرخ تلك العلاقة فقط، بل صدعها فى الكثير من الحالات، فصارت الدولة تشكيلاً مؤسسياً خارجياً عن الجماعة مفروضاً عليها، وصار الخاضعون لها أشتاتًا من جماعات تتدرج بين التنافر وعدم التجانس وتوزع الأجزاء. وأوضح الأمثلة على ذلك الكثير من البلاد الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى.

وكما سبقت الإشارة، فإن الأصل أن تتبلور وتتعين الجماعة السياسية، وأن تقوم الدولة على هذا الأساس وفى هذا النطاق، ويتحقق وصف المواطنة لذويها. وأن ذلك يشكل البنية الأساسية التى يقوم عليها أى كيان سياسى أو



لا أخال أن وحدة جرت إلا ما كان من وحدة اليمن الشمالى مع جنوب اليمن المكون أساسًا من عدن وحضرموت عند شاطئ بحر العرب والبحر الأحمر. وكانت هذه حالة فريدة جرت فى «غفلة من الزمان الاستعمارى»

مؤسسة تنظيمية تظهر فى نطاقها. لذلك من الطبيعى أنه كلما اختلت البنية الأساسية أو اضطربت عناصر تكوينها، كلما اختل واضطرب كل بناء يقوم عليها.

إن الجماعة السياسية تضم جماعات عديدة، وإن ما يميزها عنهم أنها الجماعة التى صارت مرشحة لأن تقوم بوظيفة تاريخية تتعلق بحفظ وحماية «المشترك العام» الذى يجمع عناصر هذه الجماعة: تصونها من مخاطر الخارج وتضمن لعناصرها أفراداً وجماعات إمكان العيش المشترك وتحقيق المستوى المعقول للعيش المشترك للجماعة بعناصرها المتضمنة فيها من النواحى المادية والثقافية، وبما لا يضمنه ولا يكفله تاريخياً إلا هذا التجمع. ومن ثم تعتبر الأوصاف القائمة بين عناصر هذه الجماعة السياسية الأساسية أوصافاً تابعة، تقوم بها جماعات انتماء فرعية محكومة بهذا الانتماء العام والذى يقوم به وصف الجماعة السياسية، ويعتبر به حاكماً لغيره بقدر ما يكون حامياً وحافظاً لهذا الغير.

والجماعة السياسية بهذا الاعتبار، لابد أن تكون هى الجماعة الحاكمة؛ لأنها هى ما يبلور فى مرحلة تاريخية معينة أصول الصالح المشترك بعيد المدى لمن يندرج فيها من أفراد وجماعات ووحدات اجتماعية، فهى حاكمة بمعنى أنها ترعى الصالح التاريخى المشترك لمكوناتها، وهى حاكمة بمعنى أنها توجد الصياغات السياسية والاجتماعية المناسبة لتحقيق توازن الوجود وتوازن المصالح المادية وتوازن الهويات الثقافية لما اندرج فيها من جماعات ثقافية وعقيدية ولغوية وإقليمية وعرقية، بحيث يكون اندراج هذه الجماعات الفرعية فى الجماعة السياسية الأساسية محققاً لها للقدر المناسب من الوجود الذاتى والثقافى والمادى، وكافلاً لهذا الوجود بما لا يكفله ولا يضمنه خيار تاريخى آخر، وبما يكفل لها جميعاً من الأمن تجاه مخاطر الخارج، ما لا يكفله خيار تاريخى آخر كذلك.

وبموجب كون الجماعة السياسية هى الجماعة الحاكمة وفقاً للوظائف السابقة، تقوم الدولة على وفق هذه الجماعة السياسية الأساسية، بما تتيحه مؤسسة الدولة من مكنات وصلاحيات لممارسة واجبات الحماية من مخاطر الخارج، وحفظ قوى التماسك الداخلى. وتصير الدولة وجهازها هى الشخص للجماعة السياسية، والمعبر عنها، والمحقق لإرادتها عندما تتهيأ الإرادة، ولفاعليتها وولاية نفاذها عندما تتقرر الفاعلية.

والدولة - بوصفها المعبر والشخص الفاعل للإرادة الجماعية - يتعين أن تبنى على وفق ما اتصفت به الجماعة السياسية من وصف مميز لها، وجامع لوحداتها، ومانع من التباس غيرها بها، كوصف الإسلام إن كان هو ما جمعها، أو وصف العروبة إن كانت صارت كذلك، أو وصف المصرية أو السورية أو غيرها، ما بقيت كذلك، أو حتى الوصف القبلى أوالعشائرى حيث يكون هو ما تميزت به جماعة سياسية ما فى زمان أو مكان ما.

وإذا قامت الدولة لا بموجب الوصف العام الذى يجمع الجماعة السياسية ويميزها، ولكن بموجب وصف يتعلق بأى من الجماعات الفرعية المندرجة فى الجماعة السياسية، واقتصرت على من يضمهم انتماء فرعى فحسب، ولو فى مستوياتها العليا الخاصة باتخاذ القرارات ورسم السياسات، فإن ذلك من شأنه أن يكون مهدداً للصيغة العامة التى تقوم عليها الجماعة السياسية، ولقوة التماسك الواجب وجودها لوجود الجماعة العامة؛ ذلك لأن أى جماعة أو مؤسسة أو كيان تنظيمى، إنما تقوم له ذاتية خاصة به، وتستوعب هذه الذاتية مع الوقت فاعلية الكيان التنظيمى، وأن مما تنبنى عليه هذه الذاتية ما يضم القائمين على هذا الكيان التنظيمى من أوصاف مشتركة تمزج بينهم وتفرقهم عن غيرهم.

ونحن نعرف من تجارب الدول أن طوائف أو قبائل أو أهل إقليم اجتمع منهم ما صاغ المراكز الرئيسية فى تكوين لدول بعينها، فاصطبغت الدولة بهذا الوصف الإقليمى أو الطائفى أو القبلى، وصارت الدولة مفروضة على الجماعة كلها بموجب هذا الوصف الخاص، ولاحظنا ذلك - فى باكستان مثلاً - عندما قامت الدولة الموحدة من باكستان الشرقية (البنجال) والغربية، وسيطر عليها أهل الغرب وحدهم، وانتهى الأمر إلى انفصال بنجلاديش عنها، ونلاحظه أيضاً فى مشاكل شمال السودان مع جنوبه، ولاحظناه مثلاً فى سيطرة أهل تكريت بخاصة على العراق، ونلاحظه فيما ترتب على سيطرة السنة العرب على العراق جميعه مما تجرى فصوله إلى الآن.

لذلك، فإنه يتعين فى صياغة مؤسسات الدولة أن تكون من حيث التكوين العضوى لها، ومن حيث الشاغلين لمناصبها الرئيسية وذوى الإرادة والنفوذ فيها، القابضين على مفاتيح حركتها، يتعين أن يكونوا ممن يضمهم الوصف المميز للجماعة السياسية التى قامت الدولة على أساسها، وألا يقوم مانع من شغل مناصبها يتعلق بمن توافر فيهم الوصف العام المذكور، ولا أن يقوم بالقانون أو بالعرف العملى المطبق ما يمنع ذوى انتماءات فرعية ما من تولى مناصب الدولة وشغلها، مادامت انتماءاتهم الفرعية مندرجة فى شمول الانتماء العام الذى تبلورت به الجماعة السياسية وانبنت به الدولة.

ومن هذا، يظهر أن الدولة لا تتكامل وظائفها ولا تتهيأ للقيام بها على النحو التاريخى المأمول، إلا إذا كانت تعكس فى تكوينها العضوى والذاتى ما تبلورت الجماعة السياسية على أساسه؛ ولذلك فإن ما حدث من اضطراب فى تشكل الجماعات السياسية بسبب الحدود الاصطناعية التى فرضتها أوضاع الاستعمار على بلاد آسيا وأفريقيا، وبناء الدول لا على وفق تشكل متكامل للجماعات السياسية، هذا الذى حدث جعل الدول المذكورة - فى أغلب صورها - لا تعكس فى تكوينها العضوى إلا أقساماً محدودة من القاعدة الشعبية التى تحكمها، والتى تتكون من أجزاء وأشلاء من جماعات شتى مبتورة وموزعة عبر حدود دولية مفروضة. ومن هنا لا نلحظ نظام حكم مستمراً منضبطاً فى تداوله، وفى تغيراته، وفى اتصاله بجمهوره، بصرف النظر عن مدى ما ينبنى عليه من ديمقراطية أو استبداد. أى أنه حتى الحكم المستبد قديماً كانت له منظومة يقوم عليها وأعراف تحكم تداولاته. أما الظاهرة المشار إليها هنا فهى تتخطى ذلك وتتجاوزه إلى أنواع من الاضطراب ناتجة عن هذا الصراع القائم بين الجماعة والدولة، لأن الدولة لا تعكس تكوينات الجماعة.

والحاصل - فى ظنى - أن اتصال الدولة بالجماعة السياسية من حيث إن الجماعة تكون متبلورة ومتكاملة، ومن حيث إن الدولة يتعين أن يكون تركيبها العضوى متجانساً ومتناسباً مع الوصف الذى تصنفت به الجماعة السياسية وتبلورت، هذا الاتصال هو شرط مسبق أو هو ما يمثل البنية الأساسية التى يقوم عليها نظام سياسى فعال، وجماعة قادرة على القيام بوظائفها التاريخية الفعالة، ودولة قادرة على تشخيص هذه الجماعة والتعبير عنها.

ونحن عندما ننظر فى أنظمة



على مدى القرن العشرين تحقق الاستقلال السياسى للغالب الأعم من بلاد العالم وأقطاره التى تم اقتسامها بين الدول الغربية الكبرى، ومع ذلك، فلا نكاد نلحظ واقعة توحد جرت ونجحت بين بعض هذه الأقطار وبعضها الآخر

الحكم فى التجارب المختلفة، يتعين علينا أن ننظر أولاً فى أوضاع البنية الأساسية للجماعة السياسية، والتى تقوم عليها هياكل البناء الحاكم. وإذا كنا فى هذا العصر الحديث المعيش نصدر عن مسلّمة فكرية تتعلق بأفضلية النظم الديمقراطية على نظم الاستبداد السياسى، وأن هذه الأفضلية إنما تقوم على مستوى الفاعلية السياسية فى حفظ أمن الجماعة السياسية وكفالة تماسك قواها، كما تقوم على مستوى الرشد فى النظر إلى الواقع وفهم أوضاعه وتقرير السياسات الخارجية والداخلية المناسبة، وكما تقوم على المستوى الأخلاقى فى ضمان الحد الأدنى المرجو من تحقق المساواة والنأى عن الظلم والجور، أو بالأقل ضمان السعى لهذا الأمر.

إذ كنا على هذه الدرجة من الإدراك، فإننا عندما ننظر فى تجاربنا فى هذا الشأن ومدى ما حاق بها من تعثر أو تعطيل أو فشل، فإننا يتعين أن نوجه بعض جهودنا البحثية إلى النظر فى أصل تبلور الجماعة السياسية فى الإطار المضروب عليها مما سبق شرحه أو الإشارة إليه، كما يتعين النظر إلى التركيب العضوى للدولة، ومدى ما يعبر هذا التركيب عن كمال العلاقة بين هذه الجماعة السياسية المتبلورة وبين الدولة المشخصة لها والمعبرة عنها إرادة وفعلاً.

فمثلاً، لقد سبقت الإشارة إلى صلة الجماعة السياسية بالمواطنة وبالدولة، والديمقراطية تتعلق بالجانب التنظيمى الذى تبنى به الدولة بوصفها مؤسسة، وتتشكل به هيئاتها. وأسس الديمقراطية هى الأصول العامة لنوع من أنواع إدارة شئون الجماعات، ويمكن أن تتشكل وفقاً لها تنظيمات عديدة تقوم بمهام مختلفة ومتنوعة، سواء فى إدارة شئون مصالح إقليمية كالإدارات المحلية، أو وحدات الانتماء الفرعية كالجمعيات والنقابات، أو ذوات المصالح المالية كالشركات أو غير ذلك. وغنى عن البيان أن الدولة، وهى المؤسسة القائمة على أساس الجماعة السياسية وهى ما يهيمن على إدارة المجتمع برمته، هى أوضح وأهم مثال فى هذا الشأن.

والديمقراطية - من ناحية البناء التنظيمى للمؤسسات - تقوم على مبدأ النيابة أو التمثيل النيابى الذى يصدر من الجماعات فى عمومها إلى من يتولون شئونهم، وعلى مبدأ توزيع السلطة على العديد من الهيئات التى تتداول أمورها كى لا تستبد بالأمر والنهى والفعل هيئة وحيدة، وكى يقوم نوع توازن بين هذه الهيئات. كما تقوم على مبدأ القرار الجماعى الذى يصدر عن أية هيئة من جماعة بها، وليس من فرد، ويصدر القرار بالأغلبية، بما يعنى أن رأى الكثرة يرجح رأى القلة.

وإن مبدأ المساواة هو ما به يسلس اتخاذ القرار الجماعى؛ لأنه يقوم على العدد، وذوو العدد الأكبر فى أى تشكيل يترجح رأيهم على رأى ذوى العدد الأقل. والعدد يقتضى التجريد؛ أى تجريد الفرد من كل ما سوى الوصف الذى يجلسه مع غيره من المعدودين ويجعل له صوتاً بين أصواتهم. ولا يتأتى ذلك إلا بالمساواة. فوصف العضوية فى مجلس ما يلحق بالعضو فيجعله مساوياً تماماً لغيره من الأعضاء عند اتخاذ القرار، سواء كان ذلك مجلس إدارة شركة أو جمعية أو نقابة أو جماعة.

وعلى هذا الوضع التنظيمى بالضبط، يكون مبدأ المساواة هو نقطة الوصل التى لا فكاك منها بين الديمقراطية وبين مبدأ المواطنة، بحسبان المواطنة هى الوصف المتخذ أساساً لتصنيف الجماعة السياسية التى تشخصها الدولة، وهو الوصف الحاسم فى اكتشاف الكثرة والقلة التى تتخلق بها الإرادة وتنبنى على أساسها الأفعال الجماعية.

ومن هنا، تظهر جلية الصلة العضوية بين قيام الجماعة السياسية المتبلورة، وصلة ذلك بقيام الدولة المشخصة لها والمعبرة عنها، وعلاقة ذلك بالمبدأ الأساس الذى يقوم به البناء الديمقراطى، وكل ذلك له آثاره المتبادلة فى الواقع الفعلى لهذه المفاهيم.

وما بقيت الدولة الحديثة - فى غالب البلاد حديثة الاستقلال - على حالها المتعارض مع ما يتعين أن تشخصه من جماعات سياسية متبلورة ومتكاملة، وما بقيت الجماعات السياسية مجزأة ومنقسمة وموزعة أشلاء، وما بقى الصراع بين التركيب العضوى للدولة وأجهزتها وبين التشكل والتبلور للجماعة السياسية المحكومة بهذه الدولة، ما بقى ذلك كذلك فلا أظن أن الدول تكون قادرة على القيام بواجبيها الأساسيين؛ وهما حفظ الأمن القومى للجماعة، وحراسة قوى التماسك الداخلى لها. ولا أظنها تكون دولاً قادرة على تحقيق ما يتعين أن نصبو إليه من توحيد، أو من استقلال، أو من تحقيق لنظام ديمقراطى. ■

كتاب الزاوية

عباس محمود العقاد

عبقرية محمد

عباس محمود العقاد أحد أهم رموز النهضة الأدبية والفكرية فى مصر والعالم العربى فى النصف الأول من القرن العشرين.

ولد العقاد فى أسوان عام ١٩٨٩ ودخل المدرسة الابتدائية لكنه لم يتجاوز هذه المرحلة لعجز أسرته عن إرساله للقاهرة لكى يواصل تعليمه، لكن هذا الانقطاع لم يقف حاجزًا بينه وبين المعرفة الحديثة، فقد علم نفسه وثابر وأتقن الإنجليزية بشكل مكنه من الاطلاع على المعرفة فى مصادرها الأصلية ليكون أحد أبرز الكتاب الموسوعيين العرب.

وقد خاض العقاد غمار السياسة والصحافة إلا أن أهم إنجازاته تتمثل فى رؤيته النقدية للكتابة الشعرية وظهر ذلك من خلال جماعة الديوان مع إبراهيم المازنى وعبد الرحمن شكرى، كما أن قدرته الشعرية لا تقل عن النقدية وله دواوين عديدة رائعة القيمة.

أشهر أعماله هى سلسلة العبقريات الإسلامية مثل عبقرية محمد وعبقرية الصديق وعبقرية عمر وعبقرية على.

وللعقاد ٨٣ كتابًا فى شتى صنوف المعرفة منها «رجعة إلى أبى العلاء»، و«الفصول»، و«ساعات بين الكتب»، و«ابن الرومى» و«عن الله»، وغيرها. وقد توفى عام ١٩٦٤.

من قيود العسكر إلى قيود بروكسل

صعود تركيا الجديدة

تشاغلار كيدير

■ شهد صيف ٢٠٠٤ إحساسًا جديدًا بالتفاؤل في تركيا. فقد توالى ما حققته الحكومة المستقرة من نجاح في الإصلاحات الديمقراطية التشريعية والدبلوماسية الدولية. كما أعلن الاتحاد الأوروبي أن تركيا أوفت بشروط الإصلاح السياسي، ولم تعد بحاجة إلى المراقبة. وقد أعطت المفوضية الأوروبية الشهر الماضي توصية ببدء المفاوضات مع تركيا من أجل عضوية الاتحاد الأوروبي ومن المتوقع أن يحدد الزعماء الأوروبيون خلال أسابيع موعدًا رسميًا لبدء هذه المفاوضات، وربما يبدأ رأس المال الأجنبي في التدفق. ونجد كذلك أن معدل التضخم انخفض، بينما يتحسن الاقتصاد في الوقت الراهن بشكل واضح مسجلاً معدل نمو يتعدى ١٠ بالمائة في الربع الثاني. إلا أنه منذ ثلاث سنوات تقريبًا أدى عدم الاستقرار السياسي في تركيا، الذي بدأ بشجار علني بين رئيس الدولة ورئيس الوزراء، إلى حدوث أزمة مالية، حيث هبطت قيمة العملة بمقدار ٥٠ بالمائة، وكان هناك كساد شديد وارتفاع كبير في معدل البطالة. وبعد عام، أي في سنة ٢٠٠٢، انهارت الحكومية الائتلافية (وهي الحكومة التركية السابعة خلال عشر سنوات) مما أدى إلى حدوث حالة من الفوضى. وقد كُشف النقاب عن النتائج السياسية والاقتصادية لتلك الكوارث المفاجئة في سياق حرب العراق والاحتلال الذي تتزعمه الولايات المتحدة، وضغوط الاتحاد الأوروبي من أجل إصلاح نظام الدولة الذي يتسم بقدر كبير من الاستبداد، والنجاح الساحق لحزب التنمية والعدالة.

كانت أزمة ٢٠٠١ نفسها بمثابة انهيار محاولة دامت عقدين من الزمان من قبل النخبة التقليدية في تركيا لتعزيز سيطرتها الأيديولوجية المتداعية عن طريق اللجوء إلى القمع الذي تمارسه الدولة. وكانت هيمنة الدولة قد نشأت من خلال بناء الدولة القومية من رماد الهزيمة العثمانية، وجرى الحفاظ عليها عن طريق الأجهزة العادية الخاصة بالمدارس والثكنات العسكرية. كما جرى تأبيدها من خلال القيود المفروضة على التعامل في النقد الأجنبي والائتمان خلال ثلاثة عقود من النزعة التنموية أعقبت الحرب العالمية الثانية. وهيمنت ترسانة الدولة من السياسات والموارد على البرجوازية الضعيفة وجعلت من أكبر رجال الأعمال تحالفًا على استعداد لتقديم الخدمات المطلوبة منه في إطار إستراتيجية للتنمية القومية تقوم على التنسيق المركزي وتتبع نموذج إحلال الواردات.

وكما حدث في أمريكا اللاتينية، توقفت التنمية لعدم قدرة الاقتصاد المغلق انغلاقًا شديدًا على مواصلة الإنجاز. ونشأت الأزمة بسبب حدوث مشاكل في توفير النقد الأجنبي. فقد ضمن التحضر والتصنيع إنتاج معظم السلع الاستهلاكية، بما في ذلك السلع المعمرة، محليًا. وأنتج الاقتصاد التركي كميات كافية من السلع الأساسية مثل الصلب والبتروكيماويات. إلا أن أيًا من هذين القطاعين لم يمكنه المنافسة في السوق العالمية. كما أنه أثقل كاهل مشروعات الدولة بالعمالة الزائدة، بينما تُرجمت الأوضاع الاحتكارية في القطاع الخاص إلى أرباح كبيرة وأجور مرتفعة. وبرغم وجود معدل نمو محترم، لم يستطع الاقتصاد توليد مكاسب بالنقد الأجنبي الذي كان لازمًا لشراء الواردات الأساسية كالنفط والتكنولوجيا الجديدة.

كان رد فعل المؤسسة السياسية التركية في السبعينيات هو تأبيد اللغة التنموية القومية، واقتراض الدولارات من الخارج، والاستمرار في حماية الصناعة، ودعم الزراعة، وتقديم الدعم للمستهلكين. وقد حاولت التحكم في السوق عن طريق الأوامر الاستبدادية، وتحديد أسعار صرف النقد الأجنبي عند مستويات مصطنعة، بينما وقفت لا حول لها ولا قوة أمام تزايد العجز وانتعاش السوق السوداء. وعززت الأزمة الاقتصادية والاضطراب الاجتماعي الذي أثارته الصراع السياسي المستعر بالفعل بين اليمين المتشدد واليسار الثوري. وهكذا كان انقلاب ١٩٨٠ حلاً للمأزق الاقتصادي وكذلك للأزمة السياسية. وقد أتى بنظام حاكم استثنائي نجح في ظله تحالف مصالح الدولة والاستبداد في تعطيل كل محاولاته لشق طريقه في ضباب الأيديولوجيا القومية.

كان الميراث المؤسسي لثلاث سنوات من الوصاية العسكرية الصريحة (١٩٨٠-١٩٨٣) هو دستور ١٩٨٢. فقد جرى في ظل هذا القانون الأساسي توسيع نفوذ مجلس الأمن القومي بحيث بات يشكل ما يعد حكومة موازية، بينما أصبحت محاكم أمن الدولة جهازًا قضائيًا موازيًا يتمتع بسلطة «نظر الجرائم المعادية للدولة والفصل فيها». وكان مجلس الأمن القومي مزودًا بسكرتارية دائمة وهيئة عاملين، وكان المقصود به تجميع المعلومات الاستخبارية ووضع سياسة ينفذها الجهاز البيروقراطي ذو الصلة، وذلك في الغالب بالتحايل على الوزراء المعينين بالطريقة السياسية.[1] وشيئًا فشيئًا وسع المجلس من سلطاته كي تغطي كل قضية يمكن الحكم بأنها مهمة في الحرب الشاملة ضد النزعة الانفصالية والحركة الإسلامية. وبدءًا من انتصار تورجوت أوزال في انتخابات ١٩٨٣، شغلت الحكومات المدنية التي تولت مقاليد السلطة بعد ذلك نفسها بالسياسة الاقتصادية وإدارة الدين في المقام الأول. وأثناء ذلك كانت محاكم أمن الدولة بمثابة أدوات صريحة لـ«الدولة المتغلغلة»؛ حيث اتسعت سلطاتها لتشمل كل ما هو سياسي، بدءا من حقوق الإنسان حتى أي شيء تفسره الدولة على أنه دعاية انفصالية، حيث كان من الممكن أن يدخل ضمن ذلك مجرد أداء أغنية باللغة الكردية.

إعادة البناء الاقتصادي

في ظل نظام مجلس الأمن القومي العسكري، أمكن البدء في تحسين جذري للاقتصاد يلقى أقل قدر ممكن من المقاومة. كما جرى تفكيك القطاع الصناعي القائم على إحلال الواردات على خلفية من توزيع الدخل الذي يزداد سوءًا. ومع الخصخصة وإلغاء القيود والعمالة المرنة، تناقصت بسرعة المزايا التي كان يتمتع بها العمال في الصناعات المملوكة للدولة في قطاع التصنيع المحمي. وأصبحت المقاولات من الباطن وانتشار المشروعات الصغيرة والعمل بالقطعة هي الممارسات القياسية، خاصة مع اتساع قطاع الخدمات وزيادة ظروف العمل غير الرسمية والمتنوعة.[2]

في الوقت نفسه أطلق

كان انقلاب ١٩٨٠ حلاً للمأزق الاقتصادي وكذلك للأزمة السياسية. وقد أتى بنظام حاكم نجح في ظله تحالف مصالح الدولة والاستبداد في تعطيل كل محاولاته لشق طريقه في ضباب الأيديولوجيا القومية

بترتيب مع
New left review
ترجمة: أحمد محمود



تركيا

من قيود العسكر إلى قيود بروكسل

تحرير السوق الطاقات الاستثمارية على كل مستوى، حيث سُمح فجأة للتجار بممارسة أمور كانوا يعاقبون عليها بالسجن قبل بضع سنوات. وكانت البنى الصناعية للحقبة التنموية تتسم باحتكار القلة الذى يمارسه عدد قليل من الشركات القابضة المتشعبة التى استطاعت من خلالها برجوازية إحلال الواردات فى استنبول، بما لها من قدرة على الوصول إلى واضعى السياسات فى أنقرة، من إحكام قبضتها الحديدية على الاقتصاد. ومع التحرر الاقتصادى نشأ نوع جديد من المستثمرين كان عليهم المنافسة فى الأسواق المعولمة، وأصبحت تصرفاتهم تقوم على إشارات المستهلكين وليس القرارات البيروقراطية. ومن ثم كان اعتمادهم على السياسة أقل مباشرةً. وبما أن الصادرات التركية كانت تنجذب نحو الصناعات كثيفة العمالة، فقد بدأت بعض مدن الأناضول الصغيرة، التى لها تراث من الحرف وبها قوى عاملة لا تجمعها أية نقابات، فى الظهور باعتبارها مراكز صناعية إقليمية. وكان معظم إنتاج تلك المدن، التى تسمى النمور الأناضولية، يقوم على شبكات يحركها المشترى؛ حيث كان رجال الأعمال يتعاقدون مباشرة مع سلاسل البيع بالتجزئة ومشترى الكميات فى أوروبا.

وهكذا شهدت الثمانينيات ظهور قطاعات جديدة، وأسواق جديدة، وأشكال جديدة من تنظيم العمل، وجغرافيات جديدة. وزادت الصادرات من ٣ مليارات دولار فى ١٩٨٠ إلى ١٣ ملياراً فى ١٩٩٠، وإلى ٥٠ مليار دولار فى ٢٠٠٣؛ وكان الفضل فى الاتساع يعود بالكامل إلى شركات التصنيع، وخاصة شركات النسيج. ومن وجهة نظر أنقرة، كان رجال الأعمال الجدد يعملون خارج شبكات النفوذ والامتيازات التقليدية، ولم يشاركوا فى الأسلوب الغربى والعلمانية المتشددة الخاص بنظرائهم الأكثر رسوخاً فى استنبول؛ وكان من الأرجح أن يؤيدوا الحزب الإسلامى، وأن يرتبطوا باتحاد رجال الأعمال الإسلاميين MUSIAD الذى أصبح ثقلاً اجتماعياً وسياسياً موازناً لاتحاد صناعيى استنبول TUSIAD.

الحركة الإسـلامية

أدى الانفتاح على السوق الدولية وإعادة هيكلة الاقتصاد إلى نضوب الموارد التى كانت تخدم شراء الرضا الشعبى. وبعد أن فقدت قوى الدولة المشروعية التى تمتعت بها خلال الحقبة التنموية، اعتمدت تلك القوى اعتماداً كبيراً على أشكال القمع المختلفة للحفاظ على توازن الدولة فى مواجهة القوى الناشئة التى تسعى لتحقيق استقلالها الاقتصادى والثقافى والسياسى. وشكّل ظهور الأحزاب الإسلامية مأزقاً للطبقة الحاكمة التقليدية. وكانت العلمانية، حسب تعريفها بأنها السيطرة الصارمة للدولة على الدين، الهم الأول للنخبة التركية منذ بداية الجمهورية. وكان لابد من تبنى أنماط السلوك الغربية، بتصورها للتحضر، كى تحل محل النزعات الطائفية والإقليمية المحلية؛ وكان الإسلام تعبيراً شديد الوضوح عن المحلى. بل إن التفسير الأصولى للشريعة الإسلامية يتعارض مع كل من الولاء الذى تطالب به الدولة مواطنيها، ومع النظام القانونى الفريد الذى كان المذهب الكمالى (نسبة إلى كمال أتاتورك) يريد فرضه. إلا أنه فيما يعد تناقضاً مع خطاب الجمهوريين الحذر، فقد كانوا براجماتيين بالفعل فى تعاملاتهم حتى مع الصور الأكثر تطرفاً من الانتماء الدينى؛ ذلك أن علمانيتهم تخفى نفاقاً ضمنياً تجاه الإسلام والإسلامويين. واعتباراً من الأربعينيات عقدت الأحزاب السياسية صفقات مع زعماء الطوائف، حيث منحتهم امتيازات بشأن المدارس الدينية مقابل أصوات أتباعهم. وبعد انقلاب ١٩٨٠ وافقت الطغمة العسكرية الحاكمة بلا قيد ولا شرط على السياسة الأمريكية التى تشجع النزعة الإسلامية لتكون منطقة عازلة فى وجه الحركة الاشتراكية.[٢] وبعد قضاء الإجراءات التقشفية لصندوق النقد الدولى على نظام التعليم تزايد الالتحاق بالمدارس الدينية، التى تدعمها الحكومة، بشكل أسرع من الالتحاق بالمدارس الثانوية العامة خلال الثمانينيات، وأصبح الدين مادة إجبارية فى مناهج التعليم. وخلال تلك السنوات تنافس زعماء الأحزاب على إقامة علاقات طيبة مع الفصائل الإسلامية المعتدلة والحداثية، حيث كسب أوزال تأييدها فى عام ١٩٨٣.

زاد نصيب الإسلامويين من الأصوات باطراد منذ منتصف الثمانينيات. ويقول مراقبو الإسلام السياسى إن البرنامج الأصولى، الذى يعرَف بأنه مشروع لاستبدال الدولة الإسلامية والشريعة الإسلامية بالدولة الحديثة والقانون الغربى، لا يحظى إلا بتأييد ٧ بالمائة فقط من عدد السكان. والأعداد الأكبر بكثير التى صوتت لمصلحة الأحزاب الإسلامية لم تفعل ذلك رغبةً منها فى إحداث تغيير شامل مناوئ للعلمانية، بل لأنها تؤيد الانفتاح وتوسيع القاعدة التى يعترف بها النظام. وكان الإسلام بمثابة صيحة لحشد القوى بالنسبة لمن اضطروا للبقاء خارج أسوار المدينة الخيالية حين بدأ التحضر واسع النطاق، وبالنسبة لصغار المستثمرين ضد برجوازية استنبول التى تدعمها الدولة، وبالنسبة للساسة الذين لم يتمتعوا بخاتم موافقة الجيش.[١]

كانت النماذج الأولى من الأحزاب الإسلامية تتراوح بين تحدى النظام والتكيف معه، وقد فشلت فى ربط ذلك الدافع الشعبوى ببرنامج يمكن أن يكون مقبولاً من النخبة التركية. وكان حزب الفضيلة قد حل محل حزب الرفاه الذى حُل تحت ضغط مجلس الأمن القومى فى عام ١٩٩٨ فى أعقاب ائتلافه الذى لم يدم طويلاً مع حزب يمين الوسط، الطريق القويم، برئاسة تانسو تشيلر، ثم أُغلق حزب الفضيلة فى عام ٢٠٠١. وشهد الانشقاق الذى حدث فى ٢٠٠١ فى الصفوف الإسلاموية بعد حظر حزب الفضيلة إنشاء حزب العدالة والتنمية بقيادة عبد الله جول وطيب أردوغان، بينما أنشأ الحرس القديم المحيط بأربكان حزب السعادة. ووحد حزب العدالة والتنمية الخطاب الانتخابى الذى يستهدف من جرى إقصاؤهم برسالة إلى النخبة مفادها أن تغيير النظام ليس على أجندتها. وفى انتخابات نوفمبر ٢٠٠٢ حصل حزبان إسلاميان على ٣٧ بالمائة من عدد الأصوات، بينما حصل حزب العدالة والتنمية على ٣٤ بالمائة. وجعل حد العشرة بالمائة الذى فرضه دستور مجلس الأمن القومى الأحزاب الأخرى، ما عدا حزب واحد، غير مؤهلة للفوز، مما جعل حزب العدالة والتنمية يفوز بستين بالمائة من عدد المقاعد.

يعتمد القبول الشعبى لحزب العدالة والتنمية على كونه بمثابة صوت لمن كانوا حتى ذلك الوقت مُقصَين، بينما تنبع وعوده المادية فى أغلبها من سجل الحكم المحلى لتشكيلاته السياسية السابقة التى نجحت فى بناء سمعة للأمانة النسبية فى إدارات جرت العادة أن تكون غارقة فى الفساد. فقد بدأت تلك البلديات سياسات للمساعدة الاجتماعية فى بيئة كانت



خالية بالفعل من أية سياسة حكومية للرعاية الاجتماعية تستهدف الفقراء، فى الوقت الذى شحت فيه الأعمال الخيرة المنظمة. كما أنشأت مطاعم لتقديم الطعام للفقراء وكذلك مراكز صحية، وكانت تقدم مساعدات عينية للمعدمين، وتنظم حملات المساعدات الاجتماعية خلال شهر رمضان، حيث تضغط على رجال الأعمال المحليين كى يتبرعوا بالسلع والمبانى والمال. وشمل ذلك الالتزام أعداداً كبيرة من الناشطين فى الحزب (وخاصة الشابات) الذين يقيمون الشبكات ويرتبطون بالناس. وكان طيب إردوغان نفسه عمدة استنبول يتمتع بشعبية كبيرة منذ عام ١٩٩٤ حتى سجنه فى عام ١٩٩٨. وبذلك كانت الأحزاب الإسلامية القناة الرئيسية للتعبير عن الاستياء الاقتصادى. ومع أن الالتزام الأصلى لزعماء حزب العدالة والتنمية هو بالمعتقد السليم الذى يتسم بالنزعة الليبرالية الجديدة، ومع أنهم يبرزون كذلك مطامح البرجوازية الأناضولية الناشئة وسخطها على احتكار القلة الراسخ لرجال الأعمال، فقد حصلوا على الجزء الأكبر من الأصوات من الفقراء. ويعود هذا التأييد ممن جرى إقصاؤهم إلى انتقاد النظام السياسى وفساده أكثر منه إلى الوعود الصريحة بإعادة الهيكلة الاقتصادية أو السياسة الاجتماعية القائمة على الحقوق.

المسـائل الكرديـة

إضافة إلى الحركة الإسلامية، كانت المسألة التى تشغل الأجندة التركية باستمرار منذ ١٩٨٠ هى المشكلة الكردية. فقد كان أى تصريح بالنزعة الكردية أو أية نزعة انفصالية أخرى ممنوعةً منعاً باتاً بالطبع عند تأسيس الجمهورية، وكان استخدام اللغة الكردية فى الحديث العام أو التعليم مجرّماً بشدة منذ ذلك الحين. وكان لابد أن يغذى القمع الثقافى الوحشى المقترن بالتخلف الاقتصادى المقاومة. واستمر العمل بقانون الطوارئ فى الأقاليم الكردية بعد ١٩٨٣، حيث واكبت ذلك اعتقالات بالجملة، إلى جانب التعذيب والترحيل الإجبارى للقرويين. وفى عام ١٩٨٤ عاد عبد الله أوجلان من منفاه فى سوريا ليقود حزب العمال الكردستانى فى حرب عصابات ضد قوى الأمن. وفى المقابل ازداد قمع الدولة؛ حيث حصدت الحرب أرواح ٣٠ ألف شخص قبل أن تضع أوزارها فى ١٩٩٩.

خلال التسعينيات استُخدمت الحرب ضد القوى الكردية لتبرير التحول التدريجى نحو الدولة الأمنية، حيث كانت

شكَّل ظهور الأحزاب الإسلامية مأزقًا للطبقة الحاكمة التقليدية. وكانت العلمانية، حسب تعريفها بأنها السيطرة الصارمة للدولة على الدين، الهم الأول للنخبة التركية منذ بداية الجمهورية. وكان لابد من تبنى أنماط السلوك الغربية، بتصورها للتحضر، كى تحل محل النزعات الطائفية والإقليمية المحلية.

الغلبة للنمط الذى اختاره الجيش للرد على التمرد؛ وهو الانتصار العسكرى أولاً، ثم الحريات الثقافية بعد ذلك. وسمحت الحرب بعودة الدولة الدستورية Rechtsstaat كعباءة ازدهرت تحتها حقبة جديدة من الحكم القمعى والاستبدادى. وانكمشت مرة أخرى الثغرات المؤقتة التى ظهرت فى عهد أوزال، مثل التوسعات التى شهدها المجال الاجتماعى وبلغت حد الاعتراف بأساليب حياة تحرير السوق التى كان محرمة حتى ذلك الوقت. وقد تميز ذلك العقد بالنزعة الاستبدادية التى يسيطر عليها الجيش مقرونة بعدم المحاسبة.

اتخذ الجيش الحرب مبرراً لوصايته، إلا أن الحرب أضرت موقفه كذلك. فقد اشتهرت «القوات الخاصة» بالوحشية فى تعاملها مع المدنيين. وغادر الكثير من السكان منطقة الحرب. وتحدث المجندون عن تجربتهم المجردة من الصفات الإنسانية وهم تحت السلاح.

ما كانت إستراتيجية الجيش الخاصة بهزيمة قوات حرب العصابات قبل التمكن من إجراء أية محادثات بشأن الحقوق الثقافية والسياسية لتحقق نجاحها باهظ الثمن لو لم يتمتع البرنامج الانفصالى بقدر أكبر من الدعم. وكان الاستيعاب هو المعيار فى حالة الأكراد الذين نزحوا من الجنوب الشرقى والشرق إلى غرب تركيا. وكان الأكراد عناصر بارزة فى السياسة منذ زمن بعيد، بل كان لهم تمثيل فى البرلمان يفوق ما يتناسب مع عددهم. إلا أن ثمن الاستيعاب كان هو كبت الهوية العرقية. وهكذا فبينما كانت سياسة الهوية والاعتراف السياسى تلقى قبولاً أكبر بكثير بين الأكراد المقيمين خارج المنطقة، لم تكن النزعة الانفصالية تحظى بذلك القدر من القبول.

وليست هناك أرقام موثوق بها بشأن التركيبة العرقية للسكان فى تركيا، حيث يتحاشى التعداد مسائل الأصول العرقية أو اللغة الأصلية. وتشير أفضل التقديرات إلى أن نسبة السكان الأكراد تتراوح بين ١٠ و٢٠ بالمائة من إجمالى عدد السكان، إلا أن التزاوج يجعل الحصر مستحيلاً. ومن المحتمل أن ثلث الأكراد كانوا يعيشون فى المناطق الغربية من البلاد فى عام ١٩٩١. وفى عام ٢٠٠٠، وبعد عشر سنوات من الحرب، زادت النسبة إلى ٥٠ بالمائة. وتعد استنبول إلى حد بعيد أكبر المدن الكردية، حيث يوجد بها أكثر من مليون نسمة من الأكراد. وقد يكون من الصعب العثور على الكثير من مؤيدى الحركة الانفصالية الذين يؤيدون هدف كردستان المحصورة فى مكان معين من الأرض بين هؤلاء المقيمين فى غرب تركيا. والذين هاجروا مؤخراً إلى استنبول والمدن الكبرى فى غرب الأناضول كانوا فلاحين فقراء طُردوا من قراهم، وليست لديهم رغبة كبيرة فى العودة.

كان هناك بُعد إضافى صعَّب على النخبة التركية، الحضرية منها أو الريفية، وهو مناصرة الحركة الوطنية. فبينما كان العصيان المسلح الكردى السابق فى العشرينيات والثلاثينيات قد نشأ بين طبقة أصحاب الأملاك ورجال الدين، فقد تأصلت الحركة الحديثة بين طبقة الفلاحين الفقراء. وبدأ حزب العمال الكردستانى كحركة مناهضة للإقطاع استهدفت أصحاب الأملاك فى جنوب شرقى تركيا الذين كانوا الحلفاء المطيعين للدولة الجمهورية فى المحافظة على السيطرة الاجتماعية. وفى أماكن أخرى تحالف بناة الدولة التركية مع الفلاحين المستقلين، بل وأيدوا المزارعين الفقراء فى احتلال الأرض، إلا أنهم امتنعوا عن تغيير الميزان الاجتماعى فى الجنوب الشرقى. وحين بدأت حركة الفلاحين فى السبعينيات، أرسلت أنقرة رجال الدرك لحماية أصحاب الأملاك من العصيان المسلح. ويفسر هذا «اشتراكية» حزب العمال الكردستانى، وتآلفه مع حركات مثل «الطريق المضىء»، ولكنه يفسر كذلك عدم كفاية ما تحظى به أيديولوجيا حزب العمال الكردستانى وتكتيكات حرب العصابات الخاصة به وقائده أوجلان بين النخبة الكردية.



رجب طيب أردوغان

أصدر مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قراره الأول بشأن المسألة الكردية فى أعقاب حرب الخليج، وذلك بإقامة منطقة حظر الطيران التى تراقبها الولايات المتحدة فى شمال العراق؛ وبذلك وُضعت مسألة حقوق الإنسان الكردية بشكل رسمى على الأجندة الدولية. وفى العام نفسه اقترح أوزال تعديل الحظر اللغوى بحيث يسمح بالحديث غير الرسمى. وفى عام ١٩٩٣ أعلن أوجلان وقف إطلاق النار وتخلى عن المطالبة بكردستان مستقلة، مطالباً بدلاً من ذلك بالحرية الثقافية والحرية السياسية. وحالت وفاة أوزال المفاجئة دون إجراء المزيد من المفاوضات، وسارع من خلفوه إلى تعزيز وجود الجيش فى الجنوب الشرقى. وأُنهيت الحرب أخيراً فى عام ١٩٩٩، وألقى القبض على أوجلان فى كينيا بمساعدة من الأمريكيين والإسرائيليين، وأعيد إلى تركيا لتحاكمه إحدى محاكم أمن الدولة ويصدر ضده حكم بالإعدام. وفى أغسطس طلب أوجلان من جيش العمال الكردستانى إلقاء سلاحه.

منذ وفاة أوزال لم يأت أى اقتراح من الساسة المدنيين بوجوب التوصل إلى حل غير عسكرى، واعترض مجلس الأمن القومى على أية محاولة لفتح موضوع الحقوق الثقافية، وإن بات مقبولاً شيئاً فشيئاً الحديث عما سمى تخفيفاً «الواقع الكردى». وحتى تلك المكاسب الرمزية كان الفضل فيها يعود إلى جماعات حقوق الإنسان والصحفيين، وليس إلى الساسة. وعلى خلفية الحرب، ظلت الأحزاب السياسية صامتة فى الغالب؛ فيما يعد من الناحية الضمنية قبولاً لاستراتيجية الجيش، دون التساؤل عن آثار الفرض الصارم للهوية القومية على السكان.

كانت إحدى وظائف حد العشرة بالمائة هى ضمان عدم تمثيل الحركة الكردية فى البرلمان. وبعد أن أصبح البرلمان مسألة ثانوية لا صلة لها بالموضوع إلى حد كبير، تحول الجدل السياسى الحقيقى بشأن قضايا الديمقراطية والتمثيل العرقى وآثار التحرر الاقتصادى إلى منتديات عديدة خارج قاعات البرلمان، مثل جماعات حقوق الإنسان، والحركة النسائية، والبرامج المناوئة للحرب، والمنظمات غير الحكومية.

أزمـــة الديـــون

من الناحية الاقتصادية كذلك، كانت التسعينيات هى عقد تركيا الضائع. فبينما كان متوسط النمو ٥,٣ بالمائة خلال الثمانينيات، انكمش الاقتصاد بمقدار ٦ بالمائة فى عامى الأزمة، ١٩٩٤ و١٩٩٩، وبمقدار ٩ بالمائة فى عام ٢٠٠١، حيث انخفض الاستثمار بينما تفشت حالات الإفلاس والبطالة. وكان متوسط معدل التضخم ٨٠ بالمائة. وبدءاً من المستويات التى يسهل التحكم فيها فى أوائل التسعينيات، بلغت مديونية الدولة مستوى مفزعاً مقداره ١٥٠ بالمائة من إجمالى الناتج القومى بحلول عام ٢٠٠١. ومع التراكم الذى يزداد العام تلو الآخر، كان عائد تركيا من الضرائب مطلوباً بالكامل لخدمة الديْن؛ ذلك أنه لكى تعمل الحكومة بعد إدارة الديْن، كان لابد لها من اللجوء إلى قروض جديدة. وبما أن إقراض الحكومة يأتى بتلك العوائد، فقد عانى الاستثمار فى القطاع الحقيقى. واشترت البنوك السندات التى أصدرتها الخزانة وعرضت أسعار فائدة مغرية على الودائع. وكان الجزء الأكبر من الديْن فى حوزة مجموعة صغيرة على قمة تركيز الثروة كانت تمتلك الودائع ذات الفائدة العالية فى البنوك. وفى عام ٢٠٠٢ بلغت نسبة المدفوعات ٢٠ بالمائة من إجمالى الناتج القومى، تسعة أعشارها للديْن الداخلى. ومنذ قرن مضى وصفت الزعيمة الاشتراكية الألمانية روزا لوكسمبرج كيف كانت الدولة العثمانية تُستخدم كقناة لجباية الضرائب كى يستولى المولون الدوليون على الفائض؛ أما

من قيود العسكر إلى قيود بروكسل

المستفيدون فى الوقت الراهن فهم مجموعة صغيرة من أصحاب السندات المحليين.

كان لابد أن يخلق نقل الحكومة المنظم لعائدات الضرائب إلى طبقة أصحاب السندات حالة من الاستياء بين «العناصر النشطة والعاملة» فى الاقتصاد الحقيقى. فهذه العناصر لم تعان فقط من توزيع الدخل الذى يزداد سوءاً، بل إنها حرمت كذلك من نفقات القطاع العام بسبب الاستنزاف المالى. وأحدث اقتصاد الدين كذلك تشوهاً آخر على هيئة الربحية غير العادية للنشاط المالى، الذى يتكون فى معظمه من تعاملات فى السندات الحكومية. وقد تقترض البنوك من الأسواق الخارجية لشراء دين الدولة، فى مقامرة على الفرق بين سعر الفائدة وانخفاض قيمة الليرة التركية. واحتفظ أصحاب المدخرات والمستثمرون بأموال سائلة من العملات المحلية والأجنبية للشراء والبيع بناء على توقعاتهم. وشجع عدم الاستقرار اللاحق على المزيد من المضاربة. وفى هذا التنافس المحموم على جزء من الغنائم، جمع القطاع المالى عائدات مرتفعة مقابل الوساطة، كما شجع على التطفل السياسى والمحسوبية. وكانت هناك كذلك زيادة فى الاستثمار المتقاطع بين القطاع المالى والإعلام المؤثر؛ إذ زاد أصحاب وسائل الإعلام نفوذهم بشرائهم البنوك، وحمى رجال البنوك وضعهم بشراء وسائل الإعلام. وشملت أكبر أحداث الفساد ساسة متحالفين مع رجال البنوك الذين ينهبون خزانة الدولة.

فى تلك الأثناء وجدت الحكومات المتعاقبة أن الأموال تُبتز منها. وبينما كانت العولمة ذات النزعة الليبرالية الجديدة تشن غارات أعمق، كانت الطبقة السياسية عاجزة عن توفير أى قدر من الحماية للسكان ضد الآثار المدمرة لقوى السوق. وبدلاً من اللجوء إلى الإصلاح الضريبى غير المقبول، جرى تقييد النفقات كافة بما يتفق مع وصفات صندوق النقد الدولى. وبذلك ترك التعليم العام والخدمات الصحية تتدهور (بحلول عام ٢٠٠٠ كان الإنفاق على الصحة والتعليم قد انخفض إلى ٣٫٥ و٢٫٢ بالمائة من إجمالى الدخل القومى على التوالى). وجرى تخصيص الشركات المملوكة للدولة، وقُطع الدعم المقدم للمستهلكين، وخُفض الدعم الزراعى. ونضب الاستثمار العام ولم تُتخذ أية إجراءات للمساعدات الاجتماعية رغم الآثار المدمرة الملحوظة على نطاق واسع لما استجد من فقر. والآن تحتل تركيا المرتبة رقم ٨٥ فى تقارير التنمية البشرية، وهو ما يقل كثيراً عن ترتيبها من حيث نصيب الفرد فيها من إجمالى الدخل القومى.

الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى

ربما كان المحدد الأساسى للمشهد السياسى المحلى خلال السنوات القليلة الماضية هو ترشيح تركيا لعضوية الاتحاد الأوروبى؛ ويقال إن هذا هو المشروع القومى الوحيد الذى يتمتع بتأييد شعبى. ولم يكن ذلك هو الحال دائماً. ففى عام ١٩٨٧، حين تقدم أوزال لأول مرة بطلب العضوية، كانت القوى السياسية الإسلامية والقومية تعارض الارتباط الأوثق بأوروبا معارضة شديدة، وما تبقى من اليسار لم يكن قد تخلص بالكامل بعد من افتتانه بنظرية العالم الثالث. ورغم تخفيف سيطرة الدولة على الاقتصاد، كانت البرجوازية التركية المدللة ما تزال بعيدة عن تحديد مسار مستقل لها، وذلك خوفاً من ضياع الأرباح الوفيرة التى تحققها من الاقتصاد المحمى ودعم الدولة. وفى التسعينيات بدأ ذلك يتغير. فقد أخذ صبر الطبقة الوسطى الحضرية الناشئة ينفد بالنسبة للأبنية الرسمية للهوية القومية التى روج لها واضعو مشروع التحديث. وبدأت عناصر داخل الطبقة المثقفة فى التشكيك فى المقدمات المنطقية للنزعة التنموية الخاصة بالدولة. وبينما كان الجدل السياسى فيما مضى يحدد بناءً على سلسلة متصلة من اليسار واليمين، يركز برنامج المعارضة فى الوقت الراهن بشكل متزايد على الحقوق المدنية. وأصبح الترشيح لعضوية الاتحاد الأوروبى ورقة مهمة للعب بها فى هذه المرحلة الحاسمة. وإدراكاً من جماعات المعارضة أنه ليست لديها الموارد ولا القدرة على تعبئة القوى الاجتماعية لهزيمة الدولة، فقد باتت ترى عملية الترشيح على أنها الطريقة الوحيدة لكسب التأييد لقدر أكبر من الديمقراطية، وحكم القانون، والتعددية الموسعة، بالشكل الذى جرى تصويره فى معايير كوبنهاجن. ومع نهاية العقد، كانت الأجنحة المعتدلة فى الحركات الإسلامية والكردية قد انضمت إلى صفوف ناشطى المجتمع المدنى وحقوق الإنسان المطالبين بالوفاء السريع بالشروط التى حددتها بروكسل.

الواقع أن الاتحاد الأوروبى كان قد اكتسب وجوداً كبيراً فى تركيا بحلول أواخر التسعينيات. وكان أعضاء البرلمان الأوروبى يزورون مناطق الصراع بانتظام، ويتفقدون أحوال السجون، ويقدمون دعماً صريحاً لمنظمات حقوق الإنسان. ومول مكتب الاتحاد الأوروبى فى أنقرة مشروعات تهدف إلى تقوية المجتمع المدنى، كما بدئت اتصالات من خلال أنشطة المنظمات غير الحكومية تراوحت بين العمل مع الأطفال المشردين ورعاية ناشطى حماية البيئة.



إضافة إلى ذلك، تلقى برجوازية استنبول الكبيرة بثقلها فى الوقت الراهن وراء مشروع الاتحاد الأوروبى. ومع أن طلب العضوية الذى تقدم به أوزال فى عام ١٩٨٧ قوبل بالرفض من جانب المفوضية، إذ أبدت فى ردها عام ١٩٨٩ شكوكاً بشأن التوسيع وكذلك نزعة الاقتصاد التركى الحمائية وما فيه من خلل، فقد اقترحت بدلاً من ذلك اتحاداً جمركياً للتجارة الحرة يباشر عمله اعتباراً من عام ١٩٩٥. وفى البداية قوبلت اتفاقية التجارة الحرة بشك من جانب بعض كبار رجال الصناعة الأتراك من الجيل الأول. وذلك بينما كان الكثير من رجال الأعمال الصغار ذوى العقلية التصديرية لا يرون فى الاتحاد الجمركى أسواقاً واعدة فحسب، بل كان بمثابة أمل فى إبعاد الوزارات وسلطة التخطيط متقلبة الأهواء عن شئونهم. ومع حلول منتصف التسعينيات، كان اتحاد صناعات استنبول والبرجوازية الأناضولية الجديدة قد تبنيا خطة للتحول الديمقراطى والإصلاح تسعى إلى تحقيق برنامج ثابت نسبياً للتحرر الاقتصادى والسياسى. واتفق كل من رجال أعمال الأناضول واستنبول على أنه لابد من الحد من سلطات الدولة المبالغ فيها. وأدى عدم توفر الإرادة السياسية لتقديم العلاج الجذرى، ووجود تحمس لا يخفى على أحد للكسب غير المشروع، إلى جعل أنقرة زائدة غير طبيعية يصعب عليهم احتمالها.

الأمر الذى جعل معارضة «المجتمع المدنى» لتسلط الدولة المستمر ممكناً هو أن نخبة الدولة وساسة المؤسسة الحاكمة لم يترددوا قط فى التزامهم المعلن بالنموذج الأوروبى. وجعلت هذه النزعة الرسمية الموالية لأوروبا تأييد المعايير الديمقراطية اللازمة للترشيح للاتحاد الأوروبى شكلاً مشروعاً من الانتقاد؛ وهو ما كان فى الواقع الشكل الوحيد المتاح لمن يطالبون بحريات مدنية أكبر. وأشارت استطلاعات الرأى أن هناك أغلبية قوية تتراوح بين ٦٥ و٧٥ فى المائة وراء ذلك الائتلاف العريض للمصالح؛ حتى وإن لم يكن ذلك يعكس فهماً واضحاً لما تستتبعه عضوية الاتحاد الأوروبى فى الواقع.

وفى ديسمبر من عام ١٩٩٩، أى بعد عامين من رفض لوكسمبورج، وافق رؤساء دول الاتحاد الأوروبى على قبول حصول تركيا على وضع الدولة المرشحة لعضوية الاتحاد. وأشار المراقبون إلى عدد من العوامل. ففى ألمانيا، كان شرودر قد حل محل كول الأكثر تشدداً. وكان سجن أوجلان واستسلام حزب العمال الكردستانى قد نزع فتيل القضية الكردية. وكانت حكومة بلير قد بدأت حملة قوية تدعو إلى توسيع عضوية الاتحاد الأوروبى ترياقاً للتكامل. وكان هناك تقارب جديد فى العلاقات مع اليونان، وهو ما كان فى جزء منه نتيجة لدبلوماسية الزلزال، فى عام ١٩٩٩. وقد نجح اتحاد صناعات استنبول فى حشد التأييد فى بروكسل. وقد نُظر كذلك إلى التأييد الأمريكى، وخاصة جهود كلينتون فى قمة منظمة الأمن والتعاون الأوروبى OSCE باستنبول فى نوفمبر من عام ١٩٩٩. على أنه مفيد فى ضمان نتيجة إيجابية فى هلسنكى، وإن كانت تدخل الولايات المتحدة المستمر لمصلحة انضمام تركيا يُقابل باستياء من بروكسل، وخاصة منذ تولى جورج دبليو بوش رئاسة الولايات المتحدة. وبالطبع أثبتت تركيا أنها مصدر قوة مخلص فى فترة ما بعد الحرب الباردة، وقيل إن دخول الاتحاد الأوروبى سوف يساعد على استقرار تركيا داخلياً، دون أن يكلف ذلك الولايات المتحدة و«التحالف الغربى» شيئاً.

رغم ذلك فاجأ قرار الاتحاد الأوروبى منح تركيا وضع الدولة المرشحة لعضويته بعض أفراد نخبة الدولة فى أنقرة. فبعد أن اعتمدوا على التأجيل الدائم، هاهم يجدون أن الإصلاحات المطلوبة منهم فجأة تقتضى تعديلات كبيرة فى نظام الأمن القومى الخاص بهم وفى دعائمه الأيديولوجية. إذ كان لابد أن يترك نموذج الأمة باعتبارها جماعة ذات مصالح مشتركة مكانه لحكم القانون، كما أن تطبيق الحريات المدنية والسياسية سوف يعزز القوى المعارضة. وكان لابد كذلك من الاعتراف بالحقوق الثقافية للأقلية الكردية وإعادة تعريف العلمانية بحيث تسمح بحرية إنشاء المنظمات الدينية والتعبير عن الآراء الدينية. وربما كان الأمر الأكثر إثارة للجدل هو تخلى الجيش عن وصايته على الدولة. وبناء على ذلك كان هناك لأول مرة تعبير علنى عن معارضة المشروع الأوروبى، وخاصة من الجيش وكذلك من داخل صفوف البيروقراطية والقضاء. وبينما كان الاتحاد الأوروبى فى البداية مشروع دولة بالنسبة للنخبة التركية، هاهو قد أصبح برنامجاً لمن أرادوا كبح جماح استبداد نخبة أنقرة. إلا أن وقوع حزب الدولة فى مصيدة

يعتمد القبول الشعبى لحزب العدالة على كونه صوتا لمن كانوا حتى ذلك الوقت مُقْصَين، بينما تنبع وعوده من سجل الحكم لتشكيلاته التى نجحت فى بناء سمعة للأمانة فى إدارات جرت العادة أن تكون غارقة فى الفساد

اللغة خدم مؤيدى التحول الديمقراطى خدمة كبيرة أثناء النقاش. إذ بلغ الأمر بعدد قليل جداً من الأصوات حد اقتراح الانفصال تماماً عن الاتحاد الأوروبى. ولم يكن الخطاب الكمالى الرسمى ليسمح بهذا النبذ للنموذج الغربى.

كان عدم ارتياح الجيش وامتداداته فى الحكومة المدنية بشأن توقعات العضوية يتغذى على شكوك الجانب الأوروبى. فقد كانت النخب الأوروبية التى تتطلع إلى تكوين اتحاد فدرالى موحد سياسياً تعارض انضمام تركيا على نفس الأسس التى عارض بها ديجول انضمام بريطانيا فى الستينيات. وكان الديمقراطيون المسيحيون فى النمسا وألمانيا يعتقدون أن تركيا من الناحية الثقافية ليست أوروبية بالقدر الكافى، أو أنها إسلامية أكثر مما ينبغى. وأظهرت استطلاعات الرأى أن أقلية فقط هى التى تؤيد ترشيح تركيا، وإن كانت النسبة أعلى فى جنوب أوروبا منها فى شمالها. واتهم جيسكار ديستان الساسة الآخرين بالنفاق، معلناً أن قبول تركيا فى الاتحاد الأوروبى سوف يعنى نهاية أوروبا.[5] إلا أن الاتحاد الأوروبى نفسه وقع فى فخ خطابه باعتباره «اتحاد المستعدين»: فمن الناحية الظاهرية يمكن لكل من يفى بمعايير كوبنهاجن أن ينضم إليه. ومن ثم كان لابد من السماح بإجراء المفاوضات بالسير فى القنوات المحددة، وكانت الغلبة لقوة الدفع البيروقراطية، حيث أعدت المفوضية تقارير تقدم سنوية.

حكومة حزب العدالة والتنمية

حققت القوة المؤيدة للاتحاد الأوروبى فى تركيا انجازاً غير متوقع بفوز حزب العدالة والتنمية فى انتخابات نوفمبر ٢٠٠٢، ولم يكن الحزب قد وعد فى الواقع بالعمل من أجل عضوية الاتحاد الأوروبى فحسب، بل كان كذلك القوة السياسية الوحيدة التى لم تلحق بها علاقتها بنخبة الدولة أية أضرار. وحتى قبل تشكيل الحكومة، بدأ إردوغان جولات فى العواصم الأوروبية لحشد الدعم لتحديد موعد لدخول تركيا المفاوضات. وكانت تلك هى المرة الأولى منذ خمس عشرة سنة التى يشكل فيها حزب واحد الحكومة التركية، مع وجود رئيس وزراء يمكن أن يعد بتنفيذ إصلاحات دون خوف من أى تخريب تقوم به الأحزاب المشاركة فى الائتلاف، أو الاختباء وراءه. وعملت حكومة حزب العدالة والتنمية بحماس شديد للتعجيل بالتشريع الذى كان قد بدأ فى عهد أجاويد. فقد قُلِّلت امتيازات مجلس الأمن القومى، وسوف يوسع ليشمل أغلبية من المدنيين الذين سيكون أحدهم رئيسه. وفى عام ٢٠٠٤ أُطلق سراح النواب الأكراد، وبدأ بث برنامج باللغة الكردية باسم «ثرواتنا الثقافية» على قناة TRT التى تديرها الدولة. ويبقى أن نرى ما إذا كان للتشريع الذى يحمى الأفراد من أية أجهزة قمعية تابعة للدولة أى أثر على السلوك الفعلى للشرطة والمحاكم أم لا.

حصل إردوغان على رد فاتر بشأن تحديد موعد للانضمام فى قمة كوبنهاجن فى ديسمبر ٢٠٠٢، فى ذروة الاضطرابات التى شهدتها العلاقات بين جانبى الأطلنطى قبل حرب العراق. وجرى تأجيل قضية تركيا للبحث حتى ديسمبر ٢٠٠٤، إلا أن التمرد المسلح الذى حدث خلال العام المنصرم فى العراق، إلى جانب التقدم الجرىء الذى حققه حزب العدالة والتنمية، أدى إلى توكيد مختلف. ففى مايو ٢٠٠٤، وصف كريس باتن مفوض الشئون الخارجية بالاتحاد الأوروبى تصويت المجلس الأوروبى فى ديسمبر ٢٠٠٤ بأنه «الاختبار الأساسى لالتزام الاتحاد الأوروبى بالمقاربة التعددية والشاملة للإسلام». وفى يونيو أعلن المجلس أنه راض عن تحول تركيا الديمقراطى وسوف يوقف مراقبة تقدمها. وباستثناء بعض القلق البارز، يبدو أن ديسمبر ٢٠٠٤ سوف يشهد السماح لتركيا بالجلوس فى قاعة انتظار الاتحاد الأوروبى، حتى وإن طال انتظارها هناك بينما تحاول بروكسل إدخال ما يكفى من الخيارات والمسارات المتعددة ومنافذ تقديم الدعم لتمييز الدعم الزراعى فى المستقبل وتقييد حركة الباحثين الجدد عن فرص العمل.



وبالطبع لن يقدم بدء المفاوضات مع الاتحاد الأوروبى من أجل الانضمام النهائى حلاً سحرياً للتوترات التى تولّدها الحياة السياسية والاجتماعية التركية. وبالنسبة للوقت الراهن، يبدو أن الجيش قد كيف نفسه مع القيام بدور أصغر منحته له مناورة إردوغان الماهرة، غير أن الدعوات إلى إعادة ارتدائه عباءة الوصى اليقظ لم تختف. وسوف يتوقف ظهور الصراع على نجاح حزب العدالة والتنمية فى الحصول على قبول قاعدته الإسلامية على السير فى اتجاه حكم أكثر مركزية يرضى كذلك المؤسسة العلمانية والجيش. ويتوقف الدور الذى يحتمل أن يقوم به الجيش كذلك على مدى التزام الجيش التركى بالحروب الجديدة والمشروعات الأمنية التى يخططها البنتاجون. ولا يبدو تكرار اعتراض البرلمان على عبور الأراضى التركية إلى العراق فى مارس ٢٠٠٣ أمراً محتملاً؛ فقد خالف ثلث نواب حزب العدالة والتنمية المنتخبين حديثاً أوامر الحزب بالتصويت مع حزب الشعب الجمهورى. وأثار العصيان التركى غير المسبوق غضباً شديداً فى البيت الأبيض يسعى إردوغان منذ ذلك الوقت سعياً جاداً للتعويض عنه. وبحلول أكتوبر ٢٠٠٣ كان إردوغان قد نجح فى إقناع صفوف حزب العدالة والتنمية بالتصويب لمصلحة إرسال قوات لدعم التحالف الذى تتزعمه الولايات المتحدة مستخدماً المنطق العسكرى القائل بأن الوجود التركى المسلح ضرورى لمنع قيام دولة كردية. إلا أن طلبات مجلس الحكم العراقى الملحة منعت حدوث نشر القوات. ويظل الجنرالات على نفس ما كانوا عليه من أهمية بالنسبة لواشنطن، كما تعهد إردوغان نفسه بترضية الولايات المتحدة. وليس واضحاً أنه سيكون من السهل التوفيق بين المكانة المهنية المتسعة للجيش وتناقص وجوده المعتاد فى الشئون السياسية: خاصة فى حالة عودة نشاط حرب العصابات الكردى داخل الحدود التركية.

على الجانب المالى، مازال عبء الدَّين فى ازدياد. وحتى فى حال نجاح حزب العدالة والتنمية فى تخفيض أسعار الفائدة شيئاً فشيئاً، فلا يبدو أنه سيكون من الممكن حل المشكلة جذرياً. فمن غير المحتمل أن تعلن الحكومة الإفلاس التام فى المستقبل القريب، ولكن ما إن ينقشع جو الأزمة الدائم حتى يكون عليها مواجهة الاستياء المتزايد من التقشف وشح مخصصات الميزانية للنفقات الاجتماعية. وبينما كان الانتعاش الاقتصادى أمراً مهماً منذ أزمة ٢٠٠١، يدفع القطاع الشاب والمتزايد من سكان تركيا فى كل عام إلى سوق العمل دفعة جديدة من العمال الشبان الذين تتسم توقعاتهم فى عصر تزايد البطالة بقدر كبير من خيبة الأمل. فقد خلقت إعادة هيكلة القوى العاملة استقطاب واضح فى المدن الكبرى لا يمكن علاجه بالآليات التقليدية الخاصة بالأسر الكبيرة وتضامن الأحياء السكنية.

كان الفقراء الحضريون بمثابة تجمع كبير للأصوات المؤيدة لحزب العدالة والتنمية، إلا أنهم مازالوا عاملاً لا يمكن التنبؤ به. وفى الوقت الراهن ما زال حزب العدالة والتنمية يستفيد من سجله السابق النظيف نسبياً فيما يتعلق بالفساد. ولا تكمن جاذبيته الأساسية بالنسبة للفقراء الحضريين بصورة كبيرة فى مقترحات ملموسة بقدر ما تكمن فى تصورها للتعاطف؛ كما أنه يستفيد من غياب أية قناة سياسية بديلة للتعبير عن سخطهم. وبعد ذهاب الجِدّة، سوف يكثر التوتر فى الصراع بين سياسات حزب العدالة والتنمية ومطالب جماهيره الأساسية التى يشجعها الخطاب الشعبوى. وبينما سوف يمثل الاعتراف الرسمى من جانب الاتحاد الأوروبى باحتمال نهائى للعضوية تعزيزاً محدداً، فإن مستقبل «منارة الديمقراطية فى العالم الإسلامى» كما تصفها واشنطن مازال غير مؤكد. ■

هوامش:

(١) ظهرت المكانة الحقيقية لمجلس الأمن القومى أثناء أحداث الحرب ضد السكان الأكراد فى الجنوب الشرقى. فقد أصبحت إدارة منطقة الحرب وكل الأمور المتعلقة بحرية الرأى وممارسة الحقوق المرتبطة بالمشكلة الكردية والمسائل العرقية ضمن سلطة مجلس الأمن.

(٢) فى الوقت الراهن ٥ بالمائة فقط من القوى العاملة أعضاء فى نقابات، حوالى مليون مما يزيد على عشرين مليون عامل، داخل بيئة مؤسسية على قدر كبير من التشظى.

(٣) أثناء الحرب الكردية، تعاقدت «الدولة المتغلغلة» مع فصيل متطرف وحشى من الإسلامويين، هو حزب الله، للتخلص من رجال الأعمال المتعاطفين مع الجانب الكردى. وبما أن أعضاء حزب الله كانوا فى أغلبهم من الأكراد، فقد كان فصيلاً سنياً أصولياً لا علاقة له بالحزب الشيعى الذى يحمل الاسم نفسه. ويبدو أن هذه الرعاية مستمرة حتى الآن بعد توقف العمليات القتالية فى الجنوب الشرقى، مما يسّر الحركة الدولية لحزب الله ومشاركته المزعومة فى التفجيرات الانتحارية فى استنبول فى نوفمبر من عام ٢٠٠٣، وتظاهر قوات الأمن بأنها قادرة على السيطرة على الأصوليين من أجل أغراضها أدى إلى عكس النتائج المرجوة.

(٤) هناك الكثير مما كُتب عن الحركة الإسلامية فى تركيا، منه على سبيل المثال، Binnaz Toprak, Islam and Political Development in Turkey, Leiden 1981. Nilufer Gole, Modern Civilization and Veiling, Ann Arbor. Jenny White, Islamic Mobilization. The Social Base of Turkey's Welfare Party, International Journal of Middle East Studies, 2001 vol. 33, No 3.

(٥) اشترك جيسكار ديستان وهلموت شمت فى كتابة مقال رافض عقب قمة هلسنكى التى تمت فيها الموافقة على ترشيح تركيا. وكان جيسكار صريحاً إلى حد كبير فى نوفمبر ٢٠٠٢ حين أعلن أن تركيا ليست بلداً أوروبياً من الناحيتين الجغرافية والدينية. انظر «L'Europe sans frontier», Le Monde, 9 November 2002. وبصورة عامة كان ترشيح تركيا أكثر قبولاً بين اليسار منه بين اليمين (بريطانيا نموذج لذلك)، وكان فى دول جنوب أوروبا أكثر منه فى الشمال.

"النموذج"

جراهام فولر

أصبح «الورع» عنوانًا للتخلف وصفة للعقول التقليدية فى وسط الأناضول. الدولة هى التى تقرر ما يبنى من مساجد، من يتولى إدارتها، وتكتب الخطب الموحدة لصلاة الجمعة فى كل تركيا

■ ■ لدى الغرب صورة مضللة عن تركيا: «دولة علمانية، ديمقراطية، صديق ثابت للولايات المتحدة، دولة يتوافق مشهدها الاستراتيجى مع المصالح الأمريكية فى الإقليم، والمثال القدوة لكل المسلمين»، وطوال الـ ٥٠ عامًا الماضية لم يتطابق معظم هذه «الصفات» مع الواقع، ولم يجسد سوى أسطورة مريحة لم تختبر. وإذا كان الغرب يرى أن ماضى تركيا «أسطورة» فالأنباء الجيدة هى أن حاضر تركيا، مستندًا إلى حقائق جديرة بالملاحظة فى حركتها خلال سنوات جديدة، يتحول الآن إلى المثال «الأصيل» الذى يقدم - أخيرًا - درجة من الإغواء «الأصيل» فى الإقليم. هذا المثال الجديد يرتكز إلى: انتفاع جاد بالعملية الديمقراطية، واستعداد لأداء دوره ليس كمجرد قوة غربية ولكن كقوة شرقية أيضًا، ممارسة أوسع لسيادة وطنية تستند إلى الشعب، استقلالية أكبر لفعل لم يعد يتعلق بضمانات أمن من الولايات المتحدة أو أى قوى فى رسم السياسة الخارجية. هذا المثال «النموذج» يحقق أيضًا تقدمًا معتبرًا فى اتجاه حل قضية «الأكراد» الأقلية العرقية الملتهبة، ولديه اليوم قدرة ظاهرة لمواجهة التحدى الأول فى العالم الإسلامى اليوم: عملية التكامل الإدارى والسياسى للإسلام. هذا «النموذج» الجديد هو الأفضل كثيرًا لتركيا، الأفضل للإقليم، والأفضل لأوروبا والعالم حتى وإن كان فى واشنطن من لا يزال يأمل فى بقاء «نموذج» أسطورة تركيا القديمة. هناك محاور رئيسية للتحول فى تركيا، وستقود المشهد الاستراتيجى للدولة وسياساتها خلال العقد المقبل، وهى الإسلام، القومية التركية الشائكة، الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى، دورها كدولة شرق أوسطية وكدولة متعددة العرقيات، وروابطها مع الولايات المتحدة.

الإسلام

ما يسمى بـ «تركيا العلمانية» هو - تقليديًا - أكثر ما أحبه الغرب عن هذه الدولة، وراه كنوع من الإيماء بالرأس اعترافًا بالمقام الرفيع للنموذج السياسى الثقافى الغربى. لكن تركيا لم تكن أبدًا علمانية أصيلة. وعلى خلاف النموذج العلمانى للولايات المتحدة، الذى يفصل الكنسية - بصرامة - عن الدولة ويوجب على الدولة أن تبقى بعيدة عن شئون الدين، ولدت العلمانية التركية سيطرة مطلقة وتحكما من الدولة فى الدين على كل المستويات. لقد استند النموذج القديم الذى أرسى دعائمه مصطفى كمال أتاتورك الإصلاحى المشهور ومؤسس تركيا الحديثة فى العشرينيات من القرن العشرين. هذا النموذج استند إلى رؤية فرنسية للعلمانية، بزغت فى أعقاب الثورة الفرنسية، تستخف بالديانة وتنظر إليها كأثر قديم من آثار التخلف والشعوذة لابد من إزالته برؤية علمية حديثة. وقد تعاملت إصلاحات أتاتورك مع الإسلام برؤية مشابهة. كما أن عددًا لا يستهان من النخب الحاكمة تجنب، وبشدة، كل ممارسة عامة للمعتقدات الدينية.

ورغم أن «الإسلام» لم يُمنع، إلا أن الدولة أخذت فى تهميشه أصبح «الورع» عنوانًا للتخلف وصفة للعقول التقليدية فى وسط الأناضول. الدولة هى التى تقرر ما يبنى من مساجد، من يتولى إدارتها، وتكتب الخطب الموحدة لصلاة الجمعة فى كل تركيا. وتولت العسكرية التركية، المتحمسة الغيورة وحامية العقيدة الأتاتوركية، قيادة الصراع لقمع أى شكل لقوة دينية منظمة، أو تدخل من رجال الدين فى السياسة. لكن «حالة الدولة» هذه تراجعت - بوضوح - إلى الوراء خلال العقود القليلة الماضية أمام تنامى العملية الديمقراطية إلى أن وصل المشهد إلى ذروة غير مسبوقة فى تركيا بمجىء حزب دينى معلن إلى السلطة قبل سنتين، حتى وإن كان حصيفًا وحرص على عدم إعلان جذوره الدينية.

نزوع تركيا المعروف تجاه الغرب تحرك باتجاه أكثر واقعية وأصبح أعمق تجزرا. كانت تركيا - بالفعل - غربية النزوع بمعنى ان المتطلبات الاستراتيجية، فى مواجهة التهديد السوفيتى خلال فترة الحرب الباردة، قادت أنقرة إلى معانقة حلف الناتو بشدة، والبحث عن ضمانات أمن غربية. كما أن تركيا لم تصبح غربية بين ليلة وضحاها. لقد كانت دول الإمبراطورية التركية العثمانية أكثر الدول الإسلامية نزوعًا نحو الغرب بحكم الجوار الجغرافى والتواصل والتداخل لمئات السنين سواء كأعداء دوريين أو حلفاء موسميين. وخلال المائة سنة الأخيرة من عمر الإمبراطورية العثمانية، والتى انهارت مع نهاية الحرب العالمية الأولى، سلكت تركيا سياسة تحرر وإصلاحات غربية مثل توحيد النظام الشرعى وتبنى صيغ برلمانية فى الحكم ومحاولة التوفيق بين الإسلام والقانون الغربى، وتعديل نظام التعليم ليواكب النمط الغربى. وهكذا، ورغم أن إصلاحات أتاتورك فى الجمهورية التركية الجديدة، بعد الحرب العالمية الثانية، قدمت فصلاً ثوريًا جديدًا فى عملية «تغريب» تركيا، إلا أنها لم تكن عادلة. لقد ترك سحق أتاتورك لقوة وهيبة الدين فى تركيا الجديدة، ندبات روحية واجتماعية، بطيئة الالتئام، على مدار الـ ٧٠ - ٨٠ سنة الماضية. كان تأثير الغرب لا يذكر بالنسبة للأغلبية الساحقة من سكان تركيا التى لم تشارك الصفوة الأتاتوركية فى روابطها مع الغرب. الأغلبية ظلت متدينة وفخورة بالميراث العثمانى حتى وهى تتحول إلى «مواطنين يدينون بالولاء للجمهورية الجديدة». لقد استغرق الأمر من سكان الأناضول، قلب تركيا، عدة أجيال للاستفادة من النظام التعليمى والإصلاح الاقتصادى والخصخصة لتوسيع التقدم الاقتصادى فى الدولة والبزوغ كقوة جديدة لها أهميتها فى المشاهد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى تركيا. وعلى مدار الأعوام، دعمت هذه القوة الجديدة المسماة بـ «نمور الأناضول»، وبشكل متزايد، الأحزاب السياسية التى تحترم التقاليد الدينية ولا تقلل من شأن الموروث الإسلامى التركى أو تحد من حرية التعبير عنه. ذروة هذه العملية، التى قبلت على مضض من الصفوة لهذا البروز المتزايد لأحزاب توجهاتها دينية، تمثلت فى مشهد انتصار حزب العدالة والتقدم (AKP) فى انتخابات عام ٢٠٠٢. هذا الحزب الشعبى، ذائع الصيت، الذى يصف نفسه - بحصافة - بأنه «ذو خلفية إسلامية»، أصبح الحزب الحاكم فى البلاد. ويعد هذا التطور، فوق ذلك، نتاج تقاليد إسلامية تركية نمت باعتدال، وزاد اقترابها من حقائق السياسة ومتطلبات البراجماتية، تحت العين الراصدة للصفوة العلمانية داخل الجيش، وأعمدة البناء القديم. وفى القلب نفسه التقليدى لتركيا (الأناضول) تفجرت أيضًا، وعلى وجه مقارب، أكبر حركة شعبية فى تركيا «حركة النور» (وفرعها الأكبر والأكثر بروزًا «حركة فتح الله جولين») التى تتبنى تجديد الإسلام القائم على التسامح والتسامى، والانفتاح على التعليم والديمقراطية وبناء المجتمع المدنى القائم على المبادئ الأخلاقية للإسلام. هاتان الحركتان المهمتان تجسدان - بالفعل - صفوة أناضولية جديدة متسقة مع موروثها الإسلامى وتكافح، فى الوقت نفسه، من أجل التحديث والأخذ بالتكنولوجيا، ولكى تكون جزءًا من النظام الأوروبى طالما أن هذا لا يعنى فقدان الهوية الإسلامية. والحقيقة أن تركيا العلمانية هى أول دولة فى تاريخ العالم الإسلامى تنتخب بحرية حزبًا إسلاميًا للسلطة الوطنية. هذه الحقيقة مذهلة. لقد كان على الجيش التركى، الحارس القديم اليقظ لأى تأثير للدين على الحكومة، أن يرضى بالحقيقة وبأن الجماهير انتخبت هذا الحزب وأن الحزب يعمل من داخل المحددات الأيديولوجية للنظام السياسى للمؤسسة التركية. لكن ما حدث فى تركيا قد لا يثير دهشة كبيرة فى ضوء ما للأحزاب الإسلامية من سطوة فى كل العالم الإسلامى طوال العقدين الماضيين أو يزيد.

لقد أدت سيطرة الدولة الشديدة على الدين، وتهميشه ومحاصرته، إلى انبعاثة إسلامية جديدة، تدريجية ولكن مثابرة،

عـن: The Washington Quarterly

ترجمة: جمال إسماعيل

داخل المسرح السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى تركيا. كان من الطبيعى الا يظل المفتاح الرئيسى للهوية التركية، المرتبط عبر مئات السنين بحماية ونشر الإسلام، مقموعاً إلى الأبد حتى وإن كان أتاتورك قد فكر فى نفى ماضى تركيا الإسلامى بعيداً عن إدراك وتعبير الجماهير. ورغم أهمية العديد من الإصلاحات الغربية التى قادها أتاتورك إلا أن محاولة قمعه للدين بين الجماهير لم تنجح، وعادت تركيا ثانية إلى التعبير الطبيعى عن الشعور الدينى، وخاصة فى السياسة. كانت الديمقراطية السائرة مفتاحاً إلى هذه العملية وبالطريقة نفسها التى دعمت بها الديمقراطية الإسلام السياسى فى كل الدول الإسلامية تقريباً؛ وعلى حد سواء. وهكذا فإن الوسيلة الأولى والمهمة، التى جعلت من تركيا النموذج فى العالم الإسلامى، هى أنها واحدة من دول إسلامية قليلة شهدت بزوغاً فعلياً لتمثيل نيابى وسياسى حقيقى وجاد.

وبعد عقود عديدة من الكر والفر والبدايات، وصلت الديمقراطية التركية مرحلة نضج نسبية. لقد حلت تركيا - بالحوار وإلى الحد الذى يمكن منه اعتبار أى مشكلة سياسية محلولة بشكل دائم - مشكلة الإسلام السياسى بواسطة مزيج على درجة مناسبة من الضغوط والحريات يسمح لحزب إسلامى، شديد الحساسية، بالبزوغ، والتألق أيضاً. وعندما يأتى اليوم الذى يشعر فيه الناخب أن هذا الحزب الإسلامى فقد طاقة استمراره، فسوف يهزم فى صناديق الاقتراع، بطبيعة الحال، ويحل محله حزب آخر وتستمر عملية تبادل طبيعية للسلطة السياسية، وهى العملية التى تجعل الأحزاب الإسلامية مثلها كمثل بقية الأحزاب.

إذا كانت هذه هى المرة الأولى فى تركيا التى ينتخب فيها حزب إسلامى كحزب حاكم، فهى المرة الأولى أيضاً لواشنطن. لقد كانت الولايات المتحدة تشعر دائماً بـ «حرقة» إزاء السياسات الإسلامية. وهى حرقة لها ما يبررها منذ الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، أزمة الرهائن (السفارة الأمريكية فى طهران)، الهجمات التدميرية لرجال حرب العصابات من شيعة لبنان ضد التواجد الأمريكى والإسرائيلى فى لبنان فى الثمانينيات، بالإضافة إلى ظهور جماعات إرهابية وإسلامية متطرفة حول العالم. وقد تُوِّجَتْ الحرقة - بطبيعة الحال - بهجمات القاعدة المروعة فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١. رغم ذلك، توصلت واشنطن - بنجاح تام - إلى علاقات متبادلة مع حكم حزب العدالة والتقدم، مبرهنة أن حزباً إسلامياً واحداً، على الأقل، فى العالم، يمكن أن يكون الشريك الممكن الذى يقود إلى الاستقرار فى الإقليم. وقد زار «زعيم الحزب»، رئيس الوزراء التركى، واشنطن وجرت المشاورات وتبادل الآراء بين الدولتين حول قضايا مثل العراق، قبرص، التعاون الثنائى العسكرى فى مجالات محددة.

لقد اجتاز حزب العدالة العتبة، والأمل أن تشعر الولايات المتحدة أن بإمكانها العمل فى المستقبل مع أحزاب إسلامية فى دول أخرى.

ولماذا لا؟ إن الولايات المتحدة لا تستطيع، أحبت ذلك أم كرهته، تجنب التعامل مع الحركة السياسية الوحيدة والأكبر فى العالم الإسلامى، أى الحركة الإسلامية بكل تنوعاتها واختلافاتها وتطوراتها الجارية. إن الجميع يدرك أن العالم الإسلامى حافل بالمظالم والإحباطات والغضب. تعبر هذه المظالم عن نفسها اليوم راكبة «عربة العقيدة». لقد كانت المظالم نفسها قائمة خلال عقود عديدة مضت، وراكبة عربات عقائدية مختلفة، قومية عربية وراديكالية وغيرها. وعندما فشل عبد الناصر فى تحقيق نتائج، ظهرت الماركسية - اللينينية وبعدها «الإسلامية» كخلف طبيعى. كذلك فإن قمع أو تدمير عربة عقائدية، ما، كان يدفع بالمظالم وأصحابها إلى البحث عن عربة جديدة. لهذا يمكن للاستيعاب، وليس القمع، أن يمكن الإسلاميين من التعبير عن العديد من المظالم الشعبية وتسويتها. ولهذا يمكن لما حدث فى تركيا أن يشكل سابقة مهمة للعالم الإسلامى.


كمـــال أتـــاتـــورك

الوطنية التركية الشائكة

يدرك أى أمريكى دخل يوماً فى مفاوضات مع الحكومة التركية أن التركى مفاوض صلب وساخط. يبدو التركى على درجة عالية من الحساسية إزاء الكرامة الوطنية والمصالح القومية التركية. ولا يخفى المفاوض التركى ارتيابه إزاء دوافع الدبلوماسية الغربية. هذه النزعات تعد نتاجاً طبيعياً لحقيقة معاناة تركيا، منذ عدة قرون، من الإمبريالية الغربية التى اقتطعت، وبانتظام، مساحات كبيرة من الإمبراطورية العثمانية فى البلقان، الشرق الأوسط، والقوقاز. كما أن الدولة التركية الجديدة كادت تتفكك بواسطة قوى أوروبية متحمسة، منها اليونان، بعد الحرب العالمية الأولى ولم تحفظ وحدة أراضيها سوى المقاومة غير العادية التى قادها أتاتورك. تجارب تاريخية دعمت من الخط القوى القومى المناهض للإمبريالية فى التركيبة الوطنية التركية ولم يخفف منه سوى أن الدولة أصبحت قادرة على الحفاظ على قوتها واستقلالها بعد طرد القوى الإمبريالية الجائعة، فى عام ١٩٢١ (بخلاف معظم الدول العربية التى لم تنل الاستقلال الحقيقى إلا فيما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية). ويبقى الارتياب فى التحركات الأوروبية والأمريكية تحت السطح ويظهر دائماً بقوة من وقت إلى آخر، وأصبح العامل المشترك داخل المشهد السياسى التركى: الجيش، القوميون الأتراك، اليساريون، الإسلاميون. وأيضاً داخل أكثر الدوائر التركية غربية. ويعكس السؤال عن الروابط الحالية ما بين أنقرة والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى «غريزتين متحاربتين، داخل طبيعة الوطنية التركية»: رغبة تحقيق فائدة من الديمقراطية الغربية، تبادل السلطة، ونجاحات اقتصادية، وتحديث يناهض الارتياب المعتاد إزاء مناورات الغرب. ويرى القوميون المتشددون أن شخصية تركيا واستقلالها تعرضا لتوفيقات بسبب ضغوط يفرضها الغرب عليها لإصلاح متعدد الثقافات واندماج أعمق فى النظام الاقتصادى الأوروبى.

ومن المفارقات المثيرة فى التاريخ أن يأتى الطلب التركى، لعضوية الاتحاد الأوروبى، أكثر إلحاحاً واقناعاً، فى وقت يترأس فيه البلاد حزب إسلامى. وراء هذا التطور سياسات معقدة لكنها على درجة كبيرة من الأهمية. إن الإسلاميين، أو أصحاب الاتجاهات الإسلامية، ضجوا بالشكوى من نفوذ العسكرية التركية على النظام السياسى والذى أدى إلى قمع حرية التعبير «الإسلامى» وحرمانه من إيجاد تمثيل نيابى له داخل النظام. لهذا، وعندما بدأت مفاوضات دخول تركيا إلى الاتحاد الأوروبى، وجد الإسلاميون، وكذلك الأحرار، أن مطالب الإصلاح المفروضة من الاتحاد الأوروبى لدخول تركيا إلى عضويته، تصب فى مصالحهم إلى حد كبير. الديمقراطية هى «المطلوب» من الجانبين: الاتحاد الأوروبى، و«الإسلاميون المعتدلون». الديمقراطية بما فيها من انفتاح النظام السياسى وانحسار تأثير العسكرية على السياسات. كثير من الأتراك يسعون إلى هذه الأهداف، لكن الإسلاميين كانوا هم المستفيدون الرئيسيون.

اليوم، يبقى ما يسمى بقلق العسكرية، شديدة العلمانية، المؤيدة للغرب، إزاء الإصلاحات المطلوبة من الاتحاد الأوروبى لكونها قد تكسب التيار الإسلامى المعتدل مزيداً من الشرعية التى قد تمتد أيضاً إلى الحركة الكردية داخل الدولة.

لكن الأخبار الطيبة هى أن العسكرية التركية مؤسسة تحظى باحترام رفيع ولم يطلها الفساد. ووسعت، عبر السنوات، من آفاقها الديمقراطية فى مواكبة للتقدم الحاصل على المستوى المدنى. لقد قلصت، ويتزايد، من تدخلاتها السابقة ومن دورها، فى السياسة سامحة للدولة بأن تتطور فى اتجاه ديمقراطية أصيلة. وفى هذا السياق يبدو اليوم مستقبل تركيا السياسى، والاجتماعى أيضاً، أكثر إضاءة مما كان عليه الوضع فى عقود ماضية. ورغم «مشاكسات» داخلية حول طبيعة الإصلاحات المكثفة المطلوبة من الاتحاد الأوروبى، تتحرك

الدولة التركية فى الاتجاه الصحيح على طريق قبول الحاجة إلى إصلاح يستجيب للمتطلبات الأوروبية.

والشعور السائد لدى الأغلبية هو أن المكاسب التى يمكن تحقيقها عبر العضوية الأوروبية تفوق فى قيمتها التوفيقات المتعلقة بالسيادة وصيانة النظام القديم. الإصلاحات هى، بالفعل، وفوق كل مطلب آخر للاتحاد الأوروبى، الوسيلة الوحيدة الأكثر قوة لإحداث إصلاحات سياسية واقتصادية وتشريعية كان من الصعب تبريرها وتطبيقها إذا لم تكن هناك تلك الرغبة التركية لدخول الاتحاد.

وداخل الاتحاد الأوروبى نفسه، هناك من يشعر بالقلق إزاء الانضمام المستقبلى المحتمل لتركيا، وإزاء ما إذا كانت تركيا تستطيع - حقاً - تنفيذ الشروط المسبقة للعضوية. بعض الأوروبيين يصل إلى حد التخوف من أن تكون ثقافة تركيا الإسلامية غير مألوفة إلى درجة يصعب على الاتحاد الأوروبى هضمها. وبعض المخاوف الأوروبية المشروعة تتعلق بحجم التعداد السكانى التركى، وملامح الاقتصاد التركى، وكلاهما يمكن أن يكون له انعكاسات حادة على الاتحاد الأوروبى. على الجانب الآخر، كان حزب العدالة والتقدم وراء الدفعة القوية لتسوية الأزمة الملحة حول تقسيم قبرص طبقاً لخطوط مقترحة من الأمم المتحدة. وهى دفعة جددت الأمل فى حل قريب للمشكلة التى بدت وكأنها غير قابلة للحل طوال أكثر من ثلاثة عقود. هنا أيضا يبدو التقدم الاستراتيجى التركى ملحوظاً.. وفى الصميم.

تركيا والاتحاد الأوروبى

قدم طلب تركيا لعضوية الاتحاد الأوروبى الحافز الحيوى لاتخاذ إصلاحات داخلية سياسية واقتصادية، وقد تحصل تركيا على العضوية رغم الكثير من التشاؤم الذى يسود بعض الدوائر فى تركيا، والكثير من الهواجس داخل دوائر بعينها فى الاتحاد الأوروبى. وإذا كان منطق التوسع فى عضوية الاتحاد الأوروبى يسمح بانضمام دول أقل تقدماً سياسياً أو اقتصادياً، مثل بلغاريا ورومانيا، فإن عضوية تركيا تصبح مؤكدة واستبعادها هو أمر لا تحتمله طموحات أوروبا الكونية المتعددة الثقافات.

من جانب آخر تزيد آمال تركيا فى الانضمام إلى عضوية الاتحاد الأوروبى من التوتر على صعيد العلاقات الأمريكية الأوروبية. وتمارس الولايات المتحدة، الراغبة فى الإبقاء على تركيا كشريك استراتيجى فى الشرق الأوسط، قدراً من الإزعاج المتصل للاتحاد الأوروبى لكى يسرع من دخول تركيا إليه. لكن الاتحاد يظل محتفظاً بهواجسه حول مدى توافق تركيا مع أوروبا، ومتخوفاً من التعداد السكانى الكبير الذى يمكن أن يغرق أوروبا بالمزيد من العمالة المهاجرة، يعترف الاتحاد الأوروبى بما للولايات المتحدة من مصالح استراتيجية أساسية ويعطى اهتماماً هامشياً لانعكاسات اقتصادية أو سياسية تركية على الاتحاد الأوروبى نفسه. كما يبدى الاتحاد الأوروبى قلقاً مضافاً إزاء «استيراد» المشاكل الاستراتيجية على الحدود التركية المشتركة مع جيران غير مستقرين مثل إيران، العراق، سوريا وجيران تركيا فى القوقاز.

ويعطى الاتحاد الأوروبى أيضاً اهتماماً بجهود أمريكية محتملة من شأنها محاولة تخريب الاتحاد الأوروبى ومنعه من التحول إلى منافس لسيطرة القوة الأمريكية. وفى هذا السياق يرى الاتحاد أن إصرار الولايات المتحدة على إضافة دول كثيرة من الشرق، بما فى ذلك تركيا، إنما يهدف إلى إضعاف التجانس الثقافى للاتحاد الأوروبى.

ورغم صعوبة تضارب عضوية تركيا، أو اى دولة أخرى، مع علاقات متزامنة وقوية مع الولايات المتحدة، فإن التنافس بين واشنطن وبروكسل يتطلب من تركيا أن تمارس بعض اختيارات صعبة. وقد بدأت تظهر بالفعل بوادر انقسام داخل صفوة صانعى القرار السياسى التركى بين أصحاب الميول الأمريكية وأصحاب الميول الأوروبية. أصحاب الميول الأمريكية يأملون العون من الصفوة القديمة، من الجيش وارتباطاته مع واشنطن التى تعود إلى فترة الحرب الباردة، وهؤلاء الذين يعتقدون أن الولايات المتحدة ستكون أقل مطالبة للإصلاحات الداخلية التركية، وخاصة تلك التى تتطلب تبنى المطالب العرقية للأقلية الكردية. وكلما زاد احتضان الجماعات الأوروبية التوجه، للقوى الاشتراكية و«أو» أصحاب التوجهات المناهضة للإمبريالية: جيل الشباب الأكثر تعرضاً ومعايشة لأوروبا، وخاصة من ملايين العائلات التركية التى عملت فى، أو هاجرت إلى، ألمانيا. هؤلاء الذين جذبهم المشروع الأوروبى، وهؤلاء أقل تخوفاً من التهديد الروسى القديم لتركيا.

ورغم أن وضع تركيا الجيو/ سياسى لا يزال يشجع على احتفاظها بروابط استراتيجية مع الولايات المتحدة، لكن روابطها الاقتصادية مع الاتحاد الأوروبى، ستنمو بشكل أقوى. مدى شدة المناظرة ما بين «الاختيارين» الأمريكى والأوروبى «داخل تركيا» يتوقف، على مدى حدة اختلاف المصالح الاستراتيجية الأمريكية الأوروبية خلال العقود الآتية. وفى اعتقادى أن العالم من المحتمل أن يشهد اختلافات تكتيكية، وربما استراتيجية، بين الولايات المتحدة وأوروبا، يكون طبيعياً إلى حد ما، بصرف النظر عن من يمسك بالسلطة السياسية فى واشنطن. كل الأطراف عليها الانتباه للتحولات الجارية فى هذه المنطقة والعمل على تقليص ما ينجم عنها من توترات.

ماض غير سعيد

تركيا جزء من الشرق الأوسط. وفهم العلاقة الاستراتيجية بين تركيا والإقليم يتطلب إدراك أن جوهر الأتاتوركية كان ربط تركيا بالغرب لتحويلها إلى دولة غربية متقدمة. ولأكثر من نصف قرن، فى ظل الحكم الأتاتوركى، تصرفت تركيا وكأن الشرق الأوسط لا وجود له. فهذا الإقليم يجسد الارتباط غير السعيد مع ماضى تركيا والذى فيه تبادل العرب والأتراك العدوانية. العرب بدافع اتساع السيطرة التركية على العالم العربى وسياسات الدولة الموالية للغرب. والأتراك بسبب «خيانة» العرب للإمبراطورية العثمانية الأولى. لم تكن تركيا الأتاتوركية راغبة فى ارتباط، ولو من بعيد، بالعالم العربى أو الإسلام. ولفترة طويلة كانت وزارة الخارجية التركية تتفاخر بأنها لا تدرب كوادرها على العمل الدبلوماسى فى العالم

إن تركيا العلمانية هى أول دولة فى تاريخ العالم الإسلامى تنتخب بحرية حزباً إسلامياً للسلطة الوطنية. هذه الحقيقة مذهلة. لقد كان على الجيش التركى، الحارس القديم اليقظ لأى تأثير للدين على الحكومة، أن يرضى بالحقيقة

العربى. أضف إلى ذلك أن جغرافية تركيا لعبت دوراً محورياً فى دعم النوايا السيئة بين تركيا وجيرانها العرب فى الشرق والجنوب. لقد هددت روسيا وحدة الأراضى التركية لأكثر من ٥٠٠ عام، وكانت لاعباً رئيسياً فى تفكيك الإمبراطورية العثمانية. وفيما بعد، خلال الانبعاثة السوفيتية، عادت روسيا تهدد بجدية استقلال وسيادة أراضى تركيا. على الجانب الآخر، كان العديد من الدول العربية فى حالة غضب إزاء الغرب صاحب الماضى الاستعمارى والإمبراطورى فى الشرق الأوسط، والذى أوجد أيضاً دولة إسرائيل على أرض عربية. وكان التوجه إلى الاتحاد السوفيتى كقوة مناهضة لسيطرة القوة الغربية. على صعيد الأرض والحدود لم يكن هناك ما يدعو العرب إلى التخوف من مطامع روسية لأن الاتحاد السوفيتى ليس متاخماً. الوضع بالنسبة لتركيا كان مختلفاً.

فيما بعد الحقبة السوفيتية شعرت تركيا بأنها مجبرة على مخاطبة جيرانها العرب بما يتجاوز برودة الموقف الدفاعى. والحقيقة أن تركيا أصبحت فى السبعينيات وخلال سنوات الطفرة النفطية ناشطة اقتصادياً، فى البداية، وفى دول مثل السعودية وليبيا. بعد الثورة الإيرانية، عام ١٩٧٩، تحول الإسلام الإقليمى إلى اتجاهات راديكالية وشعرت تركيا بأنها تواجه تهديدات من إيران، العراق، وسوريا، تبنت إيران تصوير الثورة الإسلامية، بينما اصطدمت سوريا مع تركيا حول قضايا تقاسم مياه نهر الفرات وساعدت فى تحريض أكراد تركيا على التمرد (وهذا ما فعله العراق أيضاً فى عدة مناسبات رغم تعاون بغداد وأنقرة لسحق أكراد العراق فى مناسبات متفرقة)، قادت هذه الحقائق تركيا إلى زيادة اقترابها من إسرائيل خلال الـ ٢٠ عاماً الماضية ووصلت العلاقات بين البلدين إلى الذروة فى منتصف التسعينيات. وحدت تل أبيب وأنقرة من قدراتها الاستراتيجية لاعتصار إيران، العراق، وسوريا، فى محاولة لتغيير المواقف العدائية.

هذا الوضع يتغير الآن إقليمياً. ومنذ سنوات مضت أخذت سوريا تغير من استراتيجيتها إزاء تركيا، وطردت من أراضيها وتحت ضغط تركى زعيم حزب العمال الكردستانى، الحركة الانفصالية المؤمنة بالعنف الثورى فى تركيا، وهو الطرد الذى أدى إلى اعتقاله. بالإضافة إلى تعرض سوريا لضغوط للإصلاح والتخفيف من دعمها للراديكاليين فى الإقليم. أما صدام حسين العدائى فقد ذهب الآن (رغم ما تفرضه الحالة العراقية من تهديدات جديدة ناجمة عن عدم الاستقرار الداخلى واحتمالات حرب أهلية تخشى تركيا أن تؤدى إلى انفصال كردى -

توصلت واشنطن - بنجاح تام - إلى علاقات متبادلة مع حكم حزب العدالة والتقدم، مبرهنة أن حزباً إسلامياً واحداً، على الأقل، في العالم، يمكن أن يكون الشريك الممكن الذي يقود إلى الاستقرار في الإقليم

عراقي يشجع على انفصال كردي - تركي). وتبقى إيران التي تشهد تصاعداً في البراجماتية السياسية واتخذت خطوات عرجاء لكنها مهمة، في اتجاه العملية الديمقراطية رغم عمق ما يعيبها.

وفي الوقت الذي تلاشت فيه مخاطر التهديدات من إيران، سوريا، العراق، حققت تركيا تفوقاً في القدرات العسكرية والاستراتيجية يكفل لها احتواء أي تهديد عسكري محتمل.

واللافت للنظر أن النجاح المتعلق بالدور الأمريكي، المباشر أو غير المباشر، في التقليل من التهديدات الاستراتيجية لكل دولة من الدول الثلاث الشرق أوسطية، هو ذاته الذي يغير من حسابات الاعتماد التركي السابق على الولايات المتحدة لضمان حماية استراتيجية في المنطقة. تركيا تتحرك بثقة في اتجاه تحسين علاقاتها مع الدول الثلاث معمقة محاور ثنائية ومطورة مصالح اقتصادية تتجاوز، بكثير، اهتماماتها الدفاعية الخاصة. وبعد علاقات بلغت الذروة في منتصف التسعينيات بدأت روابط تركيا مع إسرائيل رحلة الاضمحلال. سوف تستمر تركيا في سعيها وراء التكنولوجيا العسكرية التي لا تتوافر إلا في إسرائيل، وتستمر في تجيير التأثير القوي للوبي الإسرائيلي، داخل الكونجرس الأمريكي، لخدمتها كوسيط مع الإدارة الأمريكية. لكن استراتيجية «الأوامر الواجبة» لم تعد قائمة. كما أن ضعف العلاقات التركية - الإسرائيلية يعود أيضاً إلى التعاطف الإسلامي المتنامي لحزب العدالة والتقدم، وكذلك تعاطف الرأي العام التركي، مع الفلسطينيين ضد السياسات التعسفية لليكود الحاكم في إسرائيل. ولدى تركيا الآن أسبابها الوجيهة كي تسعى إلى علاقات مستقلة مع العديد من دول الجوار الإسلامي التي قد تختلف معها في درجة التحول السياسي لكنها لم تعد من الأعداء. وفي المقابل، فإن هذه الدول ذاتها ترى تركيا قدوة خيرة وهي تقدم براهين إعادة اكتشاف جذورها الإسلامية وتمارس المزيد من الاستقلالية عن واشنطن. العرب، على وجه الدقة، يجلسون ويسجلون الملاحظات عن تركيا الديمقراطية التي تستطيع أن تقول لا لواشنطن بشأن مساعدة غزو الولايات المتحدة للعراق، أمر لم يجرؤ على فعله طغاة الحكام العرب.

وباختصار، فإن تركيا تحولت نحو مزيد من الاستقلال عن واشنطن، تحسين روابطها مع جيرانها العرب والإيرانيين، روابط جيدة مع روسيا، ومزيد من الاعتراف المعلن بماضيها الإسلامي وكل ذلك يخدم في جعل تركيا جزءاً من الشرق الأوسط أكبر مما كانت عليه من قبل. وتحظى هذه الصورة التركية بتعاطف أكبر بين الدول الإسلامية التي تنظر إلى إنجازاتها الداخلية بتعاطف واحترام كبيرين، وهذا يسهل أن تصبح تركيا النموذج الإقليمي الذي ما كان ليتحقق عندما كانت متورطة بعمق مع الناتو ومناطحة استراتيجية مع العالم العربي وقت أن لجأ إلى دعم موسكو.

المسألة الكردية

تأثرت العلاقات ما بين تركيا وكل من إيران، العراق، وسوريا، باختلاف الاهتمامات العقائدية ومتطلبات الحرب



الباردة، لكن تأثير القضية الكردية على هذه العلاقات كان أقوى وأوضح. لدى تركيا تعداد سكاني من الأكراد يفوق تعدادهم السكاني في أي دولة أخرى في الإقليم.

وخلال الثمانينيات والتسعينيات زادت المخاوف التركية الدائمة من انفصال كردي داخل الدولة، وخاصة بعد أن قادت سياساتها «الخام» إزاء الأكراد داخل الدولة إلى خلق حركة انفصالية مسلحة. وقد تشكلت سياسات تركيا تجاه إيران، سوريا، والعراق على وجه الخصوص، تبعاً لـ «حالة» المشكلة الكردية داخل تركيا. أضف إلى ذلك أن كل دولة أرادت زعزعة استقرار، أو إضعاف تركيا، لعبت الورقة الكردية في مواجهة تركيا، (بريطانيا، روسيا، أمريكا، اليونان، العراق، إيران، سوريا) ويمكن القول - ببساطة - إن شعور دياربكر، العاصمة غير الرسمية لأكراد تركيا، بعدم السعادة يمثل تهديداً مستمراً لاستقرار تركيا وسط أجواء بالغة الحساسية إزاء المناورات الخارجية من الأعداء. احتواء دياربكر، في اندماج سعيد للأكراد مع تركيا، والتمتع بمزايا كثيرة للدولة، صورة تقلب ديناميكية المعادلة: كردستان التركية. هذا السيناريو يشكل تهديداً للدول الثلاث الأخرى الأقل احتواء للأقليات التركية. هذا السيناريو يجعل من تركيا القوة الجاذبة لكل الأكراد داخل إطار من التقدم والتعددية الثقافية والحياة الديمقراطية المرتبطة بأوروبا، الدول الأخرى. في السيناريو نفسه، تصبح تحت ضغط: أي أن تقدم لأكرادها ما تستطيع تركيا أن تقدمه أو تتصاعد الروح الانفصالية بين سكانها الأكراد.

وخلال السنوات الخمس الماضية بدأت تركيا الاعتراف بما لهذه الرؤية. السيناريو من حكمة، واتخذت خطوات معتبرة، وإن لم تكن كافية، في اتجاه الاستجابة للرغبات الكردية في أمن ثقافي، حكم ذاتي، حقوق لغوية، واعتراف بهوية للأكراد كشعب منفصل. وتبدو المشكلة في طريقها إلى حل في الاتجاه الصحيح وتخطي الخطوات بتشجيع من الاتحاد الأوروبي باعتبارها تصب ضمن الإصلاحات المطلوبة في المنطقة.

الدور الأمريكي

إذا استمرت سياسات واشنطن محكومة برغبة الإبقاء على تركيا داخل المعسكر الأمريكي كي تستجيب - بالكامل - لأهداف السياسة الأمريكية في الإقليم فإن التوتر الأمريكي - التركي سوف يزداد حدة. إن تركيا تنمو بعقلية أكثر استقلالية وأقل عشقاً وافتتاناً بواشنطن. واحتياجها لنظام «جنمان أمن» هو احتياج تضاءل مع تلاشي «أعداء» الجوار أو تهديداتهم التي لا يمكن أن تمس أمن أنقرة طالما بقيت تركيا مستقرة داخلياً.

يجب على واشنطن إدراك أن تركيا مؤهلة اليوم لأداء دور متزايد القوة في الشرق الأوسط ولكن عبر أطر صممت لخدمة المصالح الوطنية القومية التركية. ومن المرجح أن تكون أنقرة أقل استجابة لاحتياجات واشنطن داخل الإقليم. ولدى تركيا إمكانية تحقيق مزيد من التقدم في الاتجاه الذي تسير إليه الآن مع جيرانها وإدارة صيغ لإسلام سياسي من شأنها أن تسهم في استقرار الإقليم على المدى البعيد. وقد تصطدم تركيا، صاحبة القرار المستقل، بخلاف «دوري» مع الولايات المتحدة، لكنه لن يكون مدمراً. وكلما زاد تمسك واشنطن بسياسات السيطرة كلما زاد التوتر وزاد احتمال أن تجد تركيا نفسها أكثر تعاطفاً مع اتحاد أوروبي يقود - أيضاً - إلى الاستقلال الاستراتيجي.

ومن بين كل دول الإقليم العريض، من البلقان الجنوبي، إلى الشرق الأوسط، إلى القوقاز، تحقق تركيا تقدماً كبيراً وتطور، بعناية أكبر، وعلى نحو أكثر عمقاً، ديمقراطيتها الصاعدة. تحسن علاقاتها مع الجيران، تطور اقتصادها، وتتعامل مع الإسلام السياسي. تركيا هذه المستقلة القرار، الجديدة، تتحرك في اتجاه حل القضايا التقليدية الإسلامية والتركية بعيداً عن الرؤية القديمة المبتذلة لدولة علمانية مؤيدة للولايات المتحدة. تركيا هذه في طريقها لكي تصبح المثال - النموذج - الأصيل للعالم الإسلامي.

تتغير المصالح القومية التركية لكي تقوى من روابطها الإقليمية وروابطها مع الاتحاد الأوروبي وتخفف من مركزية الدور الأمريكي. هذه النزعات ليست مقصورة على تركيا، على الإطلاق لكنها تعكس التحولات الاستراتيجية الضخمة المهمة على مستوى الكرة الأرضية منذ نهاية عصر الحرب الباردة. لكن عشق الولايات المتحدة للسيطرة العالمية أوجد معادله الطبيعي في أكبر دولة مستقلة القرار كانت ذات يوم دولة حليفة. سوف تزدهر العلاقات التركية الأمريكية، وسوف تسهم تركيا في تحقيق استقرار الإقليم ككل إذا لم تحاول الولايات المتحدة صيانة النموذج القديم للحليف «الذي تعتمد عليه، بدلاً من السماح له بتطوير علاقاته الإقليمية المستقلة الخاصة.■

مصـــــر.. والســـودان.. والقــرن الأفــريقى

حســــــــن مكـــــــى

■ ■أما مصر فلا نعنى بها فقط مصر المعاصرة بحدودها المعروفة والتى لا تتجاوز الأربعمائة ألف ميل مربع، لأن هذا اختزال لمصر فى الجغرافيا واختزال لمصر فى التاريخ إذ ظلت مصر مركز الإشعاع الحضارى فى العالم القديم كما أن شخصية مصر، ومصالح مصر، وحدود مصر ظلت متحركة عبر التاريخ، وارتبطت مصر بالقرن الأفريقى منذ أيام الفراعنة، لأن القرن الأفريقى كان يعنى المجال الحيوى لمصر، لأن القرن الأفريقى هو البحر الأحمر، والمحيط الهندى، وحوض النيل.

ولكن ما هو تعريف القرن الأفريقى؟ القرن الأفريقى هو تلك الرقعة من الأرض التى تمدد فيها الصوماليون، فهى بذلك تعنى جمهورية الصومال وجيبوتى وأثيوبيا وكينيا وإريتريا، ولكن الناظر لهذه المنطقة يجدها ترتكز على السودان، وتتداخل مع السودان من الناحية الطبيعية بمنات الأنهار وآلاف الخيران بالإضافة إلى وجود القبائل المشتركة والتداخل السكانى، وبذلك يدخل السودان فى القرن الأفريقى.

ودخول السودان فى القرن الأفريقى يجذب معه مصر، لأن السودان هو الجزء الجنوبى فى وادى النيل الذى تشكل مصر جزءه الشمالى، وظل السودان منذ فجر التاريخ يمثل العمق الاستراتيجى لمصر لأن السودان يعنى، منابع النيل ويعنى الرجال الأشداء والأرض، وظلت مصر منذ فجر التاريخ منفذ السودان للخارج عن طريق مصر والبحر الأحمر تكاملت حركة الحياة بما فيها من تجارة وثقافة، وجيوش ولحظات سراء وضراء، وقد برز السودان كمجال حيوى لمصر، بعد حرب يونيو ١٩٦٧م، حيث كانت الخرطوم المركز الثانى بعد القاهرة، الذى رد لعبد الناصر اعتباره. فإن كانت الجماهير المصرية، هى التى ردت ثقة عبد الناصر بنفسه وشعبه بعد حادثة الاستقالة، فإن الخرطوم التى خرجت لاستقباله هاتفة (نحن نناصر عبد الناصر) فى مؤتمر اللاءات الثلاث، هى التى مكنت مصر من إعادة بناء قواتها المسلحة وسهلت مهمة إخراج الجيش المصرى من اليمن ووفرت الدعم العربى الذى مكن من الصمود الاقتصادى، كما أصبحت الخرطوم أرض السلامة بالنسبة للطيران المصرى وقاعدة ناصر العسكرية.

يمكن القول بأن دور مصر فى منطقة القرن الأفريقى جدده محمد على باعث مصر الحديثة والذى نجح فى سياساته الرامية للتوفيق بين مصر الدولة ومصر الطبيعة، لأن مصر الطبيعة هى حوض النيل، وفى عهد إسماعيل باشا امتدت الحدود المصرية لتضع يدها على منبع النيل الأبيض، بحيرة فكتوريا والتى هى أكبر مسطح مائى عذب على وجه الكرة الأرضية وكذلك دخل المصريون الأطراف الشرقية من أثيوبيا عام ١٨٧٥م وتمركزوا فى هرر وحينها كانت هرر مدينة إسلامية لذا رحبت بالمصريين وإسلامية هرر فى التاريخ ثابتة وحين دخلها المستشرق البريطانى ريتشارد بيرتون لم يجد فيها مسيحياً واحداً وأصبح الأسطول المصرى بعد شق قناة السويس فى ١٨٦٩م سيداً فى البحر الأحمر وأصبحت موانى البحر الأحمر مثل سواكن وباضع مصوع ثغورا مصرية وحتى اسم السودان لم يعرفه السودان الحالى، إلا بعد أن سماه بذلك الخديوى إسماعيل فى أحد فرماناته وإلا فإن السودان كان يعرف بممالكه وهى السلطنة الزرقاء أو سنار ودارفور وتقلى والمسبعات.

وتراجع الدور المصرى فى منطقة القرن الأفريقى فى القرن التاسع عشر، نتيجة للاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢م ومثل هذا الاحتلال كارثة على الدور الإقليمى لمصر حيث دعمت بريطانيا وفرنسا وروسيا منليك الثانى الذى نجح فى إنهاء الدور المصرى فى هرر عام ١٨٨٦م، حيث أباد الحامية المصرية ودمر مسجد هرر الكبير وبنى مكانه كنيسة هرر التى ما تزال شاخصة وجاءت الطامة الثانية بالنسبة للمصالح المصرية، ممثلة فى

بوجود إسرائيل فى ميناء إيلات، والــــــذى يعطيهــــــا ٥,٣ ميـــــل على البحر الأحمر، تجد نفسها فى منظومة دول البحـــر الأحمـــر وتـــريد أن تدخــل نـــادى البحر الأحمر كقوة إقليمية مهابة

سياسات إخلاء السودان، التى قام بتنفيذها جارلس غردون، مما أدى إلى اشتداد لهيب الثورة المهدية والتى مثلت مصيبة على مصالح مصر، لأنها أدت إلى الانسحاب من حدود مصر الطبيعية، شاملة الانسحاب من بحيرة فكتوريا والبحيرات وهرر ومصر ولم يبق إلا سواكن والبحر الأحمر شكلاً تحت اسم مصر ولكن فعلاً وروحاً تحت الإدارة العسكرية الإنجليزية.

لم يؤد قيام إسرائيل إلى إضعاف دور مصر فقط فى فلسطين ومنطقة الشام وإنما كذلك إلى غل يدها فى البحر الأحمر، وحروب إسرائيل الثلاثة (٥٦ ، ٦٧ ، ٧٣) إنما كانت من أجل فتح البحر الأحمر للملاحة والتجارة والهيمنة الإسرائيلية، وبما أن دول القرن الأفريقى تمتد على ساحل البحر الأحمر (السودان وإريتريا . أثيوبيا سابقاً) والصومال وكينيا وجيبوتى امتداد طبيعى على المحيط الهندى، لذا نظرت إليها إسرائيل وسعت إسرائيل للاستفادة من الأساطير المؤسسة للعقل الأثيوبى القائلة بتحدر الأسرة الأثيوبية الحاكمة من صلب يهوذا .أى سيدنا سليمان (زواج بلقيس والتى فى المصادر الأثيوبية هى مكادا من نبى الله سليمان وإنجاب أول ملوك أثيوبيا منليك الأول).

وبدأت الاتصالات الأولية فى بداية الخمسينيات، ومع بروز الثورة المصرية ودوائر عبد الناصر الثلاث (دائرة عربية ودائرة إسلامية ودائرة أفريقية) وفى إطار الدائرة الأفريقية حدث التصادم ما بين المد القومى المصرى العروبى بطابعه الإسلامى والمد الإسرائيلى الصهيونى، والمعروف أن الضابط البريطانى اليهودى أوردى وينجت Orde Wingate والذى أسس قوة الدفاع الإسرائيلى هو ذاته الذى قاد فى ١٩٤١م معارك الغوريلا ضد الإيطاليين فى أثيوبيا لإعادة تنصيب الإمبراطور هيلاسلاسى فى عرشه ودحر الفاشيين.

مكنت هذه الروابط من التأسيس لعلاقة مع نظام الإمبراطور هيلاسلاسى فيما بعد قيام إسرائيل وأصبحت أثيوبيا مهمة فى جدول الأعمال الإسرائيلى، لأن لأثيوبيا امتداداً على البحر الأحمر ولوجود قومية أثيوبية يهودية وكذلك تأسيساً لرؤية استراتيجية تكمن فى أهمية أثيوبيا كحاضنة لمنابع الإمداد المائى، بالإضافة إلى الطمع الإسرائيلى فى أن تصبح أثيوبيا عوناً وحليفاً فى كسر الحصار العربى حولها بأبعاده السياسية والعسكرية كما أن بناء أثيوبيا وازدهارها كان ينظر إليه فى الأعين الإسرائيلية كخطوة فى بناء الشرق الأوسط المتعدد، عليه يمكن قبول الترويج لفكرة الإقليم المتعدد الثقافات والهويات والذى يقبل فى عضويته غير العرب بدلاً من نفى وجودهم بدأ رئيس وزراء إسرائيل السابق ديفيد بن جوريون فى تشكيل استراتيجية شد الأطراف والتى على ضوئها، عملت إسرائيل فى تركيا وإيران وأثيوبيا، وأصبحت أثيوبيا فى هذه الاستراتيجية أرض ميعاد إسرائيلية نسبة لمركزيتها لأفريقيا ولدول حوض النيل.

لم تكن الثورة المصرية الواعية لدرس الوصاية الإنجليزية التى جردت مصر من نفوذها ودورها الإقليمى، غافلة عن أبعاد الصراع مع إسرائيل وأنه صراع شامل مجاله الأرض والتجارة والبحر الأحمر ودول حوض النيل وتمثلت الاستجابة بأن أمسك بالملف السودانى أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة وهو الصاغ صلاح سالم حتى يجادل الاستراتيجية الإنجليزية فى أمر تقرير مصير السودان، وأمسك الأستاذ محمد فائق بالملف الأفريقى والتى كانت أثيوبيا دائرة من دوائره، بينما تفرغ السيد كمال صلاح الدين لملف الصومال فى عام ١٩٥٤م، وكان كمال يشغل منصب مدير الشئون السياسية فى وزارة الخارجية المصرية وعمل فى إيران وتركيا والكنغو، ووصل المندوب المصرى الجديد لمجلس الوصاية الاستشارى فى عام ١٩٥٤ وقضى ثلاث سنوات فى الصومال ٥٤. ١٩٥٧م وأطلق عليه الرصاص القاتل فى أبريل ١٩٥٧م وقد اتهم المصريون حينها الحكومة الأثيوبية بتدبير الحادث، ولكن مثل ذلك تبسيطاً للمسألة، لأن العقل الذى يدبر المسألة الصومالية أكبر من أثيوبيا، حيث كانت تتصارع الإرادتان الإيطالية والبريطانية وكان كلاهما يخشى دور مصر وعبد الناصر من وراء إيطاليا وبريطانيا وإسرائيل.

وقد استعاض الشهيد عن دور مصر السابق القائم على التمرد العسكرى فى القرن الأفريقى برؤية فكرية ثقافية سياسية قامت على ركيزتين هما:

• توحيد الحركة السياسية الصومالية فى شمال وجنوب الصومال حتى يتحرر الصومال من النفوذين الإيطالى والبريطانى ويبرز كيان وحدوى صومالى فى تلك المنطقة الحساسة من القرن الأفريقى.

• تأسيس حركة تعليم مستندة إلى الحرف العربى فى ربوع الصومال جنوباً وشمالاً، مما أدى إلى قيام بعثة تعليمية مصرية نشطة فى مقديشو وهرجيسا، ضمت خمس مدارس ثانوية وخمسة معاهد دينية بالإضافة إلى مركزين ثقافيين وبدأت نواة البعثة فى عام ٥٥/ ١٩٥٦م بـ ٢٥ مدرساً مصرياً ثم وصلت فى عام ٥٨/ ١٩٥٩م إلى ٧٢ مدرساً وبلغت أوجها فى عام ١٩٨٠م حيث أصبح هناك ٢٥٣ مدرساً ينتمون للبعثة التعليمية المصرية والأزهرية وأدت البذرة التى بذرها كمال صلاح الدين لإعلان انضمام الصومال للجامعة العربية لاحقاً فى فبراير ١٩٧٤م.

ولكن يا حسرتاه تبددت تلك الجهود مع أحداث الصومال الدامية التى أدت لتفكك الصومال والحرب الأهلية وإنهاء الدور الحضارى لمصر فيه وكان للأيادى الإسرائيلية دور كبير سيكشفه التاريخ.

إســـرائيل عـــلى الخـــط!



وبعد انهيار نظام سياد برى، سعت مصر لإعادة بناء الدولة الصومالية وارتطم ذلك بأثيوبيا التى لا تريد دوراً عربياً يعزلها عن التسوية فى الصومال، لأن الصومال الموحد قد تستهويه عقيدة الصومال الكبير، الذى يصبح مهدداً لأمن المنطقة، بأحلام استعادة الأوجادين من أثيوبيا والمنطقة الشمالية الشرقية من كينيا.

فشلت كل محاولات إعادة بناء الدولة الصومالية، لأن الإدارة الدولية الغالبة، لا تريد بروز دولة صومالية فى الظرف الحاضر، ولذلك ورغم حضور الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى وجامعة الدول العربية والاتحاد الأفريقى، لمؤتمر جيبوتى بين القوى والقبائل الصومالية والذى استمر لمدة ثلاثة أشهر وبرزت عنه حكومة شرعية هى حكومة الرئيس عبد السلام صلاد الحالية، إلا أن المجتمع الدولى أحجم عن دعم هذه الحكومة كما سعت أثيوبيا لتقويضها من الداخل وانتهى الوضع إلى أن يصبح تأثير الحكومة الحالية أضعف من تأثير بعض الفصائل ويكفى أن حرس الرئيس قام باحتجازه لعجزه عن دفع مرتباتهم.

مصر وإسرائيل والثورة الأثيوبية:

سعت إسرائيل للاستثمار فى أثيوبيا التى امتنعت عن التصويت على قرار التقسيم الصادر من الأمم المتحدة فى ١٩٤٨م ولكنها أقامت علاقات دبلوماسية مع إسرائيل بعد ١٤ عاماً من إعلان تأسيسها، وأرسلت إسرائيل فى الستينيات من القرن المنصرم أفضل خبرائها فى الأمن والتعليم والاتصالات والزراعة والصحة والتخطيط الاقتصادى لأثيوبيا. وأصبحت السفارة الإسرائيلية فى أثيوبيا الأكبر فى العالم بعد السفارة الإسرائيلية فى أمريكا. وفى عام ١٩٥٩م قطعت الكنيسة القبطية الأثيوبية علاقاتها المؤسسية كفرع من كرسى الإسكندرية وفى عام ١٩٦٩م، منحت إسرائيل الكهنة الأثيوبيين مفاتيح دير السلطان فى القدس، والذى ظلت تديره الكنيسة القبطية المصرية منذ عام ١٨٣٤م. ولكن اضطرت أثيوبيا بعد حرب أكتوبر المجيدة فى عام ١٩٧٣م، لقطع علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل، تماشياً مع المد الأفريقى الذى انحاز لمصر ولكن هناك من الأدلة ما يشير إلى أن هيلاسلاسى حينما قطع علاقاته مع إسرائيل، كان يتوهم أن تتفهم إسرائيل ذلك بطريقة أخوية وتقدر ظروف أثيوبيا.

ولكن بعد عدة أشهر من قطع العلاقات، أطلت نذر الثورة الأثيوبية، فى وقت تغلغلت فيه القدرات الإسرائيلية فى كل قطاعات الدولة الأثيوبية، حيث استقر الخبراء الإسرائيليون فى كل الأجهزة الحساسة. واستلم الجيش

الاثيوبى بقيادة منجستو عمليًا وتحت واجهة رئيس الدولة أمان عندوم الإريترى الأصل السلطة ابتداء من عام ١٩٧٤م.

ما ان استقرت الامور وتم القضاء على هيلاسلاسى الذى اغتيل ودفن فى مرحاض فى قصره، حتى انتهت الأمور إلى منجستو بعد اغتيال امان عندوم وفى عام ١٩٧٥م. قام منجستو - لم يصبح بعد رئيس دولة، بإعادة استدعاء الخبراء الإسرائيليين مصرًا على أن يعود وزن إسرائيل إلى ما كان عليه قبل حرب أكتوبر المجيدة. وارسلت إسرائيل ١٢ خبيرًا لإعادة بناء الجيش الأثيوبى، مما مكن الجيش من الصمود فى وجه هجمة الثوار الإريتريين من الغرب والجيش الصومالى من الشرق فى عام ٧٧/١٩٧٨م. فى وقت كذلك أخذ السوفييت يزداد نفوذهم فى اثيوبيا.

وفى عام ١٩٧٩م طفت أحداث الحرب الإيرانية/ العراقية، مما أدى إلى ميل ميزان المصالح الاستراتيجية عن القرن الإفريقى والصراع الأثيوبى مع اريتريا والصومال، كما أدى توقيع اتفاق كامب ديفيد عام ١٩٧٩م المعزز بفرض سلام مع العالم العربى إلى تخفيض قيمة اثيوبيا فى الميزان الإسرائيلى خصوصا أن اثيوبيا أصبحت حليفًا للاتحاد السوفيتى حليف العرب كما أصبحت أثيوبيا جزءًا من حلف عدن مما ادى إلى ان تصبح استراتيجية شد الاطراف ومواجهة مصر فى اثيوبيا والقرن الأفريقى غير ذات جدوى.

وبعد الإطاحة بنظام منجستو، ظلت إسرائيل تراقب الأوضاع فى القرن الأفريقى، ونجحت فى التسلل إلى دولة اريتريا الوليدة، علمًا بأنها كانت من الناحية الاستراتيجية ضد قيام دولة إريتريا، حيث نظرت إليها كنقوية للحزام العربى فى البحر الأحمر وقام الرئيس اسياس أفورقى بثلاث زيارات إلى إسرائيل، كما فتحت إسرائيل سفارة لها فى اسمرا، وإبان الحرب الإريترية/ الأثيوبية فى مايو ١٩٩٨م دعمت إسرائيل الطرفين وإن كان دعمها لاثيوبيا معلنًا ولإريتريا مغلفًا مما أدى إلى غضب اثيوبى غير معلن.

ولكن نجحت إسرائيل أخيرًا فى استدراج رئيس وزراء اثيوبيا مليس زناوى لزيارة إسرائيل فى بداية يونيو ٢٠٠٤م، ولمدة ثلاثة أيام ومثلت الزيارة اهمية استراتيجية كبرى لأنها اول زيارة يقوم بها مسئول أثيوبى رفيع إلى أثيوبيا. وسبقت زيارة الرئيس زناوى زيارة وزير الخارجية سيوم مسفين والذى زار القدس من قبل فى ديسمبر ٢٠٠٣م ورد عليها سيلفان شالوم وزير الخارجية الإسرائيلى بزيارة أديس أبابا فى يناير ٢٠٠٤م على رأس وفد من رجال الأعمال الإسرائيلى مؤلفًا من ٢٢ شخصًا وتأتى زيارة الرئيس زناوى متوافقة مع اجتماع دول حوض النيل فى يوغندا للنظر فى إعادة خصخصة حصص جديدة وحقوق مائية جديدة لكل دول الحوض بالغاء اتفاقية عام ١٩٢٩م. وورد فى كلمة الرئيس زناوى امام موشيه كاتساف الرئيس الإسرائيلى بأنه لم يحضر إلى إسرائيل - لمجرد طلب تعاون وثيق بين دولتى ودولتكم الواعدة ولكن لبناء اتفاقية تعاون وتآخ».

وكان من ردود زيارة الرئيس زناوى لإسرائيل أن قررت إريتريا بعد انصرام شهر عن زيارة الرئيس زناوى كشف علاقاتها مع إسرائيل وإعلان فتح سفارة لها فى إسرائيل علمًا بأن لإسرائيل سفارة فى أسمرا منذ عام ١٩٩١م.

أصابع إسرائيلية:

كانت إسرائيل متوجسة من مشروع الاتحاد بين مصر والسودان وسعت لاختراق النخب الحاكمة ممثلة فى جبهة الاستقلاليين، كما برز ذلك فى كتاب «أمراء الموساد»، وكذلك ما كشفت عنه الوثائق البريطانية من اتصالات برجال السياسة فى السودان، ولكن لم يثمر التوجه الصهيونى فى السودان، شمالاً إلا فى حقبة الرئيس جعفر نميرى، حينما بارك السودان اتفاقية كامب ديفيد فى ١٩٧٨ وجنوبًا حينما دخلت فى علاقات تحالفية مع قيادة حركة التمرد فى الجنوب المعروفة بأنانيا ابتداء من الستينيات، حيث كشف طرفًا من ذلك أحد قادة أنانيا فى مذكراته وهو سيفريانو فولى فى كتابه «تشكيل جنوب السودان حر» انه تم تعيينه سكرتيرًا إداريًا فى يوليو ١٩٦٣ إلى حين اعتقاله فى يوغندا أكتوبر ١٩٦٣. وأن جوزيف أدهو قام بتقديمه إلى السفارات الصديقة فى كمبالا، وعلى رأسها السفارة الإسرائيلية وأصبح حلقة الوصل الأساسية مع إسرائيل وأنه تابع هذا الدور كذلك فى دورة أخرى جادين ١٩٦٤ - ١٩٦٥، وتابع الاتصالات بإسرائيل عبر مسئول الأنانيا المهندس سيرافينو وانى سواكا، وفى عهده تمت زيارة كل من أهرى جادين وغوردون مورتات وجوزيف لاقو لإسرائيل، حيث تم تنصيب جوزيف لاقو مسئولاً عن التنسيق مع إسرائيل فيما يختص بالتدريب والتسليح كما تم إعداد مطار أوبيخ فى بول وأرسلت إسرائيل أعضاء من قواتها المسلحة للإشراف على إسقاط السلاح وإرسال ضباط الأنانيا للخارج للتدريب.

وحينما قامت حكومة الرئيس ملتون أبوتى رئيس يوغندا السابق بالتضييق على حركة التمرد وكذلك اعتقال وتسليم المرتزق الألمانى الشهير إشتاينر لحكومة الرئيس جعفر نميرى والتى قامت بمحاكمته لدوره فى حرب جنوب السودان وسجنه مدى الحياة، قامت المخابرات الإسرائيلية بتنسيق الإطاحة بالرئيس أبوتى والذى كان يحضر اجتماعات رؤساء دول الكمنولث فى سنغافورا فى ٥ يناير ١٩٧١، وظهر الملحق العسكرى الإسرائيلى بارليف فى يوم الانقلاب، يجوب كمبالا مع الرئيس عيدى أمين الذى ذهب فى اكثر من دورة تدريبية عسكرية إلى إسرائيل ولكن لم يدم شهر العسل طويلاً حيث انقلب الرئيس عيدى أمين بعد أقل من سنة على إسرائيل وتم إغلاق السفارة الإسرائيلية فى يوغندا وانتقل التنسيق مع حركة التمرد إلى سفارتى نيروبى وأديس أبابا.

وسعت إسرائيل لتعويق إكمال التوقيع على اتفاقية أديس أبابا ولكن تدخل الإمبراطور هيلاسلاسى محذرًا السفير الإسرائيلى، من أنه إذا قامت إسرائيل بتعويق مسار المفاوضات، فإن ذلك سيضر بالعلاقات الأثيوبية - الإسرائيلية ولم يكن أمام إسرائيل إلا الحفاظ على علاقاتها مع أثيوبيا والانسحاب التكتيكى من جنوب السودان.

تهجير الفلاشا:

وركزت إسرائيل جهودها فى الفترة التالية لاتفاقية أديس أبابا للسلام، على مشروع تهجير الفلاشا إلى إسرائيل على الأخص بعد إنهاء الجيش الأثيوبى فى عام ١٩٧٤ لوضع الإمبراطور هيلاسلاسى وقيام النظام العسكرى الجمهورى.

وأحست إسرائيل بعد حرب أكتوبر مع مصر فى ١٩٧٣، أنها إذا أرادت تأمين بقائها فلابد لها من زيادة طاقتها البشرية زيادة تمكنها من مواجهة النمو السكانى الفلسطينى والعربى، فى وقت برزت فيه الهجرة المضادة بالنزوح من إسرائيل.

ومع بروز الثورة الأثيوبية، أحيت إسرائيل مشروع تهجير الفلاشا والذى كان مبثوثًا فى الأوراق والسجلات منذ أيام اللورد كرومر المندوب السامى البريطانى فى مصر.

وجرت العملية الكبرى بعد موافقة الكونجرس الأمريكى على تمويل مشروع تهجير الفلاشا فى سبتمبر ١٩٨٤م وفى شهر نوفمبر ١٩٨٤ بدأت المخابرات الإسرائيلية بالتعاون مع المخابرات الأمريكية والسودانية عمليتى «موسى» و«سبأ» الشهيرتين فى وقت طغت فى وسائل الإعلام قضايا تطبيق الشريعة الإسلامية فى السودان وإعدام محمود محمد طه وتلى ذلك تطورات داخلية أدت إلى الإطاحة بنظام الرئيس جعفر نميرى.

ولم ينقطع سعى إسرائيل إلى التغلغل فى الشأن السودانى عبر البوابتين الشمالية والجنوبية ولكن لماذا أرادت إسرائيل أن تجد لها موطئ قدم فى السودان؟ وما هى أهداف إسرائيل فى السودان؟ وأين وصلت إسرائيل من أهدافها؟

يمكن تلخيص ذلك، فى أن إسرائيل قسمت الدول المحيطة بها إلى دول طوق ودول محيط، أما دول الطوق فهى مصر وسوريا والأردن ولبنان، وقد تمكنت تمامًا من كسر الطوق، حيث تتمتع بعلاقات مباشرة مع مصر والأردن، كما لها جسور مع لبنان، كما أنها بوجودها فى الجولان، تسعى لضغط علاقاتها مع سوريا.

أما عن دول المحيط، فهى، تركيا وإيران والعراق وأثيوبيا والسودان والسعودية وليبيا، وبالنسبة لأثيوبيا فهناك وجود دبلوماسى وأمنى إسرائيلى وعلاقاتها متطورة مع إسرائيل مما مكنها من تنفيذ برنامجها تجاه الفلاشا وكذلك التنسيق فيما يتعلق بالسياسات المائية لحوض النيل. وكذلك دخلت إسرائيل فى علاقات تحالف تكتيكية مع إريتريا مكنها من الإطلالة على البحر الأحمر والدول التى تستشرفه، كما نجحت فى استخدام إريتريا فى مخططاتها تجاه السودان.

وترغب إسرائيل فى إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع السودان، وعلى طريقة موريتانيا، نسبة لأن لإسرائيل طوقًا من السفارات الدبلوماسية شمالاً وجنوبًا، كمبالا، نيروبى، كنشاسا جنوبًا، وعمان والقاهرة شمالاً، وأديس وأسمرا شرقًا، فلماذا ليس الخرطوم.

كما أن إسرائيل بوجودها فى ميناء إيلات، التى تعطيها ٥,٣ ميل على البحر الأحمر، تجد نفسها فى منظومة دول البحر الأحمر وتريد أن تدخل نادى البحر الأحمر كقوة إقليمية مهابة، كما تنظر إلى السودان كسوق وكمدخل للسوق الإفريقى لأن مستقبل تجارة إسرائيل فى افريقيا حيث يمكن أن تمتد التجارة الإسرائيلية عبر السودان إلى مئات



الملايين من الأفارقة، كما أن أقرب أنبوب بترول لإسرائيل هو الأنبوب السوداني حيث لا يكاد يفصل ما بين إسرائيل وبورتسودان إلا مسافة لسان إيلات للبحر الأحمر. كما أن وجود إسرائيل في السودان يفتح إسرائيل على الشارعين الأفريقي والإسلامي.

كما تنظر إسرائيل إلى أن أكبر استثماراتها في المنطقة تمثل في المقاومة الجنوبية، التي غذتها بالمال والسلاح والتدريب والتسهيلات الدبلوماسية.

أثمرت الانطلاقة الإسرائيلية النشطة في أفريقيا في فتح أكثر من أربعين سفارة وقنصلية في القارة أي قرابة عدد السفارات السودانية في كل العالم. كما يجوب إفريقيا أكثر من خمسة آلاف خبير إسرائيلي يعملون في الزراعة والصناعة والأمن والتجارة ويرتبطون بمؤسسات العمل الطوعي والمدني حسب مقولة الرئيس السابق المؤسس بن جوريون: (إن الجهد الإسرائيلي لإضعاف الدول العربية، لا يجب أن يحشد على خطوط المواجهة بل الجماعات غير العربية التي تعيش على التخوم في شمال العراق وجنوب السودان وجبال لبنان) ومنذ الخمسينيات شكل بن جوريون فريق عمل من العقول الإسرائيلية لوضع الاستراتيجيات الملائمة وتحويل دول المحيط إلى عوامل قوة في الحسابات الإسرائيلية.

تفكيك السودان

في العقل الإسرائيلي:

تنظر إسرائيل إلى المجتمع السوداني كمجموعة عرقيات وأقليات بدون تاريخ موحد لذا سعت إلى اختراق قلب وعقل النخب بأوهام أن لكل أقلية أو عرق تاريخًا وشخصية على حدة واضعة في الاعتبار تهديد الصمت المصري، إذ السودان يعاقب ويحاصر لأنه عمق مصر وجنوب مصر ولم يقدم على ما أقدمت عليه مصر من تطبيع. لذا أخذ العقل الإسرائيلي يسعى بإصرار لتمكين الأقليات أو الأعراق الأفريقية من الشأن السوداني وتمليكه المزايا الاستراتيجية التي تهم إسرائيل كالممرات البحرية والمجالات الجوية وخطوط المواصلات والثروات المعدنية.

وقد نجحت إسرائيل في اختراق أجهزة الأمن في أثيوبيا وأوغندا وكينيا في مرحلة مبكرة حتى أصبحت جاهزة كمواقع للوثوب والانطلاق نحو السودان. كما تم إنشاء الواجهات الاستثمارية والخيرية والتجارية ومن أبرزها شركة «إينكودا» العاملة في مجال الثروة الحيوانية واللحوم وكان يديرها بن ناتان وهو أول من تولى إجراء اتصالات مع الزعماء الجنوبيين.

كما أقامت إسرائيل عدة قواعد جوية في المدن المحيطة بالسودان وجزر البحر الأحمر وحتى في تشاد حيث كانت تملك بحيرة إيرو ومطار الزاكومة ومطار مقور.

كما ورد سابقًا، فإن في المرحلة الأولى ركزت إسرائيل على تجنيد الاستوائيين من النخب وكذلك الذين خدموا في الجيش السوداني وبدأ تدفق المساعدات الإنسانية، أدوية وأغذية وأطباء ثم التدريب على فنون القتال في مراكز خاصة في أثيوبيا ووجدت إسرائيل في العناصر الكنسية والجمعيات الطوعية بنية جاهزة للاستخدام ومهيأة للثورة. وتمثل التغذية بالسلاح للتمويه في إرسال الأسلحة الروسية التي غنمتها إسرائيل من مصر والدول العربية في حروبها المختلفة وحينما تسلم أورى لوبراني منصب سفير إسرائيل في أوغندا (١٩٦٥ ـ ١٩٦٦م) ثم سفيراً لإسرائيل في أثيوبيا (١٩٦٧ ـ ١٩٧٢م) تطور هذا الدعم إلى حد انتقال ضباط وجنود من الوحدات الخاصة الإسرائيلية لتدريب المتمردين، كما برز تاجر الأسلحة الإسرائيلي جابي شفيق كوسيط بين شركات السلاح والاستخبارات الإسرائيلية والمتمردين كما قامت إسرائيل بإنشاء مدرسة لضباط المشاة في «ونجي ـ كابول» كما اشتركت عناصر إسرائيلية في بعض المعارك التكتيكية.

سجلت إسرائيل نجاحًا باهرًا في عدوانها على السودان، إذ ما يزال هذا العدوان مستمراً دون معرفة الأصابع الإسرائيلية، لأن جهابذة من العقول الإسرائيلية تولوا أمر هذا الملف كما نجحت في توريط الحكومات الأفريقية والأمريكية والأوروبية في هذا الشأن، فقد نصت مثلاً معظم الاتفاقيات العسكرية بين حكومة إسرائيل ومنجستو على تخصيص نسبة مقدرة من الأسلحة المرسلة من إسرائيل إلى أثيوبيا لحركة التمرد في جنوب السودان، كما تم استيعاب كثير من النخب الجنوبية في المعاهد العسكرية الإسرائيلية، بمن في ذلك الطيارون على قيادة مقاتلات خفيفة والطائرات العمودية والمروحية.

وقد وصلت الثقة إلى حد طلب العقيد جون قرنق كما ورد في كتاب «إسرائيل وحركة تحرير جنوب السودان»، من رئيس أركان الجيش الإسرائيلي دان شمرون ووزير الدفاع الإسرائيلي إسحاق رابين تقديم تسهيلات واسعة لرجاله في القواعد البحرية والبرية الإسرائيلية في أثيوبيا لاستقبال الأسلحة التي ستصل إليه وذلك لمنع إحراج الحكومة الأثيوبية بشكل رسمي.

وقامت إسرائيل بتقديم الدعم والمعلومات بالأقمار الصناعية عن تحركات الجيش السوداني كما تم الكشف عن مقتل خمسة ضباط إسرائيليين في معارك داخل الجنوب السوداني في نهاية عام ١٩٨٨م.

ويقدر الخبراء المساعدات التي قدمتها إسرائيل وأجهزة المخابرات الأمريكية والغربية وحدها بحوالي خمسمائة مليون دولار، وكانت إسرائيل وراء نقل المعارك إلى شمال السودان وإسقاط الكرمك وقيسان، وضمن هذه التسهيلات أعلن مئير بوحاس سفير إسرائيل في زائير عام ١٩٩٠م أن إسرائيل تؤيد بلا حدود التطلعات القومية لسكان جنوب السودان، كما والت في ذات الوقت قيادة الحركة الشعبية لتحرير السودان بأجنحتها المختلفة زياراتها لإسرائيل.

في ظروف الاستقلال أهدت مصر للسودان، جامعة القاهرة فرع الخرطوم ونمت العلاقات الثقافية والتعليمية إلى حد أن أصبح حجم الطلاب السودانيين في مؤسسات التعليم العالي المصري ضعف عددهم في مؤسسات التعليم العالي السودانية ولكن تعرض الوجود المصري في السودان إلى انحسار شديد في كل مستوياته السياسية والتجارية والاقتصادية في فواتح سنوات ثورة الإنقاذ الوطني التي هبت مصر لدعمها في البداية ووصل هذا الوجود إلى مستوى ضعيف للغاية فيما بعد عام ١٩٩٩م، فيما دفع النظام السوداني الاتجاه للإيقاد وشركائها في محاولة للحفاظ على أمن البلد واستقرارها وإنهاء الحرب الأهلية في جنوب السودان والخروج من العزلة الدولية وعقوبات مجلس الأمن المتعلقة بمحاولة اغتيال الرئيس مبارك والتي ساندتها في فترة مصر. وحينها انتبهت مصر لمخاطر ترك السودان وحده، يجادل عن وحدة ومصالحة في مائدة تضم أمريكا وإيطاليا وبريطانيا والنرويج وكينيا وإرتريا ويوغندا وأثيوبيا كان قد فات الأوان، لأن الحكومة السودانية كانت قد التزمت بقرار تقرير مصير لجنوب السودان وسبقها على ذلك المعارضة السودانية التي دعمتها مصر والتي تبنت كذلك تقرير المصير في مؤتمر المعارضة بأسمرا للقرارات المصيرية.

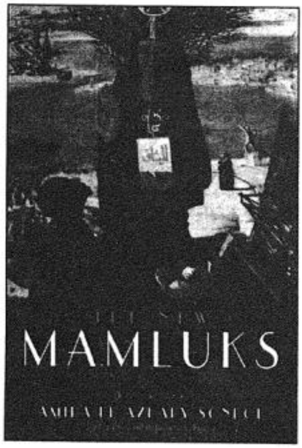
وجاء ما يسمى بالمبادرة الليبية/ المصرية والتي سعت لطرح حل لمشكلة السودان بتفادي تقرير المصير كمجرد إبراء ذمة، حيث افتقرت المبادرة للمساندة الدولية، كما أن الحركة الشعبية لتحرير السودان رفضتها ولم تكن الحركات السياسية السودانية الموصولة بمصر والمتحالفة مع الحركة الشعبية تملك من الشجاعة والقدرة لتبني المبادرة، كما أن مصر لم تكن شديدة الحماس للمبادرة لأن المبادرة في الأساس صناعة ليبية.

وانتبهت مصر إلى أن محيطها يتفتت، فالصومال يتفكك والجامعة العربية لا تكاد تنجح في فعل يتكافأ مع تفكك الصومال وتمزقه والدور المصري في أثيوبيا يتلاشى، بينما النفوذ الإسرائيلي يزداد على الأخص في المجال المالي والأمني، والمصالح المصرية في السودان تتعرض للضياع.

وفي هذه الظروف تطرح أمريكا مشروع الشرق الأوسط الكبير وهو مشروع بديل للجامعة العربية، ستكون من مفرداته الدولة العربية بالإضافة إلى إسرائيل وأثيوبيا وإريتريا وإيران وتركيا وبعض هذه الدول قدمت بطاقاتها لعضوية الجامعة العربية بصفة مراقب. وهذه مجرد دفعة لجعل الجامعة العربية أكثر تنوعاً حتى تتأهل لدخول إسرائيل وحسب المخطط الإسرائيلي، فإنه حينما تصبح إسرائيل عضواً كامل العضوية في نادي الشرق الأوسط، فإن بعض الحكومات تكون قد تغيرت تماماً من الناحية الديموجرافية والخريطة السكانية والسياسية، وربما ينطبق ذلك على السودان الذي قد يجيء للنادي بنائب رئيس دولته ووزير خارجيته وهم ينطقون بمفاهيم لا يعرفها العرب.

ربما تكون الصورة متشائمة ولكن مع ذلك هذا الوضع، يقابله إحساس شديد بضرورة عمل شيء ولعل تأزم العقل العربي وتأزم الموقف العربي سيدفع في اتجاه مخاض ثم ولادة لمشروع يستوعب التحدي. ومصر موعودة بهذا الميلاد لأن مصر هي محط الأمل ومحط الرجاء ومحط الرهان. ■





كتب تتحدى

أميمة أبو بكر

قليلة تلك الكتب والدراسات التى تتحدى قوالب النمطية والمسلّمات فى مواضيع ومجالات علمية شتى فتحاول ان تمحص وتدقق وتحلل من منظور مغاير لتطرح فكراً بديلاً او تشير إلى طريق أكثر إنصافاً ورشداً. وكثيرة هى تلك الكتب التى تطبع فى سرعة البرق لتستغل رواج اتجاهات معينة فى المجتمع او صرعات فى النظرة إلى أمر ما لتلجأ إلى التبسيط المخل وخلط الأوراق وتكرس النمطية وتمشى مع تيار التعميم والتسطيح.

وهناك علامة فارقة أخرى فى معالجة القضايا بين مجموعات الكتب هذه، الا وهى معيار «العلمية» فى دراسة الموضوع وأصله وتطوره وتداعياته مع تحليل متعمق وعرض لأدلة وبراهين، وذلك على عكس الكلام الإنشائى الانطباعي غير المدعم بقراءات ومراجع مهمة فى ذات الموضوع.

والكتابان اللذان نناقشهما هنا قد يظهر من أول وهلة التباين الكبير بينهما

The New Mamluks:
Egyptian Society and Modern Feudalism
(المماليك الجدد: المجتمع المصري والإقطاع الحديث)

Amira El-Azhary Sonbol
New York: Syracuse University Press, 2000

Face to Face With Political Islam
(الإسلام السياسي وجهًا لوجه)
Francois Burgat
London, New York: I. B. Tauris, 2003

فى الموضوع المباشر ومجال التخصص، فأحدهما كتاب تاريخى يرصد مسيرة مصر فى القرون الثلاثة الأخيرة (١٨ - ٢٠ق) والتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى صاحبت هذه الرحلة الطويلة او كيف حدثت النقلة من مرحلة ما قبل الحداثة إلى الحداثة، وهو كتاب (The New Mamlunks : Egyptian Society and Modern Feudalism) (المماليك الجدد: المجتمع المصرى والإقطاع الحديث - عام ٢٠٠٠) للباحثة الكاتبة المصرية د. اميرة الأزهرى سنبل استاذة التاريخ والمجتمعات الإسلامية بجامعة جورج تاون الأمريكية، صاحبة الدراسات السابقة فى تاريخ القوانين بمصر ومحررة الكتاب الأشهر الذى ترجمه المجلس الأعلى للثقافة إلى العربية بعنوان: (النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامي، الصادر بالإنجليزية عام ١٩٩٦)، والآخر كتاب تحليلى فى العلوم السياسية يتناول واقعاً سياسياً بالعالم العربى الإسلامى، وهو (Face to Face with Political Islam) (الإسلام السياسى وجهاً لوجه - عام ٢٠٠٣) للكاتب والمحلل السياسى الفرنسى المعروف فرنسوا بورجا الذى قضى سبع سنوات بالجزائر وخمساً بمصر حتى ينجز هذه الدراسة وهو حالياً مدير المركز الفرنسي للعلوم الاجتماعية فى صنعاء باليمن، وهو ايضاً له باع طويل فى دراسة ما يسمى بالتيارات الإسلامية الحديثة فى المجتمعات العربية وصاحب كتاب (صوت من الجنوب - عام ١٩٨٨) حول الإسلام فى المغرب العربي الذى تولى تقديم الترجمة العربية له الدكتور نصر حامد ابو زيد.

يشترك الكتابان رغم ذلك فى إرساء هدف أعم وهو دعوة مبنية على تحليل علمى جاد لإعادة التفكير فى تقييم الظاهرة الإسلامية فى العصر الحديث وبذل الجهد البحثى لتقديم وجهة نظر مغايرة عن السائد، وسوف يتضح بالضبط المقصود بهذا عند التطرق إلى موضوعات الكتابين بالتفصيل. أما النواحى أو الملامح المشتركة الأخرى فهى تتلخص فى: (أ) التركيز على البعد الثقافى للمسألة ومناقشة مشكلة الحداثة. (ب) الرجوع الى الجذور والبدايات حتى يرى القارئ الصورة الكلية، أى تقديم «بانوراما» ورؤية شاملة للموضوع. (ج) استخدام آلية الفرز والتصنيف الناتجة عن «زووم» يقرب عدسة التحليل من الظاهرة. (د) محور خاص عن المرأة وعلاقتها بالحداثة أو الحركات الإسلامية المعاصرة.

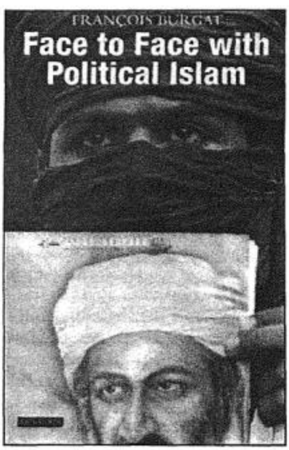
هذه هى تقريباً الركائز الأربع التي سيرتكز عرضنا عليها، وسنلاحظ ان اثنتين منها تشيران إلى نواح منهجية واثنتين تختصان بنواح مفاهيمية. أما المنهجية فنقصد بها اعتماد الكتابين على حركتين فى التحليل: حركة ترجع بالوراء قليلاً لتدرس جذور وأصول المسألة وتطورها من مرحلة إلى أخرى وليس فقط جزءاً مبتسراً منها، ثم حركة تقرب المنظار كثيراً وكأنه «زووم سينمائى» وتقوم بالفرز والتصنيف بين التدرجات والمستويات المتعددة والفروقات البسيطة والمهمة فى الوقت نفسه. أما النقطتان الأخريان فتتعلقان بمفاهيم النموذج الثقافى الأصيل للشعوب العربية والإسلامية فى مقابل معضلة النموذج الحداثى الخارجى المفروض، ثم مغزى أحوال النساء ماضياً وحاضراً.

كيف نرى تاريخنا وحاضرنا؟

يقوم كتاب (المماليك الجدد) بمجهود ضخم ليس فقط لتقديم عرض تاريخي تقليدي ولكن ايضاً لشرح رؤية خاصة لهذا التاريخ الثرى الذى يكوّن بتراكماته المتعددة هوية أصيلة ومركبة لمجتمعاتنا، مع نقد لبعض المدارس التاريخية التقليدية التى ما فتئت تقدم وتفسر تاريخ المنطقة العربية - خاصة مصر - قبل «حداثة» القرنين الـ ١٩ و الـ٢٠ أى الفترة المملوكية والعثمانية على أنه تاريخ مظلم تماماً ولم يتسن لمصر أى «تنوير» حضارى إلا بعد أن تمت قطيعة حاسمة مع كل أشكال الحياة فى الفترات السابقة، وهذا هو ما أتى بثمار التحديث والعصرنة. ولهذا تبدأ الدكتورة أميرة سنبل فى مقدمتها بمناقشة هذه الفرضية وتقدم الطرح الأساسى الذى سيشكل الإطار النظرى المرجعى للعرض التاريخي بعد ذلك، تشرح فكرتى «النظرية الاستثنائية» فى تفسير التاريخ فى مقابل «الاستمرارية الثقافية» كما تُطبق على مصر، ربما كنموذج واضح لبقية العالم العربى والإسلامي.

يتم تفنيد خطاب الاستثنائية فى معظم الدراسات الغربية التى تفسر ظاهرة «الإحياء الدينى» فى مصر المعاصرة من خلال النظرية التى تقرر أن التاريخ العربى والإسلامي مختلف وغريب فى نشأته وتطوره بهدف إبراز السمة السلبية فى هذا الاختلاف غير الطبيعى والاستثنائي عن أى تطورات موازية فى أى جزء آخر فى العالم، (ولا يفوتنا بالطبع التعرف على هذه العنصرية الاستشراقية التى ترجع الظواهر إلى «جوهرية» ثابتة وجامدة لا تتطور فى أصل الثقافة العربية الإسلامية). إن المشروع الرئيسى للكتاب كما تُنظّر له الكاتبة فى هذه المقدمة هو نقد لهذه الفكرة الأساسية التى تزعم أنها سيطرت على تفسير التطور التاريخى للمجتمعات الإسلامية - ومصر خاصة - من الفترة المملوكية إلى العثمانيين إلى الدولة الحديثة

للصحـــوة الإســـلامية



ظاهرة «الصحوة الإسلامية» العريضة في آخر القرن العشرين ما هي إلا إحياء ثقافي/ حضاري شامل، أو بمعنى آخر هي تعبير في هذه اللحظة التاريخية الراهنة عن استعادة حق ضائع مسلوب ألا وهو الثقافة الأصيلة للشعوب

السائد

والمعاصرة. فهي من خلال هذا المسح تطرح في المقابل فكرة تاريخنا وثقافتنا الأصيلة كسلسلة متصلة ومستمرة ومتطورة من مختلف الروافد والعناصر وقد تعرضت هذه الاستمرارية الضاربة بجذورها في اعماق القرون لانقطاع بتكون الدولة القومية المركزية الحديثة (nation-state) وتأثير الاستعمار، وما ظاهرة «الصحوة الإسلامية» العريضة في آخر القرن العشرين إلا إحياء ثقافي/ حضاري شامل، أو بمعنى آخر كأنها تعبير في هذه اللحظة التاريخية الراهنة عن استعادة حق ضائع مسلوب الا وهو الثقافة الأصيلة للشعوب. وهي هنا لا تستأصل هذا الموقف أو تستثنيه عن الأنماط التاريخية العامة في مجتمعات أخرى تعرضت لظروف مشابهة وكان من الطبيعي أن تسعى إلى ما أسمته «بالاندماج الثقافي الحضاري» للفئات الاجتماعية التي تعرضت للاستبعاد والتهميش تحت دعاوى التحديث وإلى نزع حق ومشروعية التواجد على الساحة. وتضرب الباحثة مثالاً سريعاً ولكنه دال كيف أن ربط فكرة «لاهوت التحرير» في أمريكا اللاتينية وافريقيا بحركات جماهيرية من القاعدة الاجتماعية وكذلك التعاطف معها واحترامها لم يفرز أي استعداد مماثل لفهم ظواهر الإحياء والصحوة والتحرر في العالم الإسلامي.

وهي ترى أن ما يسمى بالصحوة الإسلامية المعاصرة ليس معناها كما يزعم أمثال الكاتبة الأمريكية جيليس كيبل «عودة إلى الله» اي عودة مفاجئة إلى الدين، فالدين كان دائماً موجوداً ومتأصلاً في نسيج مجتمعاتنا ولكن هي «عودة» إلى ما أسمته ثقافة القاعدة الجماهيرية او المحلية (the base) وهذه الظاهرة الاجتماعية والثقافية آخذة في تقليل الفجوة الهائلة بين طبقات وفئات المجتمع التي تخلقت منذ قدوم الحداثة مصاحبة للاستعمار وتدخلاته في مسيرة هذا المجتمع وفي إعادة تشكيل شخصيته وشرائحه. نحن إذن أمام عمل ليس تاريخياً تقليدياً ولكن هو في المقام الأول عمل تنقيحي نقدي يراجع عمليات التأريخ للعالم العربي الإسلامي ويرد على نظريات التاريخ الاستشراقية - كما قلنا - التي إذا ما حاولت تفسير الظاهرة الإسلامية الحديثة فستختزلها في كونها برمتها رد فعل محافظًا رجعيًا للتغيير أو لصدمة التحديث والعصرنة وليس استمراراً منطقياً وطبيعياً لعمليات تحول سياسية واقتصادية واجتماعية تفضي إلى تداعيات متوقعة وطبيعية أيضاً. تكوّن هذه التحولات بالتفصيل محتوى الفصول السبعة في هذا الكتاب حيث يبدأ في حركة الاقتراب الشديد - التي أشرنا إليها - من مجتمع مصر منذ القرن الثامن عشر بهدف تشريح كل تفاصيله وتفاصيل طبقاته وفئاته والعلاقات المركبة بينها في عرض مدعم بقراءات ومراجع عدة قد يشق على غير المتخصص أحياناً ولكنه في نفس الوقت يزيد من انجذابه إلى متابعة سبر غور المجتمع المصري في أواخر العصر العثماني وسيطرة المماليك الفعلية عليه ووصول الحملة الفرنسية ثم دولة محمد على ثم الاستعمار البريطاني حتى قيام ثورة ١٩٥٢ والحكومات المتعاقبة لجمال عبد الناصر وأنور السادات وحتى الحكومة الحالية.

مماليك القرن العشرين:

لكن قبل هذا الاقتراب التمحيصي تحدد الكاتبة أدواتها التحليلية ومصطلحاتها، مثلاً في استخدامها لمصطلحين يمثلان شريحتين اجتماعيتين سترصد وتتابع تطورهما من الفترة العثمانية - المملوكية حتى الوقت الحاضر وهما فئتا «الخاصة» و«العامة». لا تقصد بالخاصة في تاريخ المجتمع المصري بالذات طبقة أرستقراطية متوارثة محددة أو طبقة عليا ثابتة، ولكن أي مجموعة أو فئة تكون في يدها سلطة على البلاد ومتعارف على ذلك، وقد تتغير هذه الفئة من وقت إلى آخر تتسع أو تتقلص وتتغير مكوناتها حسب المتغيرات والظروف المجتمعية الأخرى. مثلاً قد يكون الجيش / العسكرية بسبب حصول أفراده على امتيازات اقتصادية وسلطوية واسعة جزءاً من شريحة الخاصة المهيمنة في وقت من الأوقات، وقد يحدث في وقت آخر صعود طبقة أخرى تجارية فتكون بالتالي جزءاً من الخاصة. وفي رأي الباحثة أن تاريخ مصر في هذه القرون الأخيرة ظل يشهد تناقلا أو تبادلا للمواقع داخل الخاصة بين مجموعتي «المماليك» و«التجار»: فعندما كان هناك تدخل أجنبي خارجي للسيطرة المباشرة على أمور البلاد مثل فترة الاحتلال البريطاني أو لدى فترات الاعتماد الشديد على المعونات الأجنبية مثل فترة حكم السادات والفترة الراهنة سادت هيمنة «الخاصة غير العسكرية» أي طبقة رجال الأعمال والمستثمرين والمستفيدين من رجال الحكومة. أما في فترات وجود قدر من الاستقلالية في البلاد مثل في حالة المماليك وحكم محمد على وجمال عبد الناصر فإن العسكرية أصبحت هي القوة الرئيسية داخل الخاصة.

أما شريحة «العامة» فليس لها هنا المعنى الضيق المحدود للطبقة الشعبية التي تُقدم على أنها طبقة غير متعلمة أو غير واعية وغير منظمة. ولذلك قد يفيد أكثر الإشارة الى تلك الشريحة العريضة بالقاعدة (base) وبدون تجاهل للعلاقات المركبة والتحالفات التي قامت دائماً ولا تزال بين فصائل الخاصة والعامة. الخلاصة أن كلا من الشريحتين لا تشكل طبقة ثابتة بطبيعتها ولكن فصائل متحركة داخل المجتمع تحكمها علاقات مصالح ومنافع أو رغبة في البقاء، وتتغير العناصر المكونة لها على مدار الزمن والعقود، والمعيار هو تملك وممارسة السلطة داخل المجتمع.

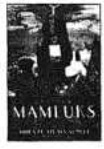
ثم تتطرق الكاتبة إلى داخل الخاصة وترصد فصائلها: من النخبة الحاكمة إلى الهيئة العسكرية (الجيش) إلى طبقة المستثمرين وكبار التجار ثم حلفائهم من رجال المؤسسة الدينية الرسمية وبعض المتعلمين والمثقفين. وتمضي في تحديد فئات مجتمعية أخرى لها جذور تاريخية مثل التجار - الملتزمين (من نظام الالتزام الزراعي) - مماليك... إلخ وهي فئات سوف تتعقب تطورها وتغير اشكالها الخارجية وتحركاتها داخل الخاصة حتى الوقت الحاضر، وذلك بهدف - كما أشرنا سابقاً - تحقيق عنصر الاستمرارية الزمنية والخصوصية في التحليل التاريخي وليس الإصرار على نظرية القطيعة التي يروجها مناصرو «صدمة الحداثة المفاجئة»، و «التنوير الاستعماري»، كما يحقق ذلك للقارئ أثرين في وقت واحد: بانوراما زمنية هائلة تربط التطورات والتداعيات بالجذور، وعدسة تقربه من المجتمع وتمكنه من الفرز والتمييز. وهكذا تتعقب د. أميرة الصراع الطويل بين الخاصة والعامة وتظهر كيف أنه منذ دولة محمد على المركزية وسيطرتها على وسائل الإنتاج والتجارة والتصدير والربح كان الهدف دائماً الحفاظ على هذه الهيكلة والتأكد من سيطرة الخاصة على الشئون التجارية والنشاط الاقتصادي داخل وخارج

مصر لتحقيق الثروة التى تضمن بدورها استمرار الهيمنة على زمام الأمور وعلى السلطة.

وحتى نفهم مغزى عنوان الكتاب فإن الكاتبة تزعم أن المفهوم العسكرى الحديث والمعاصر للقوة والسيطرة ترجع جذوره إلى فكرة أمراء المماليك المحاربين وما نعرفه من تاريخهم، وأن النظام الاقتصادي الذى يهدف إلى احتكار الدولة أو أى سلطة فعلية للتجارة الخارجية وتعزيز ثروتها المعروف بالـ (merchantilism) قد بدأ فى مصر على يد المماليك ثم أصبح سياسة مباشرة واضحة فى عهد محمد على ومارسها الإنجليز أثناء الاحتلال لتحقيق الاستغلال والكسب واستمر فى شكل الاشتراكية القومية واحتكار الدولة والجيش فى عهد عبد الناصر وحتى سياسة الانفتاح فى عهد السادات، وما حدث فى مصر خلال الخمسين سنة الأخيرة هو نوع من «الإقطاع الحديث» الذى اتخذ أشكالا مختلفة (فليس من الضرورى أن يكون الإقطاع مقتصراً على الأراضى الزراعية فقد استبدل عبد الناصر إقطاعاً بإقطاع)، يعضده أيديولوجيات متغيرة ويبقى الهدف واحداً: الحفاظ على توازن العلاقة الدقيقة بين الشريحة التى تملك كل الثروة والامتيازات والقوة والشريحة المضطرة لقبول المبررات حتى تحافظ على بقائها.

كتب تتحدى السائد





إن تاريخ مصر ظل يشهد تبادلاً للمواقع بين مجموعتى «المماليك» و«التجار»، فعندما كان هناك تدخل أجنبى سادت هيمنة «الخاصة غير العسكرية» أى طبقة رجال الأعمال والمستثمرين

التحرر الثقافى:

أما اليوم، فقراءتها للتحولات الحاصلة هى أن البعد الثقافى - وليس فقط الاقتصادي - بدأ يلعب دوره، وأن قاعدة العامة بدأت تتحرك لتضع نهاية لهذا التقسيم التاريخي الذى طال عقوداً وبدأ جمهوره فى تكوين خطاب خاص به مرتبط بجذوره يتحدى خطابات الهيمنة والتهميش التى كونتها على مر العقود نخب الدولة المركزية الحديثة وفرضتها عليهم. والباحثة تصفها أنها عملية «تحرر ذاتى تتخلص من الازدواج الثقافى» (المقدمة)، لأن الأيديولوجيات والخطابات الثقافية لكل النخب الخاصة التى تعاقبت على حكم المجتمع المصرى والسيطرة على مقاليد الأمور فيه كانت دائماً أجنبية أو وافدة، «وهذا يسرى على أمراء المماليك وأسرة محمد على والبريطانيين والناصريين الاشتراكيين وبرجوازية الانفتاح فى العصر الساداتى، أما الآن فإن ثقافة الجماهير العامة هى الآخذة فى الصعود، وما يتم وصفه الآن بالإحياء أو الصحوة الإسلامية ما هو إلا جزء من عملية متنامية يحاول المجتمع المصرى من خلالها أن يصبح أكثر تجانساً واتساقا مع نفسه لتقليل الفجوة الثقافية بين شرائحه وفصائله، كمؤرخة ترى د. أميرة أن القوة الدافعة للتغيير فى الوقت الحاضر أصبحت بأيدى «العامة»، لأن شخصيتها الثقافية العضوية هى الآن المعيار الرئيسى للمجتمع بأسره وبسبب التأثير الكبير لمفكريها ومثقفيها ومتعلميها فيما يكتبون وينتجون من فكر، أما الاشتراكية أو الليبرالية فقد تم ارتباطهما فى الغالب بالخاصة والطبقة الحاكمة.

إن تحرك العامة لاسترداد حق ومشروعية التواجد والتأثير فى المجتمع والمشاركة فى الحياة الثقافية هو إذن تحرك له أسبابه التاريخية والاقتصادية والسياسية المتشابكة، إلا أن الكاتبة لا تزال تؤكد على أهمية الجانب الاجتماعي والثقافى وعلى عملية «التجانس/ الاندماج الثقافى» التى فى طريقها للقضاء على عقود من الازدواجية والتناقض.

العثمانية والحداثة:

من الصعب إعطاء هذا الكتاب حقه الكامل أو تلخيص محتواه فى مقال، لكن بإمكاننا أن نضمن هنا مثالاً أو اثنين يدللان على المقدمة النظرية والخلاصة العامة التى تصل إليها الباحثة. فى بداية الرحلة وفى تركيزها على مجتمع القرن الثامن عشر - أى بعد قرنين تقريباً من بداية الفترة العثمانية - تفند الفرضية الخاطئة أن التدهور والفوضى فى كل مناحى الحياة كانتا هما سمة العصر فى الولايات العثمانية وخاصة مصر، وذلك عن طريق قراءة تحليلية لمصادر تاريخية جديدة وغير تقليدية للاقتراب من وقائع الحياة اليومية الاجتماعية للناس وأنشطتهم الفعلية بدلاً من الاسترشاد فقط بالتاريخ والحوليات الرسمية التى ترصد صعود وهبوط الطبقات الحاكمة ووقائع ونتائج الحروب.. إلى آخره. المقصود هنا مراجعة وثائق وسجلات المحاكم الشرعية لرصد حركة المجتمع المدنى من زواج وطلاق وقضايا نفقة وحضانة ووقفيات وحجج وعقود بيع وشراء ومعاملات مالية تجارية ونزاعات وأحكامها.. الخ. تنوه د. أميرة إلى أعمال كل من المؤرخين والباحثين د. بيتر جران و د. عفاف لطفى السيد و د. نيللى حنا[1] التى تنفى عن القرن الثامن عشر - بل وحتى السابع عشر - صفة الفوضى هذه، وجدير بالذكر هنا أن هؤلاء الباحثين يمثلون مدرسة تاريخية جديدة فى دراسات الشرق الأوسط العربى والإسلامي تستخدم مصادر لم يلتفت إليها من قبل لاستنطاقها والوصول إلى نتائج مختلفة عن حقيقة مجتمعات ما قبل الحملة الفرنسية والاستعمار البريطانى والتنوير الحداثى المرتبط بهما، بل حتى قبل دولة محمد على.

باختصار تبين هذه الأرشيفات وجود حياة طبيعية تماماً ومجتمع مدنى حيوى (وإن لم يقل أحد أنه كان مثالياً) يتميز بتحالفات وتعاون بين فئاته المختلفة وعمل سياسى نشط ومتطور بمقياس ذلك الزمان. ونسترجع هنا مقولة رددتها أكثر من مرة د. نيللى حنا (فى كتابها المذكور بالهامش) أنه لا يجب أن نحكم على أوضاع الولايات العربية العثمانية بما كان يجرى فى الأناضول لأن الأحوال كانت تختلف تماماً ولم يكن لإسطنبول السيطرة الكاملة على سريان أمور هذه المجتمعات الفعلية كما يتصور البعض. وحتى تدحض د. أميرة فكرة استشراقية أخرى عن مجتمع الدكتاتور الأوحد الذى يسير بالكرباج شعبه الخانع المستسلم كالقطيع وتتحدى التفسير السائد لدور محمد على - الصورة النمطية للباشا العثماني القاسى الطاغية - وتستخدم وصف د. عفاف لطفى السيد له أنه يعد فى حقيقة الأمر «آخر المماليك العظام» بمصر (ص٣) لأنه يشكل استمرارية أو نتيجة لأوضاع معينة داخل المجتمع المصرى كانت حاصلة منذ قرون قبله. أما صورته النمطية التى أشرنا إليها فهى تغذى الفكرة الاستشراقية عن «استبدادية الشرق» المتأصلة (oriental despotism) : لذلك فإن كل هذه التفنيدات والمراجعات تصب فى تيار «نقد الحداثة» الذى يحاول إعادة دراسة هذه المجتمعات التى تم وسمها بأنها «تقليدية» أى مرادفة للتخلف والركود والجمود وعدم القدرة على التجديد والتطور والديناميكية، ولا يتكون هذا التيار من باحثات وباحثين عرب ومصريين فقط ولكن أيضاً من بعض الدارسين الغربيين فى الخارج الذين أدركوا أن الوقت قد حان لمراجعة نظريات ومناهج بحثية أثبتت خطأها الكبير فى تحليل المجتمعات والدول ماضياً وحاضراً. وهنا يجوز توجيه دعوة الى بعض من كاتبينا المعاصرين للتزود من هذه الدراسات حتى يصححوا نظرتهم إلى تاريخنا وحاضرنا ويتخلصوا من مناهج ونظريات عفى عليها الزمن ولم يعد يستخدمها أحد الآن، فمطلوب منهم إذن تحرى بعض الدقة العلمية فى تقديم المعلومات إلى القراء وعند استخدامهم بعض التعبيرات التى أصبحت فارغة المضمون ولا معنى لها مثل «ظلامية العصور الوسطى» و«عصور التخلف والركود أثناء الحكم العثمانى».. إلخ.

حداثة القرن التاسع عشر:

وتتوالى الأمثلة فى هذا المجال عندما تشرح لنا الكاتبة النظام القانوني السائد فى المحاكم الشرعية قبل وبعد الفترة العثمانية عندما لم يمنع تطبيق مذهب الإمبراطورية الرئيسى (الحنفى) على معاملات الدولة واداراتها الرسمية من السماح للولايات أن تمارس اجراءاتها القانونية الفعلية داخل المجتمع بناء على العرف المحلى واستخدام المذاهب الأخرى مما أتاح مرونة وحرية فى اختيار الناس للمذاهب التى يمتثلون لأحكامها.

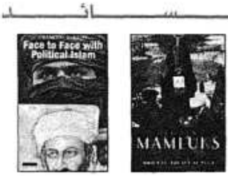
مثلاً إلى جانب قاضى القضاة المعين رسمياً من قبل اسطنبول، تواجد عدد كبير من القضاة والمحاكم المستقلة التى تتبع المدن والقرى المحلية وتخدم حاجات سكانها بدون سيطرة قانونية مركزية، أى أن المحاكم كان لها ارتباط عضوى بالمجتمع وأفراده وليست الذراع الطويلة لسيطرة الدولة كما حدث بعد إصلاحات القرن الـ ١٩ (ص٦٧ - ٦٨).

للكثيرين من معتنقى نموذج التنوير الحداثى تؤكد الكاتبة أن القرن الـ ١٩ (دولة محمد على ثم الاستعمار البريطانى) يمثل بداية للشيزوفرينيا الثقافية أو الانشقاق بين ما هو «تقليدي» وما هو «حديث» أو «عصرى»، وهى تعتقد أن هذه الازدواجية تبنتها النخب القومية والثقافية ورواد النهضة فى مصر بعد ذلك التى تمسكت بهذا النموذج التنويرى العصرى والذى أصبح ليس فقط هدفاً ولكن أيديولوجية مؤثرة بشدة على كل التيارات السياسية من اشتراكيين وماركسيين ورأسماليين الذين نظروا إلى شخصية المصريين «التقليدية» على أنها «تشد البلد إلى الوراء» (ص٦٠).

أصبح التغريب ضرورة للحراك الاجتماعي وبالتالى معرفة لغة اجنبية حتى أن آلاف الأجانب والبريطانيين الذين عاشوا فى مصر لم يتعلموا أو حتى فكروا فى تعلم العربية لأن المصرى هو الذى كان عليه أن يتعلم لغة غربية أجنبية حتى يرقى ويصير «عصرياً» وجزءاً من «العالم المتحضر» وهكذا لعبت اللغة والتعليم دوراً فى توليد هذه الفجوة الثقافية وزرع الشعور بالاستعلاء والانفصال عن الثقافة المحلية التقليدية، وهى أسس قامت عليها الدولة القومية المركزية الحديثة فى تبنيها لثقافة الخاصة. أى أن الحداثة بهذا الشكل التغريبى ومن هذا المنطلق أصبحت أداة هيمنة فى يد الدولة والخاصة معاً.

وقد انعكس هذا مثلاً على الإصلاحات القانونية التى تمس أوضاع النساء وقوانين الأحوال الشخصية التى عقدت قوانين وإجراءات الطلاق والنفقة والحضانة بسبب إدخال القانون الفرنسى النابليونى المبنى على فلسفة أبوية غاية فى السيطرة والتمييز ويقول بالحرف الواحد فى أحد نصوصه: «الحقوق المعطاة إلى الأب كرئيس العائلة تطغى على حقوق الزوجة والأطفال» (ص٧٤)، أى أن فلسفة تأسيس وتقنين السلطة الأبوية المطلقة فوق نساء وأطفال المنزل حتى بعد سن الرشد والبلوغ كان إجراء جديداً من الناحية القانونية فى مصر فى بداية القرن العشرين. ومن الأمثلة الغربية أيضاً فى هذا المجال أن إجراء «بيت الطاعة» المعروف تم تأسيسه فقط مع الإصلاحات القانونية الحديثة وليس قبلها. حتى فيما يسمى بالقضاء العام فقد عكس أيضاً الازدواجية والانشقاق عندما تلاحظ الكاتبة أن فكرة «الدرجة الأولى» و«الثانية» و«الثالثة» ظهرت فى المواصلات العامة والمستشفيات والمرافق العامة لأول مرة فى

كتب تتحدى السائد



ما حدث فى مصر خلال الخمسين سنة الأخيرة نوع من «الإقطاع الحديث» الذى اتخذ أشكالا مختلفة، والهدف واحد: الحفاظ على توازن العلاقة الدقيقة بين الشريحة التى تملك والشريحة المضطرة للحفاظ على بقائها

ذلك الوقت وكان اختراعا بريطانياً، بينما ظلت المساجد بالطبع مستثناة من ذلك وترمز إلى الأصل الإسلامي فى التساوى وعدم الطبقية، فكان إذن التقسيم الطبقى المنظم والمقنن فى بداياته وافداً من أوروبا (ص٨٣).

من العلمنة إلى الأسلمة:

يبدأ كتاب فرنسوا بورجا (وجهاً لوجه مع الإسلام السياسى) من النقطة التى ينتهى عندها كتاب (المماليك الجدد): أهمية ودلالة الظاهرة الإسلامية المعاصرة فى أنها تمثل ربما لأول مرة اختياراً ووعياً لدى الشعوب بإحياء ثقافى/ حضارى وتحرر ذاتى من عصور الشعور بالدونية والإقصاء وعدم المساواة والاعتماد على الآخر الأجنبى، لأن العنصر الثقافى الأصيل هو الذى أصبح الآن العنصر الموحد للشعوب وليس الأيديولوجيات الفوقية المفروضة من قبل الدولة مثل العلمانية والقومية (ص٢٠٩) أو سائر الأيديولوجيات من اشتراكية وليبرالية وماركسية وناصرية.

أما عن الكاتب الفرنسى والمحلل السياسى المعروف فرنسوا بورجا فإن من المعروف أن له اهتماما بحثيا وعلميا بالحركات الإسلامية المعاصرة فى العالم العربى على الأخص وله دراسات سابقة عنها. ويذكر هنا أن تقديم د. نصر حامد أبو زيد للترجمة العربية لكتاب (صوت من الجنوب) قد أثارت جدلاً وقتها عندما اعترض د. أبو زيد على ما بدا له تعاطفاً غير مقبول من الكاتب الفرنسي. أما أحدث كتاب لبورجا بين أيدينا فهو أيضاً كتاب قد يعترض عليه بل يمقته الكثيرون ممن يفضلون التعرض إلى الظاهرة الإسلامية بالتعميم والاتهامات الجاهزة إلى حد صياغة المصطلحات للتحقير والطعن (مثلاً «التأسلم») وسوف يعتبرون الدراسة وتحليلها المتعمق تبريراً «للاستبداد الديني» و«العنف الإسلامى» و«التطرف الأصولى» - وهى كلها تعبيرات لم يستخدمها بورجا على الإطلاق حتى لا يجنح إلى الاستسهال والتسطيح.

وعودة بنا إلى العناصر الأربعة التى يرتكز عليها عرضنا للكتابين. نلاحظ تميز هذا الكتاب بالذات فى فكرة «الفرز والتصنيف» بين التيارات لتحديد الفروقات البسيطة المهمة والتداخلات وألوان الطيف المتدرجة داخل الظاهرة، وهى الألية أو التقنية التى أسميتها «زووم» يقرب العدسة التحليلية من التفاصيل: يحلل الكتاب حركات ما أسماها فى العنوان «الإسلام السياسى» وهو بالطبع ليس أول أو آخر كتاب عن الموضوع، ولكن أطروحاته ورؤيته الخاصة هى التى نعتبرها سيراً ضد التيار الذى إما هو جزء من الاستشراقية الجديدة (new-orientalism) وحملة التشويه للإسلام لأغراض سياسية وإمبراطورية توسعية باتت غير خفية على أى واحد منا، أو جزء من خطاب مصرى وعربى محلى لا يزال واقعاً تحت تأثير خطاب الاستشراقية والمنظور الحداثى ولذا يسير فى طريق سياسة التخويف من أى مشروع فكرى يستلهم الدين الإسلامي.[٢] راجع مثلا الدكتور جابر عصفور - وهو الكاتب الكبير والناقد المخضرم الذى نكن له كل احترام - لجوؤه فى كثير من كتاباته إلى اختزال الظاهرة الإسلامية العريضة فى «ثقافة عنف» و«عقلية نقلية اتباعية» و«الإفراط فى تديين كل شيء» و«الأبنية الاتباعية للثقافة التقليدية».. إلخ (ضد التعصب، المركز الثقافى العربى ٢٠٠١)، أى الاعتماد فى الأغلب على تحليل سيكولوجي «جوهرى» (essentialist) وليس تحليلاً اجتماعيا أو سياسياً يعود إلى الجذور والأسباب ويهتم بالسياق.

شمول المشهد الإسلامى:

أما كتاب بورجا فيعود إلى الجذور السياسية والثقافية للمسألة ويدعو القارئ أن يرى الصورة الكلية لهذه المجتمعات وتطورها وظروف انتقالها من مرحلة الاستعمار إلى الاستقلال وما بعد الاستقلال. يتفادى بورجا عامداً مصطلح الأصولية (fundamentalism) الشهير ويستخدم على مدى مناقشاته مصطلحاً آخر له دلالة ومغزى وهو (re-Islamization) أى استعادة أو استرجاع «إسلامية» المجتمع. الظاهرة الإسلامية فى رأى بورجا لها بعد ثقافى هام يجب عدم إغفاله، فهى تعبير عن مقاومة الجنوب لهيمنة الشمال أو الغرب ونوع من الـ (exorcism) طرد وتطهر من الأرواح الشريرة التى جثمت على صدر هذه البلاد طويلاً فى فترات الاستعمار (ص١٢)، وبعد طول تهميش للرموز والمرجعيات الثقافية المحلية أو الأصيلة. أما عن رد فعل الغرب الحالى لهذه الحركات فما هو إلا إعادة لنفس رد الفعل المعادى تجاه القوميين العرب فى العقود السابقة: التحقير والطعن ضد هذا التيار المقاوم فى وقته وضد سعيه إلى الاستقلال. وبنظرة ثاقبة ونقد أمين لموقف الغرب يشرح بورجا كيف أنه حتى الآن عندما انطلق العالم العربى الإسلامى فى موجة أو مرحلة أخرى من المقاومة راغباً فى إعادة التواصل مع ميراثه الحضارى والثقافى قبل الاستعمار وفى تكوين منظومة قيمية خاصة به - لم ير الغرب فى كل ذلك إلا عدوانية موجهة له. يتساوى فى هذا الموقف كل من اليمين واليسار: يرى اليمين الغربى فى الصحوة الإسلامية تأكيداً «لتعصباته القديمة ضد الإسلام والعالم الثالث والعرب» (ص١٨)، أما اليسار فإذا كان على استعداد أكثر أن يتقبل الآخر إلا أنه يقف عند حد معين: فيتقبل

العرب ولكنه يفقد عقلانيته تماماً عند تعامله مع المسلمين ولا يستطيع أن يتخلص من مشكلته التاريخية الخاصة مع الأديان والمؤسسات الدينية ويتشدد تشدداً «أصولياً» في «علمانيته»، فلا يستطيع أن يتقبل أن هناك فئة أخرى من البشر لهم صيرورة تاريخية منفصلة ولا يزالون محتفظين بمرجعية دينية.

ومن هنا يتطرق بورجا إلى فكرة الهوية الضائعة أو المسلوبة ويرفض التعويل على النظرية الاقتصادية لتفسير الظاهرة الإسلامية (يدفع الفقر بطبقات الشعب الدنيا إلى التشبث بالإسلام، فأكثر الإسلاميين هم الفقراء أو من الطبقات الشعبية)، ويرى أن الأمور أعمق وأعقد من هذا فنحن نتحدث عن سلسلة من السياسات الفاشلة لهذه الدول على مدى عقود والتي أدت إلى فقدان المكانة الاجتماعية ومن ثم احترام الذات والهوية لقطاعات هائلة من الشعوب، كما تم استبعادهم من الثروات والقوة والتأثير (وهذا يذكرنا بتحليل د. أميرة سنبل للخاصة والعامة). الشق الآخر من تفسيره الذي لا يزال يدور حول مسألة الهوية هو ان الكاتب يعتقد ان التيارات الإسلامية (Islamism) هي الشكل الجديد أو التطور الطبيعي لحركة القومية العربية العلمانية في منتصف القرن العشرين لأنها الأقرب إلى استعادة وتثبيت الهوية الثقافية الضاربة بجذورها في التاريخ الحضاري لهذه الأمة. وهنا يفرد بورجا باباً كاملاً (الباب الثاني) من الكتاب للاستشهاد بفقرات مطولة من كتابات يعتبرها شهادات شخصية وتمثيلاً لبعض جوانب الفكر الإسلامي الحديث لرواد المفكرين الذين أصبحوا جزءاً رئيسياً من هذه الحركة كخطاب وكفكر، مثل عادل حسين وطارق البشري وراشد غنوشي.

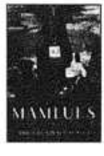
إلى هنا قد يبرز انتقادان لطرح بورجا: أولهما أن التأكيد المستمر على عنصر الخصوصية الثقافية وخصوصية الهوية قد ينزلق بنا إلى «الاستثنائية الاستشراقية»، التي كتبت تفندها بالتفصيل د. أميرة سنبل وحذرتنا منها. وثانياً: أن الأفكار الراقية المعتدلة المصقولة في خطابات هؤلاء المفكرين الإسلاميين تمثل فقط النخبة الإسلامية المستنيرة وهي محدودة التأثير على الشارع ولا تنفذ إلى السلوكيات العنيفة المتشددة التي تحكم الجماهير غير المتعلمة غير الواعية على أرض الواقع. والرد على هذين الاعتراضين هو أولاً أننا نتحدث بالتحديد عن التخلي عن المرجعية الغربية في إنتاج المعارف والتحليل التاريخي وصياغة الهويات والخطابات لتأكيد الاستقلالية عن هذا النموذج الذي يطرح نفسه دائماً على أنه الأوحد والأولى بالاقتداء. أما الخطاب الاستشراقي فقد اعتمد على تناقض أساسي وجوهري بين الغرب والشرق وفكر قائم على عنصرية عميقة تجاه كل من هو ليس «أبيض» وتعصب وتحقير للغريب والأجنبي. لابد أن تكون هناك مساحة وسط تسمح باستقلالية الثقافات واحترام الذات واختلاف المرجعيات دون الحط من شأن هذا الآخر المختلف أو إقصائه من الصورة العامة للإنسانية. أما النقد الثاني: فيجب الاستمرار في قراءة الكتاب الذي يحاول فيه الكاتب صفحة بعد صفحة توسيع مجال الرؤية أو النظر إلى هذه الظاهرة بدلاً من تضييقها ويصر على أنها مسألة إعادة بناء للهوية ولذا فهي ليست أيديولوجية نخبوية فوقية، بل على العكس هي حركة اثبتت قدرتها الفائقة على أي تيار آخر في تعبئة الجماهير وكسب تأييدهم وثقتهم. ثم لماذا الافتراض الاستعلائي أن هذه الجماهير العامة هي بالضرورة مجموعات غوغائية جاهلة يسهل خداعها وقيادها؟

المدهش في تحليل بورجا لأسباب ونتائج وشيوع التيار الإسلامي - اجتماعياً وثقافياً - أنه لم يعقد العزم آنفاً أن يدين هذا التيار ويكيل له النعوت التي أصبحنا نحفظها عن ظهر قلب دون وعي أو تمحيص: مثل التأسلم - التطرف الديني - الإرهاب الإسلامي - التعصب - جماعات التكفير.. إلخ. ونذكر مرة أخرى أنه لا يستخدم هذه المصطلحات إطلاقاً، والمرة الواحدة التي استخدم فيها «الأصولية»، كانت بالإشارة إلى اليسار الغربي العلماني في تشدده، ولذا آثر أن يتوخى الأمانة العلمية كباحث ومحلل سياسي ليغوص إلى الأعماق شارحاً العدسة التي يرى من خلالها الإسلاميون موقعهم في العالم حالياً وفي أوطانهم داعياً القارئ أن يضع نفسه افتراضاً في مكانهم. وهنا يذكر مشكلة الحداثة التي تم فرضها في هذه البلاد «ليس من داخل المنظومة الأصلية للإسلام ولكن بدونها تماماً إن لم يكن ضدها» (ص ٤٥). ثم يطرح رأياً يذكرنا بإحدى أطروحات د. أميرة سنبل عندما تقرر أن الثورة المصرية استبدلت إقطاعاً بإقطاع وأن تاريخ مصر الحديث ظل يفرز طبقة منتفعة من «المماليك، جيلاً بعد جيل»، فهو يقول: «من المفارقات التاريخية أنه بعد تحقيق الاستقلال السياسي مباشرة في البلاد العربية، حققت ثقافة المستعمر نجاحاً من نوع آخر عندما استخدمت حكومات هذه الدول المستقلة في سياساتها التنموية وفي التطوير نفس دلالات ومعاني ورموز ومفاهيم الغرب» (ص ٤٧).

وهكذا فإن عمليات التحديث في فترة ما بعد الاستعمار عمّقت من القطيعة مع الهوية الثقافية الأصيلة ولم ترأب هذا الصدع الذي سعى إليه الاستعمار عقوداً طويلة من قبل. أصبح التحديث مرادفاً لعمليات نزع أو التخلص من الشخصية الإسلامية لهذه البلاد؛ ويستخدم بورجا فعلاً مصطلح (de-Islamization) (ص ٤٧). فهو يرفض صراحة التفسيرات الخاصة بتشجيع السادات التيارات الإسلامية أو مسألة سفر العمالة المصرية الى بلاد النفط الصحراوية وتأثرها بأساليبها في الحياة وثقافتها، ويقول إن هذين العاملين لا يكفيان كأسباب رئيسية لهذا الإحياء الإسلامي الشامل والمستمر الذي تشهده البلاد العربية المختلفة.

كتب تتحدى السائد





يدحض كتاب «المماليك الجدد» فكرة استشراقية عن مجتمع الدكتاتور الذي يسيّر بالكرباج شعبه الخانع كالقطيع ويتحدى التفسير السائد لدور محمد علي - الصورة النمطية للباشا العثماني الطاغية

جماعات التيار الإسلامي تحت المجهر:

على عكس الكتابات العربية التي لا ترى في عموم الحركات الإسلامية إلا كل ما هو قاتم وأسود وشرير، يتحاشى هذا الكتاب عرض الظاهرة ككتلة واحدة مصمتة ويصر على فرز مختلف الاتجاهات والمجموعات أو حتى التنظيمات المسلحة ويشرح الفروقات بينها مؤكداً أن حفنة الجماعات العنيفة هذه لا تمثل بالضرورة التيار الإسلامي الاجتماعي والثقافي والفكري الواسع، بل تقع على حواف هذا التيار، وهو حتى يحاول أن يشرح التمايزات بين الإخوان والجماعة الإسلامية وتنظيم الجهاد.... إلخ ويتساءل: لماذا التركيز دائماً على أكثر الجوانب ثورية وراديكالية في مقابل التعتيم على البعد الاجتماعي والأنشطة الخيرية والمدنية والتأثير الثقافي الايجابي. ويضرب مثلاً في سخرية أن الغرب لا يمانع أن تنفق شخصية أجنبية مثل الراهبة الفرنسية إيمانويل مبالغ طائلة على شبكة أعمال خيرية كبيرة ومساعدات إنسانية في مصر ولكن ستقوم قائمته لو أجرت نشاطاً اجتماعياً وتربوياً مماثلاً مدرّسة ذات غطاء على رأسها أو طبيب ذو لحية، وسيكون التفسير المقدم لهذا النشاط أنه اختراق خطر من الأصوليين.

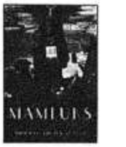
ومما يحسب لتحليل الكاتب هنا في اقترابه الشديد من المسألة هو توجيه نظر القارئ إلى السياق المباشر المحيط بهذه الظاهرة - ليس فقط في شكل التطور التاريخي ودور الغرب - ولكن في شكل تصرفات الدولة وسياستها إزاء هذه الحركات فهو يكرر في أكثر من موضع أن رد فعل الأنظمة لها يحدد في كثير من الأحيان مسار هذه المجموعات وطرق التعبير عن نفسها بل يكون مسئولاً عن دفعها إلى العنف أحياناً واستراتيجيات السرية. يجب أن ندرك أن خصائص الحركات الإسلامية هي وليدة سياقها المحدد بظروف الزمان والمكان وهي بالتالي رد فعل لهذا، وخاصة رد فعل لعنف الدولة. ويعطي بورجا مثالاً بسيطاً عندما ينسى المتأملون والمحللون لخطاب سيد قطب الذي اتسم في آخر مراحله بالتطرف والمرارة أنه ما هو إلا رد فعل لظروف خاصة جداً مثل سجنه ومعاصرته لتعذيب وتصفية زملائه، أي أن العنف الذي أفرزه هو رد فعل رئيسي لعنف النظام؛ يتناسى ويتجاهل أي تحليل لفكر سيد قطب والإخوان بصفة عامة هذه الحقيقة. وهذه نقطة مثيرة

خاصة إذا قارنا ذلك الرأي بكتاب د. رفعت السعيد (الإرهاب المتأسلم - الجزء الأول - دار أخبار اليوم ٢٠٠٤) الذى ينتهج فعلاً هذا النهج وينفى بشدة تعرض سيد قطب لأى عنف من أى شكل حتى ينتفى دور أى ظروف وملابسات فى الموضوع. يذهب بورجا إلى أبعد من هذا عندما يقول أن عنف بعض الاسلاميين وردود افعالهم فى أى مكان ووقت هو «نتاج السياق الدنيوى الخاص وليس راجعاً لأى مبدأ إسلامى عالمى» (ص ٢١). أى يجب البحث فى الواقع السياسى والاجتماعي وليس فى الإسلام كديانة وعقيدة فى محاولة لاستخراج دوافع العنف من تعاليمه ونصوصه.

وحتى يبرهن على مقولاته هذه يبدأ الكاتب فى تقريب عدسته التحليلية من كل بلد على حدة - مثل الجزائر والأردن واليمن وفلسطين ومصر - فى إصراره أن حالة الانبعاث الإسلامي فى كل بلد تمثل «رد اعتبار لمنظومة ورموز الثقافات المحلية التى ما زالت تحاول تجاوز محنة الاستعمار لتستعيد سمتها العالمية السابقة» (ص ٧١). ولا يتسع المجال هنا بالطبع لعرض الحالة السياسية الراهنة فى كل بلد، إلا أن من أجرا الفصول الفصل الخامس الذى يذكرنا فيه الكاتب بمبادرة الدولة بالعنف تجاه الإسلاميين فى الماضى (مثل شنق أتاتورك للمدافعين عن الطربوش ولجوء حكومة شاه إيران إلى تمزيق الشادور على النساء) بغرض استفزازهم الدائم والضغط عليهم ومن ثم دفعهم إلى خانة الراديكالية واللاعقلانية والعنف، لاستخدام ذلك كذريعة دائمة لتخويف الشعوب منهم. وهو يسجل لنا أمثلة من وقائع فعلية فى المغرب والجزائر ومصر وسوريا والسعودية لينوه إلى حد ارتكاب الجرائم باسمهم فى بعض الأحيان، أى أنه يزعم أن بعض هذه الجماعات تم اختراقها وتوريطها من قبل أجهزة المخابرات المحلية. هذا إلى جانب المبالغة الشديدة فى معاقبة حكومات واجهزة أمن هذه الدول لهم أو فى الرد على أى نشاط فتستمر حلقة الانتقام والعنف إلى ما لا نهاية.

يذكر كذلك بصراحة إجراءات قمعية مارستها هذه الحكومات (مدعماً ذلك بأسماء ووقائع وتواريخ) على المشبوهين من تعذيب وتنكيل وهدم منازل وقرى بأكملها وتدمير أراض زراعية وترويع لأمهاتهم وزوجاتهم.. إلخ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك - خاصة فى حالة الجزائر - عندما يقول أن بعض ضحايا العنف من الصحفيين والمثقفين والأدباء «قبلوا القيام بمهمة الترويج لغطاء أيديولوجي لقمع الدولة» (ص ١٠٦)، حتى يتم تبرير خيار التصفية أمام الرأى العام العالمى وأمام شعوبهم. وهكذا يمضى الكاتب فى ذكر حقائق وملابسات مذهلة عن الوضع المعقد فى الجزائر ويخلص إلى أن عنف الدولة والأمن هو الذى ولد وغذى عنف الجماعات، وأن خوف النظام والعسكرية من انتخابات حرة تظهر عدم رغبة شعوبهم لهم أكثر من خوفهم من بعض

كتب تتحدى السائد





الكاتبة توثق لنا من خلال عرض لهذه الحالات حركة المجتمع وتفتح نافذة على الواقع «العثماني» بمصر المغيب فى خطابات بعض الكتاب الذين يجهلون هذا التاريخ ومع ذلك لا يتحرجون من إطلاق التعميمات والمعلومات الخاطئة

القنابل العشوائية التى قد تفجرها هذه الجماعات هنا وهناك، بل إن ذلك يساعد على إظهارهم فى صورة حماة السلام المدنى والحرية.

وفى آخر فصل من الكتاب كما فى الخلاصة يستمر بورجا فى تفسيره للظاهرة الإسلامية من منطلق الغوص فى دلالاتها الثقافية الأكثر شمولاً والتنبيه إلى أن المغالاة الظاهرة فى بعض الخطابات الإسلامية العنيفة إنما تقع على حواف التيار الإسلامي العريض ولا تمثله، بل إن وراء هذا الخطاب الرافض أحياناً طاقات هائلة وقيماً إيجابية ليست بهادمة للحداثة الديمقراطية الغربية كما يتصور الغربيون، الذين يرون الظاهرة من منطلق الاستقطاب التاريخي السائد بين «الثقافة الإسلامية التقليدية» و«الثقافة الحداثية»، فالمشروع الإسلامي إنما هو محاولة لإعادة كتابة هذه الحداثة من منظور الثقافات المحلية الأصلية وما يبدو أنه رفض العالم الإسلامي أو العربى للتحديث والإصلاح هو نابع من الظروف التاريخية الخاصة التى صاحبت عملية التحديث هذه التى كانت مقرونة فى أغلب الأحيان بالتغريب الفوقى المفروض والتدخل الاستعمارى وليس نتاجاً طبيعياً «للنسيج الإسلامي» لهذه المجتمعات.

يستشرف الكاتب مستقبل هذه الحركات ويطرح رؤية مستقبلية متفائلة ومنصفة حين يزعم أن هناك إشارات لتطور وتنامى كثير من الفصائل المعتدلة المستنيرة وإشارات تبشر بنضوجها وتحركها فى الاتجاه الصحيح نحو «أسلمة الحداثة» - أى التمسك بالقيم الإرشادية والإيمانية للإسلام مع إعادة التعبير عن مكونات هذه الحداثة لصياغة المفهوم الإسلامي لليبرالية السياسية والتنمية الاجتماعية، وإن هناك إمكانية لمرحلة يطلق عليها «ما بعد الإسلامية» (post-Islamism) ولكن ليس بمعنى انتهائها أو فشلها - بالعكس - بمعنى النجاح فى التطور والنضوج إلى مرحلة ما بعد «رد الفعل الدفاعى» إلى مرحلة أكثر ثقة بالنفس وبناءة. وسوف يتأتى هذا عندما يعطى للإسلاميين الفرصة للمشاركة السياسية ليواجهوا تحدى تحقيق أجندتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية بنجاح.

أما نصيحته الأخيرة إلى الغرب أو الشمال فى النظام العولمى الحالى فتتمحور حول أن يراجع فكرة احتكاره لمسيرة تاريخ البشرية وأن يعى مكانه المحدد والمحدود فى هذه المسيرة الهائلة حتى يتخلى عن غروره وسيطرته على تاريخ الأفكار والفلسفات والقيم، ويغير اعتقاده أنه وحده النموذج الحضارى الأحرى بالاقتداء به لأنه صانع الحداثة والعالمية، ولتحطيم وهم أن «الإنسان المتحضر هو حقيقة الإنسان الغربى» على الشمال أن يتفهم حق الجنوب فى صياغة قيم نابعة من ميراثه التاريخى والثقافى وأن يعبر عن الحداثة والتنمية والتطور من خلال أشكال وأنماط خاصة به دون حرمانه من المشاركة فى العالمية والإنسانية. ما كان على الشمال أن يحتكر الوصول إلى هذه العالمية (universality) بهذا الشكل ويجب أن يعرف أنه غير مسموح له أن يفعل هذا مرة أخرى حتى يتسنى للبشرية جمعاء أن تصل إلى مرحلة من «حداثة مشتركة ومتفق عليها» (ص ١٨٥).

الخلاصة:

قد يرى البعض أن نهاية كتاب (وجها لوجه مع الإسلام السياسى) هكذا تجنح إلى نزعة «يوطوباوية» مثالية وغير واقعية وأن نزعة التوحيد هذه بين الشعوب والمجتمعات قد تناقض الطرح الأساسى للكتاب عن قبول الآخر المختلف كما هو. ولكن ربما أراد الكاتب أن ينهى الدراسة بنبرة إيجابية متفائلة عن إمكانية إيجاد المشترك. أما (المماليك الجدد) فقد يصر على رفضه غلاة الحداثيين الأصوليين ويسيئون فهم مقصده أنه دعوة سطحية رجعية إلى ماضوية الزمن الجميل، إلا أن الكتاب ليس دفاعاً عن العثمانيين بالتحديد أو تمجيداً لزمنهم ولكن هو إعادة نظر فى المعطيات التاريخية للوصول إلى الموضوعية بشأن كل مراحل تاريخنا - نذكر ما لها وما عليها - دون الانصياع لما يفرضه الآخر فى كيفية رؤية وتقييم هذا التاريخ الخاص بنا. كان من الأسهل لكل من الكاتبين وتماشياً مع تيارات سائدة لا تتوخى الدقة البحثية فى التفسير التاريخى أو السياسى أن يلجأ إلى التسطيح والتحامل على «ما قبل الحداثة»، وعلى «الإسلام السياسى»، ولكن كم المعلومات والأدلة واستخدام منظور بديل لمقاربة هذه الموضوعات يجعل من الكاتبين إضافة محمودة فى مجاليهما. ■

الهوامش

(١) خاصة كتابها الأخير الذى ترجمة د. رءوف عباس (ثقافة الطبقة الوسطى فى القاهرة العثمانية: ق ١٦م - ق ١٨م)، الدار اللبنانية المصرية، ٢٠٠٣) والذى نشرت «وجهات نظر» مراجعة د. خالد فهمى له فى عدد مايو ٢٠٠٤.

(٢) سبق كذلك أن نشرت المجلة مراجعة الدكتورة هبة رءوف للكاتب والباحث المتخصص الأمريكي جون اسبوزيتو لكتابة (Unholy WAR: Terror in the Name of Islam,200)، ونشرت دار الشروق الترجمة العربية لكتابة الأسبق (التهديد الإسلامي: وهم أم حقيقة، ٢٠٠٢) - وهى دراسات تهدف كذلك إلى استيضاح الصورة عن تيارات الإسلام السياسي.

(٣) انظر كذلك دراسة مماثلة عن مصر فى كتاب (العلمانية والجند فى الشرق الأوسط: الحركة النسائية المصرية، ٢٠٠٠) الصادر بالإنجليزية للكاتبة نادية العلى.

قصـــور وديبــــاج وصـحـاف مـــن ذهـــب



الأرستقراطية الإسلامية

محمد عبد الرحمن يونس

■ ■ منذ ان نشأ الإنسان على ظهر الأرض ظهرت عنده غريزة التملك، ودفعته هذه الغريزة للبحث الدائب عن مصادر الرزق، وعندما استولى على هذه المصادر، وسدّ حاجته من مأكل وملبس ومأوى زادت هذه النزعة تحكما فى عقليته وتصوراته للعلاقات المادية فى مجتمعه، فأصبح يطمح إلى تحسين واقعه وظروف عيشه.
وإذا كان هذا الطموح مشروعا فى بعض توجهاته فإنه أصبح فيما بعد لوثة خبيثة دفعته للتكالب على جمع المال، وابتناء القصور والجوارى، وشراء العقارات والاعتداء على غيره، ومحاولة الاستيلاء على ما يملكه، إمّا بالسطوة وإمّا بالحيلة.
ولم يسلم العرب والمسلمون، عبر مسيرتهم التاريخية من لوثة التملك، بل غرقوا فيها، وقامت معظم علاقاتهم الإنسانية على هذه النزعة.

وإذا كانت الجزيرة العربية مركزا مهما فى العالم القديم لأنها احتلت مركزا متوسطا فيه، فإنّ حياة السكان المادية والفكرية تأثّرت بشكل واضح بالحضارات التى جاورت هذه الجزيرة وتزامنت معها، وأثّرت فيها فى آن، عن طريق التبادل التجارى والسلعى. وكان قدوم الإسلام دافعا رئيسا لهؤلاء العرب لأن يحملوا رايات الفتح، مبشرين بالدين الجديد، حاملين رسالته صوب أصقاع بعيدة، إلى الهند والصين وفارس وأسبانيا وغيرها من البلدان. وانتقالهم هذا صوب الأمم الأخرى لم يقلل من أهمية بيئتهم الجغرافية باعتبارها مركزا وسطا بين القارات، بل زادت هذه البيئة أهمية إذ اتسعت وزادت غنى وثراء، وأصبح هؤلاء العرب فاعلين أساسيين فى حركة التجارة والزراعة، ومن خلال تفاعلاتهم مع غيرهم ثقافيا ومعرفيا وتجاريا دخلت متغيرات جديدة على بنيتهم الاقتصادية والاجتماعية وعلاقاتهم الإنتاجية، فقد زادت أموالهم وقطاعاتهم الزراعية، وتحوّل قسم منهم إلى إقطاعيين، بمفهوم القاموس الاقتصادى الجديد، فى الأرياف، وإلى ملاك وتجار فى المدن الرئيسة، على أنّ هذا الثراء لم يصب جميع أفراد الطبقات الاجتماعية،بل ظلّت الغالبية العظمى من هذه الطبقات تعانى الجوع والفاقة والحرمان.

مع توسع الفتوحات الإسلامية زاد نشاط العرب التجارى، وزادت أرباحهم وذلك باستغلالهم الظروف الجديدة التى ساعدتهم على المبادلات السلعية، وبالتالى على تحقيق الأرباح، ومن ثمّ زيادة رأس المال، وتعدد طرق استثماره بأشكال شتى. وإذا كانت حياة القبائل العربية فى الجاهلية تعتمد بشكل أساسى على الرعى فإن هذا لا ينفى وجود امتيازات لفرد ما أكثر من فرد آخر، فامتيازات سيّد القبيلة أكثر من غيره من أفراد القبيلة، من حيث عدد المواشى، ومن حيث نفوذه السلطوى، وبالتالى يمكن القول: إنّ التباين الطبقى فى المجتمعات العربية ظهر ابتداء من القبيلة مرورا بالإسلام، وتجذّر فى المجتمعين الأموى والعباسى، حتى امتدّ قويا إلى مجتمعاتنا المعاصرة. فالقبائل القوية كثيرة العدد لهى أقوى من القبائل الضعيفة قليلة العدد، بطبيعة الحال، وقد لعبت نزعة التملك عند القبائل القوية على الاستئثار بفىء غيرها من القبائل الأخرى، فهجمت عليها، وملكت أراضيها ومواشيها، وسبت نساءها، وحوّلت رجالها إلى عبيد انضووا تحت لوائها، لكنهم ظلّوا عبيدا على الرغم من هذا الانضواء. ففى مجتمع الجزيرة العربية، وتحديدا فى مكة، سيطرت قبيلة قريش القوية، كثيرة العدد على الخط التجارى الرئيس الواصل بين آسيا وأفريقيا ودول البحر الأبيض المتوسط، ومن خلال هذا الخط توسّعت علاقات القرشيين التجارية، وتدفقت الأموال عليهم، وحوّلوا مدينتهم مكة إلى مركز كبير للأسواق والتبادلات التجارية، وزادوا سيطرة ونفوذا ماليا. ومع سيطرة قبيلة قريش، وجمعها رؤوس الأموال التى تدخل عليها نتيجة علاقاتها التجارية النشطة برزت طبقتان فى المجتمع المكى: غنية وفقيرة. وقد مارست الغنية على الفقيرة سطوة واستلابا، ولم تتورّع هذه الغنية ممارسة جميع الوسائل غير الأخلاقية وغير النظيفة لزيادة أموالها وتثميرها، إذ مارست الغش فى الكيل والميزان، وفى نوعية البضاعة، وبالتالى تراكمت الأموال فى خزائنها، ولم تسهم هذه الأموال المتراكمة فى إقامة صلات إنسانية نبيلة مع الطبقات الفقيرة، بل عاملتها بمنطق الاستغلال والربا. وقد أشار القرآن الكريم فى غير موضع إلى بطر هذه الطبقة وممارساتها، محذّرا لها، وناهيا إياها عن الغش فى الميزان وأكل الربا. تقول الآيات الكريمة: (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط)، الأنعام ١٥٢، و(ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) المطففين: ١ . ٢ . ٣ وغيرها من الآيات الكثيرة التى تنهى عن الغش والتلاعب بالميزان، وتدعو إلى القسط فى الوزن والكيل. (ينظر على سبيل المثال: الإسراء: ٣٥ . الشعراء: ١٨٢ . الرحمن:٨ . ٩ . الأعراف: ٨٥، هود: ٨٤، ٨٥ وجميع هذه الآيات الكريمة تدعو إلى عدم استغلال الناس فى البيع والشراء).

أمّا الآيات الكريمة التى تنهى المسلمين عن الربا فهى غير قليلة أيضا: (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) . آل عمران: ١٣٠، و: (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلاّ كما يقوم الذى يتخبّطه الشيطان من المسّ ذلك بأنّهم قالوا إنّما البيع مثل الربا وأحلّ الله البيع وحرّم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا



الرسم للفنان حلمي التوني، بتصرف عن لوحة جدارية من العصر العباسي ـ سامراء



يحبّ كلّ كفّار أثيم». البقرة: ٢٧٥، ٢٧٦ وغيرها من الآيات الكريمة. (ينظر على سبيل المثال: البقرة: ٢٧٨، النساء: ١٦١، الروم: ٣٩).

ولقد أسهمت التجارة وظاهرة الربا في زيادة أملاك الناس من أموال وعقارات زراعية ومتاجر ومواشي وإماء ونساء حرائر. وساعد موقع الجزيرة العربية المتميّز عرب هذه الجزيرة على التوغل بعيدا صوب آسيا وأفريقيا والاستفادة من ثرواتهما الطبيعية، وبالتالي زيادة صلاتهم التجارية التي أسهمت في ثرائهم الفاحش (فالمياه تحيط بشبه الجزيرة العربية، فمن الجنوب مياه بحر العرب، ومن الغرب البحر الأحمر، ومن الشرق الخليج العربي. وكان لهذا الموقع إلى جانب تلك الصحراء الجدبة أثر كبير في تعامل العرب مع المياه، وركوبهم البحر منذ الأزمنة القديمة، حيث برعوا في الملاحة وفي بناء السفن رغم ندرة الأخشاب ببلادهم، كما تفوّقوا في الشؤون التجارية وخصوصا الحضارمة، وكانت وجهتهم الأساسية تجاه المناطق ذات الثراء الطبيعي والتنوّع الإنتاجي سواء في آسيا أو أفريقيا. وقد كان لانتشار الإسلام، وعظمة مكانة الإمبراطورية الإسلامية وهيبتها أثر عظيم في تدعيم المكانة التجارية للعرب. ولا يعتبر من المبالغة في شيء إذا قلنا إنه بحلول القرون الأولى من الهجرة أصبح العرب سادة المحيط الهندي ملاحيا وتجاريا، بل إنهم حوّلوا المحيط إلى بحيرة عربية). (د. شوقي عبدالقوي عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ١٥١، يوليو/تموز، ١٩٩٠م، ص ٤٢).

غير أن المجتمع في شبه الجزيرة العربية عرف التجارة قبل الإسلام وبرع فيها، المكي وقد أشار القرآن الكريم إلى رحلة أبناء عبد مناف التجارية صيفا وشتاء إلى الشام واليمن والحبشة وبلاد فارس، تقول الآيات الكريمة: (لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا ربّ هذا البيت. الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف). قريش: الآيات: من ١ إلى ٤.

وقد أسهمت التجارة في مجتمع قريش في نمو هذا المجتمع وازدهاره من جهة، وفي تشكيله تشكيلا طبقيا من جهة أخرى، إذ تحققت السيطرة والسيادة فيه للفئة المالكة، وتحديدا الفئة التي تسيّر دفة التجارة، إذ قامت هذه الفئة، التي يمكن أن نقول عنها: إنها فئة منتعشة اقتصاديا، بفرض قوانين السوق والتجارة التي تخدم مصالحها بالدرجة الأولى، وبالتالي لعبت دورا حاسما في تشكيل فئات اجتماعية أخرى عن طريق نفوذها المالي والاقتصادي والسياسي، وأسهمت أيضا في رسم معالم المجتمع المكي الجديد، وحركته الاجتماعية، والتأثير على بنياته كافة، يضاف إلى ذلك إشراف هذه الطبقة على الكعبة، وتنظيم عمليات الحجيج إليها، مما درّ عليها أموالا كثيرة. ومن خلال العملية التجارية النشطة في مكة تشكّلت (طبقتان اجتماعيتان، لهما مصالح ومطامح اجتماعية واقتصادية وحقوقية متعارضة. فمن الطرف الأول برز المسيطرون على التجارة والمنظمون لها أكثر الأحيان كمرابين وأصحاب بنوك وكأرستقراطيي الكعبة الدينيين ذوي الامتيازات. وقد كان القرشيون في طليعة هؤلاء، وبالتالي في طليعة سكان مكة والمدن العربية الأخرى على العموم، فبأيديهم تركّزت السلطات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحقوقية والدينية. وقد ساعدهم على ذلك كونهم القيمين على الكعبة وسدنتها). (د. طيب تيزيني: علم الكلام والفلسفة العربية، منشورات جامعة دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٢م، ص ٢٠).

ويقابل هذه الطبقة طبقة أخرى، وهي تشكل شريحة واسعة من المجتمع المكي، تفتقر إلى أسباب التملك وشروطه، وهي مرغمة على أن تعايش أوضاعا اقتصادية سيئة، وعلى أن تعمل تحت مظلّة الطبقة المسيطرة، من تجار ومرابين، وزعماء عشائر وقبائل، وبالتالي ستفتقر هذه الطبقة إلى شروط السيادة، وسيكون تأثيرها في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية محدودا جدا، لأنّ جلّ همومها ستنحصر في البحث عن كفاف عيشها، وهذه الطبقة هي طبقة (العوام الأحرار وأنصاف الأحرار والأرقاء (العبيد) الذي كان وضعهم الاجتماعي والاقتصادي مترديا ويزداد سوءاً... لقد وجدوا أنفسهم من خلال عملية كسب حياتهم متعارضين في مصالحهم مع التجار الكبار وأصحاب البنوك والمرابين). (المرجع السابق، ص٢١).

ومع زيادة نشاط الحركة التجارية في مكة ستزداد حاجة التجار إلى تسيير قوافل جديدة، وستحتاج هذه القوافل بدورها إلى من يحميها من هجمات اللصوص وقطاع الطرق والبدو. وستتولى أرقاء مكة حماية هذه القوافل، ومن هنا يصبح هؤلاء الأرقاء سلعاً مهمة بالنسبة للتجار، ويزدادون كلما زاد عدد القوافل، وكلما توسعت التجارة وغزت مدناً وبلداناً جديدة، ويصبحون مهمين في العملية الاقتصادية والتجارية كأهمية السلع المستوردة أو المصدرة، من توابل وبخور وصوف وحرير ومجوهرات وغيرها. فحياة هؤلاء العبيد واستمرارها ترتبط اقتصاديا بتوسع رقعة التجارة وازدهارها من جهة، وبمدى طاعتهم المطلقة لأسيادهم من جهة أخرى.

إنّ نزعة التملك تطوّرت بفعل سيادة منطق التجارة لتتعدى كونها امتلاكا للأموال والعقارات، ولتصبح نزعة تدميرية جشعة هدفها امتلاك الرجال والنساء والأطفال، وتحويلهم إلى سلع مهمة في العملية الإنتاجية، ومع نمو عملية الاستيراد والتصدير وافتتاح الأسواق الجديدة سيشتري التجار مزيدا من العبيد والإماء والجواري من أصقاع بعيدة ويحشرونهم في أسواق مكة ومنازلها ليقوموا بأحطّ المهن وأقساها روحيا وجسديا. وسيتكاثرون ويلدون عبيداً مثلهم، وسيصل التشريع التجاري والاقتصادي السلعي في مكة إلى اعتبار أنّ الأطفال الذين يولدون من أب حرّ وأمّ مسترقة هم عبيد أيضاً. وهكذا تتناسل سلالات العبيد، ويتكاثرون وفق حمّى التجارة والتبادل السلعي، ويصبحون جميعا،هم وأولادهم، ملكا للسادة زعماء القبائل وأصحاب القوافل التجارية.

ومع ظهور الإسلام وانتشاره في الجزيرة العربية لم يتوقف العرب عن تثمير أموالهم، فقد نشطت التجارة وازدهرت، وغرق الناس في حمّى البيع والشراء، وزادت أملاكهم التجارية وقطاعاتهم الزراعية، ونهاهم القرآن الكريم عن تعاطي الربا، إذ حرم الربا تحريما مطلقاً، وحدد السبل الجائزة لتثمير الأموال، ونهى عن المحرّمة منها، ولم يحارب التجارة، بل أشاد بها، واعتبر أرباحها فضلا من الله. تقول الآيات الكريمة: «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون». الجمعة: ١٠، «وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله». المزمل: ٢٠ «ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما». الإسراء: ٦٦، «ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون». الروم: ٤٦ وغيرها من الآيات الكريمة.

وعندما انصرف نفر من هؤلاء العرب عن أمورهم الدينية، وتقاعسوا عن أداء واجباتهم الدينية والإنسانية، وأصبحت

إنّ التباين الطبقي في المجتمعات العربية ظهر ابتداء من القبيلة مرورا بالإسلام، وتجذّر في المجتمعين الأموي والعباسي، حتى امتدّ قويا إلى مجتمعاتنا المعاصرة



الدنيا وأموالها شغلهم الشاغل، وضمرت مشاعرهم الإنسانية النبيلة، وبدأت تذبل شعلة الإيمان فى صدورهم. عاد القرآن الكريم وحذّرهم من لهو الدنيا وتجارتها، والتمادى فى تكديس الأموال وكنزها، وأكد لهم أنّ الإيمان بالله ورسوله، والجهاد فى سبيله، والابتعاد عن الغى والضلال هو التجارة الرابحة، تقول الآيات الكريمة: «وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خيرٌ من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين»، الجمعة:١١، و«أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين»، البقرة: ١٦، و«يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون»، الصف: ١٠، ١١ و«والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم»، التوبة:٣٤.

وإذا كانت التجارة فى بنيتها العميقة تشكل حاجة شديدة الضرورة لتواصل الناس والمجتمعات البشرية فيما بينها، وسبباً رئيسا من أسباب الانتعاش الاقتصادى، وعصبا مهما فى حياة الناس، فإنها أسهمت من خلال غشّ التجار واحتكارهم وتلاعبهم بالأوزان إلى تكريس التباين الطبقى، وزيادة إفقار الفقراء، وزيادة الملكية الفاحشة لدى الأغنياء والتجار والأمراء وأصحاب السلطة عن طريق الربح، ودورة رأس المال المستمرة.

يقول ابن خلدون: «إنّ معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأغلى من ثمن الشراء، إما بانتظار حوالة الأسواق أو نقلها إلى بلد هى فيه أنفق وأغلى، أو بيعها بالغلاء على الآجال. وهذا الربح بالنسبة إلى أصل المال يسير. إلاّ أنّ المال إذا كان كثيرا عظم الربح، لأنّ القليل فى الكثير كثير. ثم لا بد فى محاولة هذه التنمية الذى هو الربح من حصول هذا المال بأيدى الباعة بشراء البضائع وبيعها وتقاضى أثمانها. وأهل النصفة قليل: فلا بدّ من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع، ومن المطل فى الأثمان المجحف بالربح، كتعطيل المحاولة فى تلك المدة وبها نماؤه، ومن الجحود والإنكار المسحت لرأس المال إن لم يتقيد بالكتابة والشهادة»(١). (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. عبد الواحد وافى، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، دون تاريخ، ٢/ ٩٢٨).

ومع انتشار الإسلام وتوسع رقعة الدولة الإسلامية ازدهرت التجارة، وتدفقت الأموال الكثيرة على المسلمين، وزادت أملاكهم، نتيجة لدورة رأس المال النشطة، ولقدوم الثروات من البلاد البعيدة الغنية التى دخلها المسلمون غانمين فاتحين، أو فارضين الجزية، وعرفت الطبقة الأرستقراطية فى قريش فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٢٣ . ٣٥ هـ / ٦٤٤ . ٦٥٦م)، الثراء الفاحش، فأكثرت من امتلاك كلّ شىء: الضياع والبساتين والمنازل والعبيد والجوارى. وإذا كانت حمّى التملك قد هدأت قليلا فى عهد النبى محمد (ص)، وفى عهدى الخليفتين: أبو بكر الصديق (١١ . ١٣ هـ /٦٣٢ . ٦٤٣م)، وعمر بن الخطاب (١٣ . ٢٣هـ / ٦٣٤ . ٦٤٤م)؛ بسبب تشذيب الإسلام لها، والحدّ من نزعتها المتأججة، فإنها سرعان ما فارت من جديد فى عهد الخليفة عثمان بن عفان، حتى أننا نجد أن الخليفة نفسه قد أصابته هذه الحمى، فقد كان من كبار ملاك الأموال والعقارات كما يؤكد المسعودى حين يقول: «وبنى داره (أى عثمان) فى المدينة وشيدها بالحجر والكلس، وجعل أبوابها من الساج والعرعر واقتنى أموالا وجنانا وعيونا بالمدينة، وذكر عبد الله بن عتبة أنّ عثمان يوم قتل كان له عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف خيلا كثيرا وإبلاً». (أبو الحسين على المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمى للطباعة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩١م، ٢/ ٣٤٩ . ٣٥٠).

وقد شاركه الصحابة فى الثراء وامتلاك الضياع والمتاع، وزادوا عليه فى العبيد والإماء، يقول المسعودى أيضا: «وفى أيام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور: منهم الزبير بن العوام، بنى داره بالبصرة (...) نزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهاز من البحريين وغيرهم، وابتنى أيضا دورا بمصر والكوفة والإسكندرية (...) وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وألف عبد وأمة». (المصدر السابق، ص٣٥٠).

وإذ أثرى كبار القوم، وامتلكوا فى عهد عثمان، وعاشوا عيشة الملوك فى مأكلهم ومشربهم، وبذخوا وأسرفوا، واقتنوا الضياع والجوارى والعبيد، وتركوا بقية المسلمين يتضورون جوعا وفقرا مدقعا، فإننا نجد أن الوضع كان مغايرا فى عهد الخلفاء: أبو بكر وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب. فقد مات أبو بكر وما ترك درهما ولا دينارا، كما يذكر ابن حجر فى كتابه: الإصابة فى تمييز الصحابة. أمّا عمر بن الخطاب فقد حجّ «فأنفق فى ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر دينارا، وقال لولده عبد الله: لقد أسرفنا فى نفقتنا فى سفرنا هذا». (مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٢/ ٣٥١). أمّا الإمام على بن أبى طالب (٣٥ . ٤٠ هـ/٦٥٦ . ٦٦١م)، فلم يترك صفراء ولا بيضاء، إلاّ سبعمائة درهم بقيت من عطائه، أراد أن يشترى بها خادما لأهله، وقال بعضهم: ترك لأهله مائتين وخمسين درهما ومصحفه وسيفه». (المصدر السابق، ٢/ ٤٣٤).

إنّ السياسة التى اتّبعها الخليفة عثمان بن عفان وحاشيته الأرستقراطيّة عمّقت التباين الطبقى فى المجتمع الإسلامى، وقد عملت هذه السياسة على تشكيل طبقة أرستقراطية أسهمت فى استثمار بيت أموال المسلمين وتثميرها لحسابها الخاص، وقرّبت هذه السياسة الأثرياء والتجار، وأبعدت الفقراء، واستضعفتهم، وتحت ظلّ هذه السياسة وتوجهاتها أتت الخيرات الكثيرة من الأصقاع البعيدة، وصبت فى أرصدة هؤلاء الأثرياء. (لمزيد من الاطلاع ينظر: المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، عندها سيكتشف القارئ مدى ثراء طلحة ابن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، وسيرى إلى أىّ مدى وصل إليه فجور الأثرياء وتهتكهم فى عهد الخليفة عثمان ابن عفان، ومن هؤلاء الأثرياء الوليد بن عقبة وغيره).

ومن جراء هذه السياسة أصابت الفاقة والحرمان معظم أبناء الأمة، ولم يسلم منها رجال عرفوا بدورهم الحضارى والإنسانى فى نصرة الرسول (ص) والدين الحنيف، ومنهم أبو ذر الغفارى الذى استشعر الخطر المحدق بالأمة، فيما إذا استمرّ ثراء بطانة الخليفة وأعوانه، وبطرهم، فما كان منه إلاّ أن رفع صوته عاليا داعيا إلى تطبيق السنة النبوية، محرضا ضد جميع مظاهر الترف والبطر والفساد المستشرى، فتذمّرت هذه الطبقة من أبى ذر، وخافت من ردود أفعال البسطاء والفقراء ضدها، فما كان من مروان بن الحكم إلا أن رفع «أمر أبى ذر إلى أمير المؤمنين عثمان، فبعث إليه أن يجىء، فلما دخل عليه بادره بقوله: ما هذا الذى بلغنى عنك يا أبا ذر. قال وما بلغك عنى يا أمير المؤمنين؟ قال عثمان: إنّك تحرّض الناس علىّ. فقال أبو ذر: وكيف ذلك؟ قال عثمان: إنّك لا تقرأ فى المسجد إلاّ: «والذين يكنزون الذهب

مات أبو بكر وما ترك درهما ولا دينارا، أمّا عمر بن الخطاب فقد حجّ «فأنفق فى ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر دينارا، وقال لولده عبد الله: لقد أسرفنا فى نفقتنا فى سفرنا هذا»



والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشّرهم بعذاب اليم». فابتسم أبو ذر برصانته وهدوئه، وقال: أو فى هذا تحريض على أمير المؤمنين!! أم أنّ أمير المؤمنين، لأمر ما، يريد أن يمنعنى من قراءة كتاب الله. إننى ماض فى قراءة كتاب الله وتعليمه المسلمين، وحملهم على قراءته، وإن أسخط هذا أمير المؤمنين. وما كنت أحسب أنّه يسخطه. فلئن كنت حريصا على رضاك، أنك أمير المؤمنين، فإننى على رضى الله أحرص. هذا ما علمنيه كتاب رسول الله، وأنا أؤمن بالذى تعلّمت وعلّمت». (عن/ على ناصر هلال، أبو ذر الغفارى، سلسلة «الثائرون العرب فى التاريخ»، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثانية، دون تاريخ، ص ١٠٦).

ومع أفول عصر الخلفاء الراشدين، واستلام الأمويين مقاليد الحكم فى الدولة الإسلامية، زادت حمّى التملك وغرق الناس فى النعيم والثراء، وغنائم الحروب والفتوحات، وأترف الناس وبطروا، ورقّ الدين، وابتعد كثير من المسلمين عن مسار الإسلام الصحيح الذى خطّه النبى محمد بن عبد الله (ص) تأسيسا على ما جاء فى كتاب الله.

وأثرى القادة والأمراء والخلفاء وعمال الأقاليم ثراء فاحشا، وزاد فقراء الناس فقرا وحرماناً وتكرّس التباين الطبقى، وكانت كل محاولة لتقليص البون الشاسع بين الطبقات أمراً مستحيلاً بعد أن أشادت الأرستقراطية الأموية دعائم الغنى والثراء والرشاوى والفساد، والاغتيالات السياسية لجميع معارضيها، وعملت على تهميش الفقراء والمستضعفين، وأتخمت المدن نساء وأملاكاً وإماء وعبيداً، وكلّ ما لذّ وطاب فى مكة والمدينة والكوفة وبغداد والبصرة وغيرها من الأقاليم الأخرى. ويقول الدكتور شوقى ضيف بهذا الصدد، استنادا إلى ما جاء فى كتاب الأغانى لأبى فرج الأصفهانى: «فمكّة لم تكن تقلّ فى هذا العصر (عصر الأمويين) ثراء عن المدينة، وهو ثراء استتبع بناء القصور المشيدة التى تختال جمالا وبهاء، وقد بنى معاوية لنفسه فيها دورا لقّبت «بالرقط» لاختلاف ألوانها، أحضر لها بنائين من الفرس، ومع ذلك كان إذا حجّ وقف مبهوتاً إزاء بعض قصورها الأخرى. ومعروف أنّه اتسع فيها بناء القصور والدور اتساعا كبيراً لعهد عبد الله بّن الزبير حين اتخذها مقراً لخلافته(...) ولم تغرق مكة فى دور وقصور وعيون فحسب، بل لقد أخذت تغرق إلى آذانها فى الترف والنعيم. فإذا نفر من أهلها يأكلون ويشربون فى صحاف الذهب والفضة، ونفر يلبسون مقطعات الخزّ والسندس والديباج والحلل الموشاة على كل لون، والطيب وأنواع العطور تفوح منهم. وبالغ النساء فى ذلك كله وفى اتخاذ الحلى وصنوف الجواهر». (العصر الإسلامى، دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٧٧م، ص ١٤٥ ـ ١٤٦).

وفى دمشق أثرت الطبقة الأرستقراطية الأموية ثراء أسطوريا فاحشا، وابتعدت عن القيم الإسلامية السمحة، ومفاهيم الدين الصحيح، باعتباره ديناً أمميا، أُرسل لجميع بنى البشر. واستغلّت هذه الطبقة جميع الطبقات التى هى أدنى منها، وسادت منظومة جديدة من القيم التى رأت فى المال والثراء والعربدة والخمور جنّة أرضية لا زوال لها. وأثرى الخلفاء والأمراء وسدنتهم، وجميع من رضوا عنه من مدّاحين ومنافقين ومقرّبين ونساء وجوارى وحظيات، ودخلت الأموال إلى دمشق لتملأ خزائن الخلفاء وأعوانهم. ويقول الدكتور شوقى ضيف استنادا إلى المصادر: «ولم تكن حمول الذهب والفضة تُحمل وحدها إلى بنى أمية من الآفاق، فقد كانت تُحمل معها حمول الجواهر واللآلئ كما يحدثنا الجهشيارى، ويروى الطبرى أنّ يوسف بن عمر حمل إلى هشام بن عبد الملك لألئ حبها أعظم ما يكون وحجرا من الياقوت يخرج طرفاه من الكف، قُوّم بثلاثة وسبعين ألف دينار، وقد بلغ الترف أقصاه فى عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى عاش اللهو والغناء، حتّى تحوّل قصر الخلافة فى عهده إلى ما يشبه دارا كبيرة من دور اللهو، ويقولون إنّه «كان يلبس حول عنقه قلائد ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة، ويغيّرها فى اليوم مرارا كما تغيّر الثياب شغفاً». (المرجع السابق، ص ١٩٥).

وسيكون لقناطير المال الداخلة إلى دمشق دور فى إفساد الذمم والضمائر، وسيفتتن الناس بالحياة الجديدة، ويبطرون، وسيكون المال والامتلاك والتجارة، غايات كلية فى حياة الأثرياء، وسيؤدى هذا المال إلى تسليع المرأة، وشراء الاف الجوارى من الأصقاع البعيدة المفتوحة، ليفتتن الناس بها، ويبتعدوا تدريجيا عن قيم الحق والخير والعدل، ويستكينوا لواقع الدّعة والرفاهية هذا. ألم يؤكد القرآن الكريم أنّ المال فتنة، «واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة وأنّ الله عنده أجر عظيم» الأنفال: ٢٨.

وسيزداد سعار الخلفاء والأمراء الجنسى، ورغبتهم فى امتلاك النساء فالقات الجمال الضاجّات بالإثارة الجنسية، واستهدائهنّ من عمّالهم على ولايات الدولة الإسلامية، وستلعب هذه الجوارى فيما بعد دورا كبيرا فى إلهاء هؤلاء الخلفاء وأولادهم الأمراء وقادة شعوبهم، عن النهوض بمهامهم وواجباتهم تجاه مواطنيهم، وستربى هذه الجوارى جيلا من المولدين لا همّ له إلاّ النهل من الملذات وجمع الأموال والبطر والعبث بأموال بيت مال المسلمين وأقواتهم. وهاهو الخليفة هشام بن عبد الملك، على الرغم من كثرة جواريه وحظاياه فى دمشق يطلب من عامله على إفريقية أن يرسل له مزيدا من الجوارى المتميزات عن جوارى دمشق وبمقاييس جمالية خاصة لا تتحقق فى جوارى دمشق. كما يروى محمد بن أحمد التجانى (ت ٧٠٩ هـ /١٣٠٩م) حين يقول: «كتب هشام بن عبد الملك إلى عامله على إفريقية: أمّا بعد فإنّ أمير المؤمنين لما رأى ما كان يبعث به موسى بن نصير إلى عبد الملك (أى إلى والده عبد الملك بن مروان) أراد مثله منك، وعندك من الجوارى البربريات المالئات للأعين، الآخذات للقلوب ما هو معوز لنا بالشام وما والاه، فتلطّف فى الانتقاء، وتوخّ أنيق الجمال، وعظم الأكفال، وسعة الصدور، ولين الأجساد، ورقّة الأنامل، (...) وجدالة الأسوق (السيقان)، وجثول الفروع (أصول) ونجالة الأعين، وسهولة الخدور، وصغر الأفواه، وحسن الثغور، وشطاط الأجسام، واعتدال القوام، ورخامة الكلام، ومع ذلك فاقصد رشدة المولد وطهارة المنشأ فإنهنّ يُتخذن أمهات أولاد، والسلام». (تحفة العروس ومتعة النفوس، تحقيق د. جليل العطية، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن/ليماسول، الطبعة الأولى، حزيران/ يونيو، ١٩٩٢م، ص ١٧٦).

وقد أسهم ترف الخلفاء الأمويين وبطرهم الأسطوريان فيما بعد فى تقويض أركان دولتهم، وقد أحس المستضعفون والفقراء وبعض الفقهاء فى هذه الدولة، بظلم حكامهم وسفههم، وأعربوا عن رغبتهم العميقة بزوال هؤلاء الحكام. وها هو الفقيه شقيق بن سلمة يقول لسليمان بن مهران الأسدى الأعمش المحدث المشهور(٦١ ـ ١٤٨ هـ /٦٨١ ـ ٧٦٥م) عن خلفاء بنى أميّة: «يا سليمان والله ما عند هؤلاء تقوى أهل الإسلام ولا أحلام أهل الجاهلية». (عن/ هادى العلوى، فى السياسة الإسلامية، دار صحارى، بودابست، الطبعة الثانية، ١٩٩١م، ص ٦٦).

ومع زيادة الملكية فى الدولة الأموية والاستئثار بها من قبل فئة معينة فى هذه الدولة، ظهرت كثير من مظاهر العبث والشذوذ والانحرافات فى القيم والضمائر والعادات والأخلاق، وازداد الأغنياء أنانية

مع أفول عصر الخلفاء الراشدين، واستلام الأمويين مقاليد الحكم فى الدولة الإسلامية، زادت حمّى التملك وغرق الناس فى النعيم والثراء، ورقّ الدين، وابتعد كثير من المسلمين عن مسار الإسلام الصحيح



وفردية وتسلطا وصلفا وغروراً، وهذه حال كثير من الخلفاء والقادة والتجار وذوى النفوذ فى الدولة الأموية، ويمثّل الخليفة يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٣ هـ / ٦٨٠ - ٦٨٤م) قمّة مظاهر الترف والبطر التى حلّت بالدولة الأموية، إذ يقول المسعودى عنه: «كان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب، وجلس ذات يوم على شرابه، وعن يمينه ابن زياد، وذلك بعد قتل الحسين، فأقبل على ساقيه فقال:

اسقنى شربة تروى حشاشى
ثمّ مل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السرّ والأمانة عندى
ولتسديد مغنمى وجهادى

ثمّ أمر المغنين فغنوا به.

وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهى، وأظهر الناس شرب الشراب، وكان له قرد يكنى بأبى قيس يحضره مجلس منادمته، ويطرح له متكأ، وكان قردا خبيثا وكان يحمله على أتان وحشية قد ريضت وذُلّلت لذلك بسرج ولجام ويسابق بها الخيل يوم الحلبة، فجاء فى بعض الأيام سابقا، فتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيل، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات الوان بشقائق، وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر منقوش ملمع بأنواع من الألوان(...). وفى يزيد وتملكه وتجبره وانقياد الناس إلى ملكه يقوله الأحوص:

ملك تدين له الملوك مبارك
كادت لهيبته الجبال تزول
تُجبى له بلخ ودجلة كلها
وله الفرات وما سقى والنيل».

(مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٣/٧٩ - ٨٠).

وإذا كان حكام الأمويين غرقوا فى نعيم الحضارة ومباهجها، وتفننوا فى مأكلهم ومشربهم، وغرقوا فى الأموال والجوارى والإماء، وامتلأت خزائنهم بأموال الجزية وغنائم الحروب، وأموال الدولة ورواتبها العالية المنهوبة من خيرات الشعب، وتحضروا وأترفوا و ابتنوا القصور، وأكلوا فى صحاف من الذهب والفضة ما لذ وطاب، ولبسوا السندس والديباج المزركش، وقلائد الذهب والأحجار الثمينة، وألبسوا حيواناتهم الأليفة مثلما لبسوا، وتعطّروا بجميع أنواع الطيب، فإنّ ذلك لا يعود إلى أن الحضارة متأصلة فى طباعهم، بل لأنه يعود إلى انفتاحهم على العالم الخارجى، وتثاقفهم مع هذا العالم وتأثرهم به من منحى، ومن منحى آخر لا يستهان بدور الموالى والجوارى الأنيقات المتعلمات القادمات من الفرس والروم والأصقاع البعيدة، الذين كانوا وراء كثير من مظاهر عادات الحكام الأمويين فى المأكل والملبس والسلوك، ولو لم يتأثر هؤلاء بالعالم الخارجى السابق عليهم حضارة لما رقّت طباع بعضهم، ولما عرفوا البذخ والترف والتفنن فى المأكل والمشرب ونظام الحياة اليومية، ولو لم يفتحوا البلدان الأخرى لما أصبحوا أثرياء. ولا نغالى إذا قلنا أنّ ثراءهم الفاحش لم يكن بجهودهم وعرقهم، بل كان نتيجة حتمية لاستغلال شعبهم المطحون بمرارة خبزه اليومى من جهة، و استغلالهم خيرات غيرهم من الأقوام الأخرى التى سبقتهم حضارة ومعرفة ورقياً من جهة أخرى.

ويرى ابن خلدون أنّ الدولة عندما تنتقل من مرحلة البداوة إلى مرحلة الحضارة، فإنها تقلّد دولاً سابقة لها فى الازدهار، وأكثر رقيا وحضارة منها، يقول: «وأهل الدول أبداً يقلّدون فى طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم فأحوالهم يشاهدون؛ ومنهم فى الغالب يأخذون. ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم، ولم يكونوا لذلك العهد فى شيء من الحضارة. فقد حُكى أنّه قُدّم لهم المُرقّق (نسيج خاص يلبسه الأثرياء) فكانوا يحسبونه رقاعاً، وعثروا على الكافور فى خزائن كسرى فاستعملوه فى عجينهم ملحاً. وأمثال ذلك. فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم فى مهنهم وحاجات منازلهم، واختاروا منهم المهرة فى أمثال ذلك والقومة عليهم أفادوهم علاج ذلك، والقيام على عمله، والتفنن فيه، مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن فى أحواله. فبلغوا الغاية فى ذلك. وتطوروا بطور الحضارة والترف فى الأحوال، واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمبانى والأسلحة والفُرش والآنية وسائر الماعون والخُرثى (أثاث البيت). وكذلك أحوالهم فى أيام المباهاة والولائم وليالى الأعراس، فأتوا من ذلك وراء الغاية». (مقدمة ابن خلدون، ٢/ ٥٤٨ - ٥٤٩).

وتزول الدولة الأموية على يد عدو كان قد عقد العزم على تقويضها. أقصد العباسيين. نظرا لفقدان الأمويين شرعية استمرارهم فى السلطة، ولابتعادهم عن مفاهيم القرآن وتعاليمه، وسنة رسول الله محمد (ص)، «والحق أنّ رؤية الخليفة (الأموى) يتباهى بأعماله الطائشة على مشهد من الناس ومسمع أثار غيظ العنصر المتدين فى مجتمع كان أساس وجوده الرئيسى هو الدين. بل إنّ المزاج الدنيوى الخالص الذى غلب على الأمويين المتأخرين جعل سيل النقمة الأخير يبلغ الزبى فانضاف إلى نهر الكراهية الجبار المندفع نحو دمشق»، على حدّ تعبير روم لاندو. (الإسلام والعرب، تعريب: منير البعلبكى، دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الثانية، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٧م، ص ٧١ - ٧٢).

أحسّ المستضعفون والفقراء وبعض الفقهاء فى الدولة الأموية، بظلم حكامهم وسفههم، وأعربوا عن رغبتهم العميقة بزوال هؤلاء الحكام

وقد أضفى العباسيون على دولتهم الطابع الدينى الذى يضمن لهم الاستمرار، وجمع المستضعفين والبؤساء حولهم، وتأجيج صدورهم ضدّ الأمويين.

ويهلل لقيام العباسيين ودعوتهم كثير من الناس والجماعات المعارضة للنظام الأموى فى كثير من ولايات الدولة الإسلامية. ويتنفسون رياح التغيير والثورة بعمق، إذ يعتقدون أنّ كابوس الاستغلال والتباين الطبقى الذى عانوا منه سابقاً سرعان ما سيتلاشى، وذلك بإعادة رجال السلطة المسلمين إلى المسار الصحيح الذى رسمه لهم، ورفع رايته محمد بن عبد الله (ص)، ونزعهم مما علق بهم من عادات الترف والبطر والاستغلال والبطش والاستبداد، لكنّ هؤلاء الجماعات الطامحة إلى التغيير وبناء دولة الحق سرعان ما يصابون بالخيبة والإحباط. فقد سلك العباسيون الطريق نفسها التى سلكها عدوهم (الأمويون)، بل زادوا عليه بطرا وفسوقا وتسلطاً، واستعباداً وثراء، واستغلالا لغيرهم. و«وقد زعم العباسيون أنهم قضوا على دولة عصبية لا تعمل بالإسلام ليقيموا مكانها خلافة صحيحة. والواقع أنّ العباسيين تظاهروا بالدين ثمّ استخدموه فى سبيل الحصول على فوائده (التى تجمع الأقوام المتفرقين على هدف واحد) لا حباً بخصائصه الروحية. ثمّ إنّ مسلكهم لم يكن يدلّ على أنهم كانوا أقلّ انغماسا فى أحوال الدنيا من أهل الدولة التى قضوا عليها. وكان العباسيون أبعد ما يكون البعد عن جعل دولتهم إسلاميّة، ولكنهم استخدموا الدين حتى يخلعوا على دولتهم تلك شيئاً من الشرعية ويكسبوا لها شيئاً من الاحترام». (د. فيليب حتى، الإسلام منهج حياة، تعريب: د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، آذار (مارس) ١٩٨٣م، ص ١٧٩).

ونتيجة لسلوك العباسيين الاستبدادى قام الفلاحون والعبيد بانتفاضات عديدة فى كثير من الأقاليم التابعة للدولة العباسية، وأعربوا عن استيائهم الشديد من موجة الاضطهاد والاستبداد التى تعرضوا لها بفعل سطوة الأمراء العباسيين وعمالهم وممثليهم على الأقاليم والولايات. لكنّ هذه الانتفاضات كانت كثيرا ما تُقمع بعنف ووحشية.

وأثرى العباسيون،



وتدفقت عليهم الأموال من مختلف ولايات الدولة، وازدهرت حياة الأمراء والتجار والأثرياء وقادة الجند الاقتصادية، ونشطت التجارة نشاطا كبيرا فى رقعة مكانية مترامية الأطراف تمتد من المحيط الأطلسى غرباً إلى الصين شرقا، ومن شمال المتوسط وبحيرة قزوين شمالاً إلى النيجر جنوبياً وبذخ العباسيون، وأترفوا تخمة وخمورا ورقصا وموسيقى وجوارى ونساء فائقات الجمال قادمات من أبعد دساكر ولايات الدولة العباسية. وأسرف علية القوم فى تبذير أموال الدولة على ملذاتهم الشخصية، وانصرفوا «إلى صنوف البذخ وضروب التبذير و الترف، فاقتنوا الجوارى واتخذوا الفرش من الخز و الديباج والحرير والمسامير الفضة، وابتنوا المتنزهات والقصور والمدن واقتنوا الندماء وانشأوا مجالس الغناء، وارتكبوا سائر ضروب الترف، والتأنق فى الطعام واللباس والرياش.وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الإسلامى، وأطلقوا أيدى نسائهم وأمهاتهم و خاصتهم فى الأموال»، كما يذكر جرجى زيدان. (تاريخ التمدن الإسلامى، المجلد الأول، الجزء الثانى، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، ص ٣٧٩).

ومارس بعض الخلفاء العباسيين، وبعض أمرائهم، وقادة جيوشهم، وعمالهم على ولاياتهم، استبدادا وبطشا واغتصابا للخيرات والأموال والنساء، وبزوا خلفاء الأمويين وقادتهم فى ذلك، ومارسوا تخريب كلّ ما هو إنسانى و جميل وأصيل فى الحياة الاجتماعية و الاقتصادية، وارتكبوا جميع أنواع الموبقات والمفاسد. وما يثير الانتباه والعجب فى مسلكهم أنهم انفجروا سعارا جنسيا جامحا، إذ استنفروا غرائزهم الجنسية واندفعوا بها لاهثين صوب أجساد النساء، واندفعوا لاهثين لامتلاك النساء والجوارى والحرائر وبكثرة مذهلة تكاد لا تصدق، وعلى سبيل المثال تشير المصادر التاريخية إلى أن الخليفة هارون الرشيد كان يملك فى قصوره (٢٠٠٠) جارية، و(٣٠٠) قينة للترفيه عنه بالغناء والموسيقى، أما المعتصم بالله فقد كان فى مقاصير قصوره (٨٠٠٠) جارية، واكتفى المتوكل على الله باتخاذ (٤٠٠٠) جارية وحظية من أجمل النساء. (عن/د. خليل أحمد خليل، المرأة العربية وقضايا التغيير، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٢من ص ٧٠). وفى جو الامتلاك هذا عانت المرأة استلاباً وتقزيماً، لأنها مضطرة لأن ترضى جموح الخليفة الجنسى وأولاده، فقد تحولت من امرأة كريمة معطاءة ومنتجة إلى امرأة مستهلكة ينحصر همها فى ترفيه الرجل السلطوى وإطفاء سعاره الجنسى، بل إلى أن تكون سلعة تنتقل من خليفة إلى آخر، ومن أمير إلى آخر، ومن نخاس إلى آخر بفعل نشاط تجارة الرقيق، حتى يلاحظ أن جارية متميزة جماليا كعريب تناوب على شرائها خمسة خلفاء من خلفاء الدولة العباسية، وهم: الأمين وأخوه المأمون، ثم المعتصم بالله، فالواثق بالله، إلى أن استقرت فى قصور المتوكل على الله. ولم يكتف بعض الخلفاء بما فى قصورهم من نساء شرعيات حرائر، وغير حرائر ممن وقعن تحت حكم الامتلاك، بفعل الإهداء أو الشراء، بل لجأ بعضهم إلى تسخير زوجاتهم الشرعيات ليكن أداة مساعدة على الاحتيال على نساء أخريات خارج دائرة الامتلاك السابقة، ثم الوصول إليهن جنسيا سواء أكان ذلك بالرضى أم بالاغتصاب. ويروى محمد بن أحمد التجانى نقلا عن كتاب (تاريخ بغداد) لابن أبى طاهر ما يلى: «كان فى المهدى حب وغزل فى النساء فبلغه عن عونة بنت أبى عون جمال وهيئة فقال للخيزران (زوجة المهدى) استزيريها فاستزارتها، فلما سارت عونة إليها قالت لها الخيزران: هل لك فى الحمام؟ قالت لها: إذا شئت، فدخلت معها فلم تشعر عونة إلاّ والمهدى قائم على رأسها وهى عريانة فدخلت خلف الخيزران واستترت منه فجذبها، فأخذت كرسياً وقالت: والله لئن دخلت علىّ أو دنوت منى لأهشمنّ به وجهك، فقال لها: إنما أردت أن أنظر إليك لأتزوجك، فقالت: لا سبيل إلى ذلك. فانصرف عنها.

وبلغه عن بنت الوزير أبى عبيد الله مثل ذلك ففعلت الخيزران الفعلة بعينها، ودخل المهدى فجذبها فقالت: أنا أمتلك فافعل بى ما أحببت فصرف الخيزران ووقع عليها، فنال منها ما أحب، فلما انصرفت أخبرت أخاها عبيد الله بذلك فكلفها باستزارة الخيزران، ودخلت الحمام معها، فلم تشعر الخيزران إلاّ بعبيد الله قد هجم عليها فاستترت فقال لها: أمّا إنّا لو أردنا أن نفعل ما فعلتم فى حرمتنا لفعلنا و لكنّا لا نستحل ذلك، فانصرفت الخيزران وأعلمت المهدى بذلك فتجنّى عليه بعد مدة فقتله». (تحفة العروس ومتعة النفوس، ص ٤٣٨،٤٣٧).

وقد بلغ التملك والثراء، والبذخ والبطر والترف، والفساد وتبذير أموال المسلمين على تشييد القصور، وعلى السرارى والحظايا أوجه فى عصر الخليفة العباسى المتوكل على الله، ويقول المسعودى عن هذا العصر: «إنّه لم تكن النفقات فى عصر من العصور ولا وقت من الأوقات مثلها أيام المتوكل. ويقال: إنّه أنفق على الهارونى والجوسق الجعفرى (قصران من قصور المتوكل) أكثر من مائة ألف ألف درهم، هذا مع كثرة الموالى والجند والشاكرية ودرور العطاء لهم وجليل ما كانوا يقبضونه فى كل شهر من الجوائز والهبات.

ويقال: إنّه كان له أربعة آلاف سرية وطئهنّ كلّهنّ (...)، ولا يعلم أحد فى صناعته فى جدّ ولا هزال إلاّ وقد حظى فى دولته، وسعد بأيامه، ووصل إليه نصيب وافر من ماله». (مروج الذهب ومعادن الجوهر، ١٣٥/٤).

لقد أسهمت الأموال التى غصّت بها خزائن الخلفاء العباسيين، وخزائن بقية أفراد الطبقة الأرستقراطية فى المجتمع العباسى، فى زيادة تهميش المستضعفين (بفتح العين والفاء)، وزيادة بؤسهم وشقائهم، وزادت من استغلالهم، وذلك بتحويلهم إلى خدم وأجراء بسطاء يبيعون قوة عملهم لهؤلاء الخلفاء والأرستقراطيين البطرين الغارقين فى مختلف صنوف الفساد وأشكاله، والذين بددوا أموالهم وأموال الدولة على الجوارى والخمور والمغنيات، وعلى كلّ من دان لهم بالطاعة والولاء فى فضاءات قصور واقعية باذخة بدت وكأنها من نسيج المخيلة. ويُحكى عن «أحد أبناء العمال (الولاة العباسيين) أنّه أضاع ثروته على بعض المغنيّات، ثمّ مات خادم كان مولى لأبيه، وابن عمّ فى يوم واحد، فحصل له من تركتهما أربعون ألف دينار، فعمّر داراً بألف دينار، واشترى آلات وفرشا وثياباً وجوارى ثلاثاً بسبعة آلاف دينار، وسلّم لتاجر ألفى دينار يتجر له فيها وأودع فى بطن الأرض عشرة آلاف للشدائد، وابتاع بالباقى ضيعة تغل فى كلّ سنة ما يزيد على مقدار نفقته»، كما يذكر آدم متز. (الحضارة الإسلامية، ترجمة أبى ريدة، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٥٧م).

وإذا كانت السيدة الخيزران، زوج الخليفة المهدى، قد ملكت ثمانية عشر ألف ثوب موشى بأفخر أنواع الوشى، وإذا كانت زوج ابنها . الخليفة هارن الرشيد . السيدة زبيدة أم جعفر، قد صرفت من خزينة الدولة العباسية مبلغ خمسين ألف دينار ثمن ثوب واحد من الوشى من بين ثيابها الكثيرة، كما أشرنا سابقاً، فإنّ فقراء بغداد كانوا يتضوّرون جوعا وحرمانا، وكانوا شبه عراة يجوسون متشردين مكسورين ومقهورين بحثاً عما

نتيجة لسلوك العباسيين الاستبدادى قام الفلاحون والعبيد بانتفاضات عديدة فى كثير من الأقاليم التابعة للدولة العباسية، وأعربوا عن استيائهم الشديد من موجة الاضطهاد والاستبداد

يسدّ رمقهم، وهاهو أحد ممثلى طبقتهم وكان يسمّى برأس النعجة، يصرخ محتجاً على هذا التباين الهائل بين طبقته، وبين طبقة السلطة والأثرياء. ويعترض طريق محمد بن سليمان (والى الخليفة هارون الرشيد على البصرة الذى كانت ثروته خمسين ألف ألف درهم سوى الضياع والدور وغيرها من الأملاك، والذى كان دخله اليومى مائة ألف درهم)، ويقول له: «يا محمد، أمن العدل أن تكون نحلتك فى كلّ يوم مائة ألف درهم وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه؟ ثمّ التفت إلى سوّار (قاضى البصرة فى عهد محمد بن سليمان) فقال: إن كان هذا عدلاً فأنا أكفر به»، كما يروى المسعودى. (مروج الذهب ومعادن الجوهر: ٣/٣٧٠).

وإزاء مظاهر الثراء الفاحش التى غرق بها قادة النظام العباسى وأعوانه ومريدوه، أحسّ كثير من مثقفى الدولة العباسية بزيف دعوى هذا النظام، وأدانوا سلوك قادته وأمرائه، وأعلنوا رفضهم لهذا الواقع واجترءوا على قادته وخلفائه. وها هو الشاعر العباسى بشار بن برد يطعن بأخلاق الخليفة المهدى ويهجوه ساخطاً:

خليفة يزنى بعمّاته
يلعب بالدبّوق والصولجان
أبدلنا الله به غيره ودسّ موسى فى حِرِ أمه. (الطبرى، ٨/١٨١).

وها هو بشار يسخر من عبث الخليفة المهدى ومجونه، هو ووزيره يعقوب بن داود الذى آلت إليه كثير من مقاليد الدولة العباسية أيام المهدى. ويقول:

بنى أميّة هبّوا طال نومكم
إنّ الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فاطّلبوا
خليفة الله بين الدف والعود.
(الطبرى، ٨/١٥٦).

لقد أعطت بغداد الثرية رجال سلطتها وتجارها كل ما يشاءون من عزّ وجبروت ونساء وأموال وضياع وبساتين، وحرمت فقراءها من أبسط الأشياء، وحتى من نصف الدرهم على حدّ تعبير رأس النعجة كما أشير إلى ذلك سابقاً.

ويمكن القول فى نهاية هذا المقال إنّ المال والتجارة على الرغم من أهميتهما فى المجتمعات الإسلامية، ودورهما فى الانتعاش الاقتصادى والاجتماعى، والازدهار العمرانى فى هذه المجتمعات، أسهما بشكل غير مباشر فى تكريس العبودية، وظهور طبقة الضعفاء ابتداء من العصر الجاهلى حتى العصر الرأسمالى الحالى، وما كان الفرز الطبقى والتباين الحاد بين الجماعات الإنسانية عبر تشكّلها التاريخى إلا نتيجة رئيسة لاستبداد السلطة من جهة، واستثمار المال وتكثيره، بطرق تقوم على الاستغلال والخداع والمكر من جهة أخرى. ولا نغالى إذا قلنا إنّ نشاط التجارة بأرباحها الفاحشة، وغشّ تجارها، وظهور طبقة المرابين، وخروجها عن مفاهيم القرآن الكريم والإسلام الصحيحة، وتثمين المال بشتى طرق الحرام، كانت العامل الأساسى فى إفساد السياسة والسلطة والحكام والوزراء والقضاة والولاة، وغيرهم، وهى بدورها مهدت لظهور البغاء بين الغلمان والجوارى والإماء والحرائر أيضاً، ودفعت النساء والرجال إلى الرذيلة والفجور، وارتكاب كل ما هو منكر وحرام، وهى أسهمت إسهاما كبيرا فى انحلال كثير من القيم الإنسانية الأصيلة، وتكريس قيم الاستهلاك والسلعة والبطر والفجور بدلا منها.

وبعد أن ارتبطت التجارة بالسياسة، وأصبح كثير من الحكام من كبار التجّار والمرابين، أصبحت تشكّل قوة تسيّر بينات المجتمع وتوجهاته وعلاقاته، وقد أسهمت هذه القوة فيما بعد فى انحطاط المجتمعات الإنسانية، إذ سادت جميع مظاهر الغشّ والتزوير والاحتيال والنصب والاختلاس والمكايد والمؤامرات، وعملت على تخريب الحسّ الجمالى والإنسانى عند كثير من الناس، وفجرّت فيهم نزعتهم التدميرية الوحشية نحو التملك والقتل والجريمة، وامتلاك النساء وتأبيد عبوديتهنّ، وتحويلهن إلى سلع جميلة مثيرة يتداولها من كان ذا سطوة ومال. ■

(١) شرح المفردات فى نص ابن خلدون:

بانتظار حوالة: أى الأمل فى أن تتحول الأسواق، فترتفع أثمانها، عندئذ يستطيع التجار لرؤوس أموالهم ربحا وفيرا.

. نفقت البضاعة: راجت وكثر طلابها.

. فى تقاضى أثمانها: أى لا بدّ فى محاولة هذه التنمية من حصول هذا المال بأيدى الباعة فى شراء البضائع وبيعها ومعاملتهم فى تقاضى أثمانها..

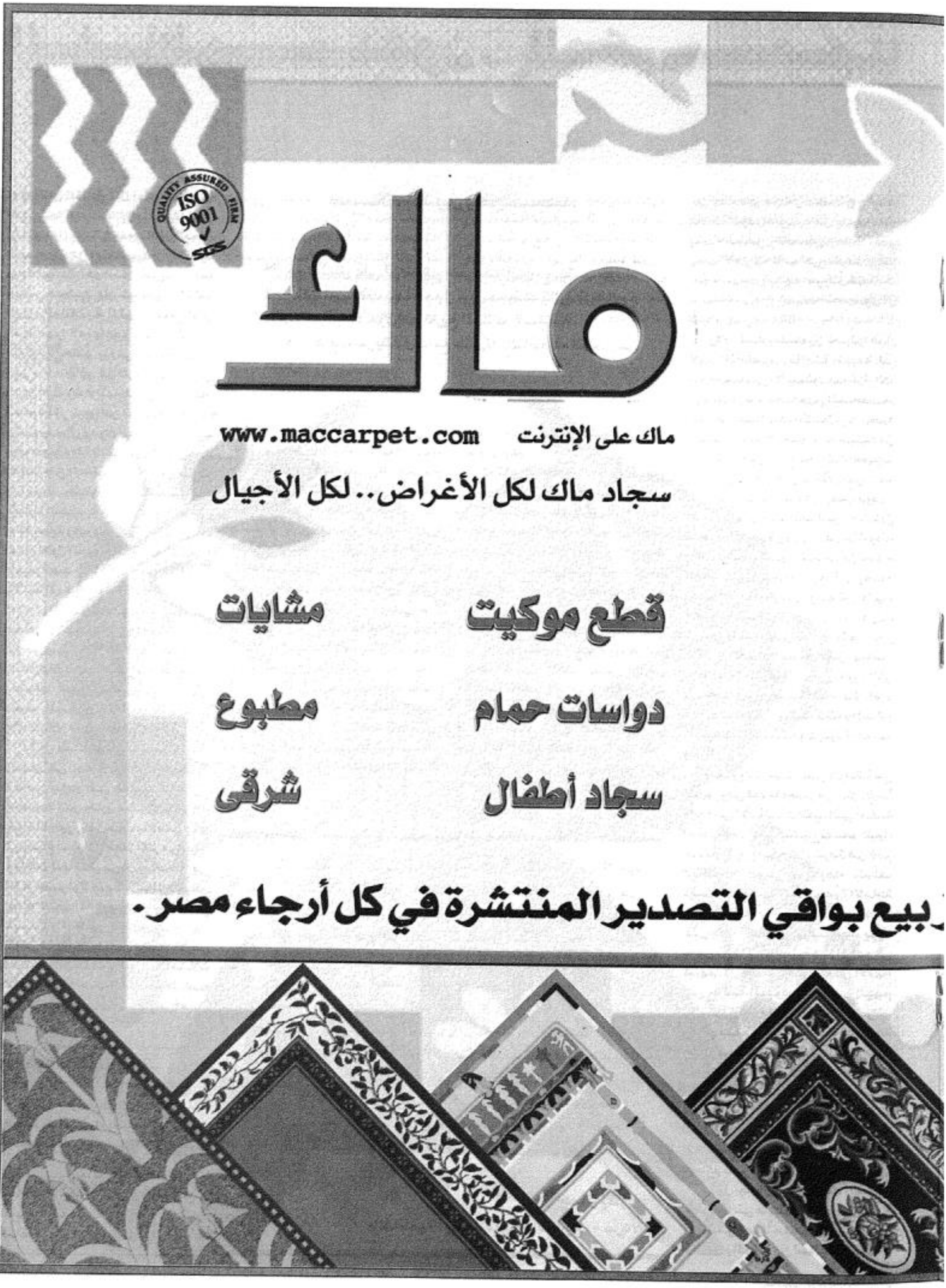
. أنصفت الرجل: عاملته بالعدل والقسط، الاسم النصفة بفتحتين على الصاد والفاء.

. السحت: الحرام وما خبث من المكاسب، وأسحت الشىء: أستأصله، والمسحت لرأس المال: أى المستأصل لرأس المال.






متواجد في مراك


QUALITY ASSURED FIRM
ISO 9001
SGS
ماك
ماك على الإنترنت www.maccarpet.com
سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
قطع موكيت
مشايات
دواسات حمام
مطبوع
سجاد أطفال
شرقى
بيع بواقي التصدير المنتشرة في كل أرجاء مصر.

الفاطميون.. الحكم..

علاء الدين وحيد

مع الاتفاق على أن معظم صفحات التاريخ تكتب بمداد السلطان، لم يتوقف يومًا الجدل حول محطات كثيرة فى التاريخ الإسلامى أو بالأحرى فى تاريخ الممالك الإسلامية.
هذا كتاب آخر يتناول تاريخ «الدولة الفاطمية» الملتبس فى مصر.

يظن الكثيرون أن أسلوب الإلهاء الذى يلجأ إليه الحكام العرب والمسلمون المستبدون بشتى الوسائل، لإبعاد الجماهير عن التفكير فى حقوقها والمطالبة بها.. هو ابتكار جديد بينما العكس صحيح. وأوضح نموذج لذلك الدولة الفاطمية، التى تعد من أكثر الدول قهراً لأمتها. وبرعت فى الإلهاء إلى درجة يحتذى بها فى خداع الشعوب. وعن هذا الجانب فى تاريخ الفاطميين الذين استمرت دولتهم قرنين من الزمان تحكم شطراً كبيراً من العالم الإسلامى، يقدم جمال بدوى مؤلفه الجديد «الفاطمية دولة التفاريح والتباريح».. دفاعاً عن العقيدة والأمة وحرية الشعوب.. حلقة من حلقات كتابات مفكرنا السياسية والحزبية والقومية والتاريخية وغيرها، التى تستهدف فى المقام الأول الوعى الكامل ليقظة حقيقية ضد الاستبداد والقهر والظلم والانحراف فى الماضى والحاضر - التى تعرض الوطن للانهيار.. ضد كل المفاهيم التى تهمش العقل وتغيب الوعى وتقصى الأمة عن القيام بمسئولياتها فى الدفاع عن حرياتها وحقوقها.. هذه المفاهيم المريبة التى تفرض السير مع التيار التواكلى والاستسلام لقوى الطغيان.

يقول مفكرنا فى مقدمة كتابه: «التهاون فى الدفاع الوطنى والاستقلال الذاتى، يؤدى إلى ضياع الوطن.. وخضوعه لكل طارق مشبوه». (ص٥). يقع هذا اليوم كما حدث بالأمس وأدى إلى ضياع استقلال مصر أكثر من مرة.. «وما كان للفاطميين أن ينجحوا فى غلبة مصر لولا ضعف النظام الحاكم، وغفلة الشعب المحكوم، والفراغ الذى أتاح للعملاء والطابور الخامس أن يمهد الأرض للجيش القادم ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جوراً.. فامتلأت الأرض خللا واضطراباً وإلحاداً. إنه درس لا ينبغى أن ننساه». (ص٥٢).

وما أشبه الليلة بالبارحة..

وبلغ من نجاح الفاطميين الأسطورى فى إلهاء الشعب المصرى عن مقاصدهم السرية، ومحاولة تحويله من مذهبه السنى إلى مذهبهم الشيعى، أن ظلت مظاهر هذا الإلهاء قائمة منبثة فى حياتنا إلى اليوم بعد زوال حكمهم بمئات السنين، فى الإقبال على ما أذاعوه من احتفالات وتقاليد وبدع لم يكن للمسلمين بها عهد من قبل، فى استغلال المناسبات الدينية مثل الاحتفاء بالمولد النبوى والإسراء والمعراج والنصف من شعبان وغيرها، وتفريغها من محتواها الحقيقى إلى مظاهر هامشية تبعدهم عن جوهر العقيدة لتمكين السيطرة عليهم وتسييرهم وفق المخطط الإسماعيلى المرسوم.. وهو الأسلوب التقليدى لنظم الحكم المستبدة. وتغلغل هذا الإلهاء أبقى للفاطميين فى الحس الشعبى على مر العصور ذكرى طيبة تقترن بالهزل واللهو والحلوى الشهية كالقطايف والكنافة وعاشوراء فى شهر رمضان وغيره.

لم تكن الفاطمية وهى دعوة سياسية بالدرجة الأولى مجرد مذهب دينى كما يظن الكثيرون، يصب فى توكيد الجوهر الروحى للإسلام ويقدس قيمه فى الحياة ويساوى بين معتنقيه فى الصغيرة والكبيرة، بل هو يعلى من شأن «على» على حساب أبى بكر وعمر. ويصل بابن عم النبى إلى مرتبة القداسة، ويذهب بعض فرقه إلى أنه أولى بالنبوة من محمد صلى الله عليه وسلم. وأخطر من هذا كله سياسياً «أن تراث النبى العربى، لم يكن تراث أمة هداها الله إلى الإسلام، وتراث رياسة معنوية جاءت ثمرة الرسالة النبوية، وإنما كانت تراثاً شخصياً، وميراثاً خالصاً لأسرة النبى، صاحب هذه الرسالة، وأن النبى أوصى بهذا التراث إلى ابن عمه على بن أبى طالب، زوج ابنته فاطمة الزهراء، وبنيه من بعده، أبناء ولديه الحسن والحسين. وهكذا تغدو رياسة الأمة الإسلامية فى نظرهم، ووفقاً لتأويلاتهم ورواياتهم، ميراثاً خاصاً، لا يليها «حتى يوم القيامة، أحد سوى آل البيت». (ص١٧-١٨).

ولأن الحكام المسلمين تحولوا قبل ظهور الفاطميين بأزمنة طويلة إلى حكام مستبدين، لا يعملون بما أنزل الله بل بما تفرضه مصالحهم الشخصية، فقد أصبحت المبادئ الإسلامية مجرد لافتات خادعة لا تطبق مضامينها بل عكسها، الذى يقع بحماية الحديد والنار. فلا عجب أن يبدأ المعز لدين الله الفاطمى عهده بالخداع أيضاً، موهماً المصريين أنهم وما يعتقدون فى ظل مذهبهم السنى فى أمان. وعندما تتوطد أركان حكمه يكشر - كما يفعل حكام القهر - عن أنيابه ولا يعبأ أن يصدم الجماهير بما يكرهون. ورغم كل الإلهاء الذى بذل ومع استمرار دولتهم قرابة قرنين ظلت مصر سنية. ولم يتأثر الإنسان المصرى مهضوم الحق بمظاهر الإغراق فى الترف والسرف والأبهة التى فضحت من ناحية أخرى تقواهم المزعومة، والتى واكبت نظام الحكم وأصبحت للمتسلقة والمرتزقة القدوة والمثال.

والدعوات المهتزة غير الواثقة من نفسها ومن قوة ما تحمل من مثل، تلجأ دائماً إلى الأساليب الملتوية التى تدغدغ غرائز الجماهير وتشبع نهمهم فيها، مستغلة جهلهم بالاستزادة فى فكر المذهب من المعجزات والأوهام، وكذلك فعلت الفاطمية. فإذا بدعوة الإمامة فيها تتلبس بادعاء الغيب والمقدرة على إتيان الخوارق، ورأينا كيف يؤيد بعض دعاة الإسماعيلية هذه المزاعم فى كتبهم. بل وكيف يرفعون بعض الأئمة إلى مرتبة النبوة، وينسبون إليهم بالفعل إتيان الخوارق والمعجزات، وكيف ينفى بعض الدعاة من جهة اخرى نسبة هذه المزاعم إلى الأئمة، ثم رأينا بعد ذلك كيف كان الخلفاء الفاطميون يتجهون إلى التعلق بمدارك الغيب، ويغلب عليهم شغف الخفاء» (ص٢٩). وهكذا كان من الطبيعى أن يتسق ذلك مع ادعاء الحاكم بأمر الله الألوهية!

يقول جمال بدوى: «هذه الحقبة الطويلة التى عاشتها الدولة الفاطمية لم تثمر تحولاً مذهبياً فى الشارع المصرى بالرغم من أساليب الدعاية

«تلك حلقة من حلقات التاريخ المصرى فى مطلع الألفية الثانية لم تأخذ حقها فى الذيوع والانتشار، رغم أهميتها القصوى فى الكشف عن صلابة الشعب المصرى، ورفضه الصارم لكل ما يمس عقيدته الخالصة فى التوحيد. والمؤسف أن هذه الصفحة المجيدة - من تاريخ مصر فى العصر الفاطمى - ضاعت فى زحام الدعاية التى يروج لها بعض أنصار الفاطمية عن الأعياد والاحتفالات والسهرات والنفحات وأصناف الحلوى التى كانت سمة من سمات العصر، ولم تكن كل هذه المباهج إلا ستاراً لإخفاء حقيقة الدعوة الفاطمية وما تحمله من أسرار غريبة وأفكار شاذة، ومعتقدات مناقضة للعقيدة الإسلامية الخالصة. ولم تكن دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله إلا تطوراً طبيعياً للفكر الإسماعيلى الذى جاء به الفاطميون، وظل خافياً عن الشعب المصرى طوال عهد المعز لدين الله، وابنه العزيز، ثم كشفت عن وجهها السافر فى عهد الحاكم بأمر الله».

جمال بدوى

«الفاطمية دولة التفاريح والتباريح» - ص٧٥

الفاطمية دولة التفاريح والتباريح
جمال بدوى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤.

القهر.. والإلهاء

الجبارة وأفانين المغريات التى قدمها الفاطميون.. لقد أكل المصريون الكنافة والقطايف والخشاف وحلاوة المولد وذرفوا الدموع على مصرع الحسين وعملوا فى خدمة الدولة ومؤسساتها وإداراتها ومصالحها وقبضوا مرتباتها.. ولكنهم وقفوا موقف المستريب من فكرها وعقيدتها ومذهبها، خاصة فى المرحلة التى كشف فيها النظام عن صبغته المذهبية، وخلع النقاب عن حقيقة دعوته السرية.. وعندها بلغ الصدام بين الدولة والشعب درجة التلاحم بالخناجر والبلط فى شوارع القاهرة»! (ص١١-١٢).

وكما تقول المقدمة فكتابنا ليس تأريخاً للدولة الفاطمية ولكنه «محطات» ذات دلالة توقف عندها صاحبها، تتناول تكوين الشعوب صعوداً وهبوطاً واتجاهات الحكام المسلمين قرباً وبعداً عن العقيدة ووقع الأحداث المصيرية إخلاصاً وافتعالاً.. وهى كلها تنبض بالواقع المأساوى الذى يفرضه تجبر المسئولين واستكانة المواطنين أو مقاومتهم. من هذه الجوانب.. اطمئنان الجمهور المصرى لقدوم الفاطميين - الذين جهل مقاصدهم - وترحيبه بهم وعدم صدهم كمغيرين فى أواخر حكم الإخشيديين. يفسر جمال بدوى ذلك



بقوله: «فبعد وفاة «كافور» تعرضت البلاد لمحنة اقتصادية، واشتدت عليها الضائقة. والشعوب إذا بلغت حد اليأس وتكالب عليها المفسدون، نفضت يدها من الحاكم المحلي، ومدت يدها إلى المنقذ حتى لو كان أجنبياً». (ص٤٣).



ويكذب الكثيرون إلى اليوم مزاعم الفواطم في اتصال نسبهم بعلي بن أبي طالب، ويزيد من الشكوك أن أغلب أعمالهم تناقض مواقف ابن عم النبي. وقد حفلت صفحتهم بالقسوة والعنف والقتل التي بلغت ذروتها في عهد الحاكم بأمر الله، الذي ولغ منذ صباه في سفك الدماء وأعمل سيفه في رقاب وزرائه وكل من يغضب عليه وما أكثرهم. وبلغ افتراؤه على الإسلام درجة الإلحاد وإعلان نفسه إلهاً. «إن كبيرة الكبائر التي ارتكبها الحاكم: هي ادعاؤه الألوهية.. ورعايته الدعوات الإلحادية التي هبت على مصر من جانب دعاة الفرس الإسماعيليين الذين وجدوا في شخصية الحاكم واضطرابه العقلي، فرصة سانحة للكشف عن أغراضهم الخبيثة في هدم الإسلام، وصارت مصر مهداً خصباً لطائفة من الدعاة السريين، والدعوات المذهبية والإلحادية المغرقة، وكان الحاكم من وراء هذه الدعوات يرعاها ويرقب تطوراتها حتى استحالت في أواخر عهده إلى دعوة جريئة إلى «ألوهيته»، تمخضت هذه التيارات الخفية عن عاصفة دموية مروعة اختتم بها ذلك العهد الحافل بصنوف المفاجآت والأحداث العجيبة». (ص٥٩).

ولعل أشهر الحركات الإلحادية التي واكبت تأليه الحاكم بأمر الله ظهور المذهب الدرزي نسبة إلى منشئه محمد بن إسماعيل الدرزي - أحد مرتزقة الحكم الفاطمي - الذي لا يزال أصحابه يؤمنون إلى اليوم برجعة الحاكم بأمر الله!

لم تكن عمليات غزو الفواطم للمصريين قائمة على الإلهاء والخداع والشعارات فحسب بل اعتمدت أيضاً على الفكر الفلسفي والعقائدي المشبوه الذي تبلور في «دار الحكمة»، بعد إنشاء الأزهر. «إن نظام الحكم الفاطمي كان أشبه بجمعية سرية هدفها هدم الإسلام من داخله تمهيداً لإقامة الدعوة الإسماعيلية التي تستمد أصولها من مذاهب وتيارات فلسفية مناقضة للإسلام». (ص٧٥-٧٦).

ومن إفرازات حكم القهر السامة في مختلف الأزمنة خيانة الوطن إلى درجة تحالف الحاكم المسلم مع أعداء قومه من الصليبيين. إن التكالب على السلطة والحرص على الحكم والعض بالنواجذ على الرئاسة والمغانم، يطيش العقل وتصبح القضية حياة أو موتًا.. وهكذا يقتل السلطان فلذة كبده أو شقيقه ويدوس على قومه في سبيل التمسك بالحكم، وهو ما أدى في النهاية إلى انهيار الدولة الفاطمية.

وإحدى «المحطات» التي توقف عندها جمال بدوي هو ما يمثل الأدب المرتزق الذي يخون شعبه وهو يضع فنه في خدمة أولياء النعم الحكام المستبدين، ويتجسد في الشاعر عمارة اليمني الذي عاش زمناً طويلاً في ركاب الفاطميين منافقاً مرتزقًا مادحاً هجاء. وتكون سطور «عمارة شاعر لكل العهود». وإن تساءل بعض القراء ألم يكن الشاعر ابن هانئ الأندلسي أولى في هذا المجال بالتقديم، وهو الذي لا يزال يضرب به المثل في الانحطاط والسقوط والفجور، عندما خاطب المعز لدين الله الفاطمي بقوله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار ■


التميز هو أسلوبنا
الوثيقة الرائدة
أرباحك معانا ممكن تصل إلى
١٤٥ جنيه سنويا لكل ألف جنيه
من مبلغ التأمين تدفع في نهاية مدة التأمين
طبقا لآخر معدل لتوزيع الأرباح
وفي حالة الوفاة (لا قدر الله)
يستحق لك مبلغ التأمين
بالإضافة إلى ما يخص الوثيقة
من أرباح حتى تاريخ الوفاة
مهما كان سنك
ومهما كان دخلك
هتلاقي الوثيقة
اللي تناسبك
مصر للتأمين
الحاصلة على شهادة الأيزو ٩٠٠١/٢٠٠٠
الإدارة المركزية ٤٤ أ ش الدقي - الجيزة :ت ٠٢/٣٣٥٥٣٥٠
منطقتا القاهرة ٧ ش طلعت حرب - القاهرة :ت ٠٢/٣٩٣٢٦٠٠
الإسكندرية ٦٦ طريق الحرية :ت ٠٣/٤٨٤٧٢٥٠
القناة ميدان عرابي - الإسماعيلية :ت ٠٦٤/٩١٥١٥٧
شرق الدلتا ٨ ش الجيش - برج المحافظة - المنصورة :ت ٠٥٠/٢٣١٠٩٦٣
وسط وغرب الدلتا ٢٥٥ ش الجلاء - طنطا :ت ٠٤٠/٣٣٢٦٢٠٨
شمال ووسط قبلي أرض سلطان - ش طه حسين - المنيا :ت ٠٨٦/٣٣٦٦١٢٢
جنوب قبلي ١٤ عمارة مصر للتأمين طريق أسيوط - سوهاج :ت ٠٩٣/٣٢٢٢٧٤
W-site:www.misrins.com
E-mail:misr_ins@misrins.com

فـــى غـــــابـة الفكـــــر.. الأســـــد

محـــمـــــد المهــــــدى

■■ هناك أسطورة أفريقية تقول إن الأسد (الشاطر) كان يستعرض قوته فى كل مكان.. وحينما دعا الحيوانات لاجتماع دفع الإتاوة اليومية لم يحضر الفيل (العاقل) الذى يحفظ سيرة الإنسان والأجيال عبر الزمان، ثار الأسد وقال: إذا كان الفيل يختال بخرطومه فأنا أستطيع أن أقطعه بقضمة واحدة.. وإذا كان معجبا بثقل قدمه فأنا أستطيع أن أشلها بطعنة من مخالبى.. وإذا كان واثقا لضخامته فأنا أستطيع أن أجره من ذيله إلى الأرض. تطورت الأحداث والتقى الأسد والفيل. هجم الأسد على خرطوم الفيل بأنيابه فلم تنغرز فى لحمه. وهجم على قدمه الضخمة بمخالبه فلم تصل إلا لسطح جلده.. وتقدم أخيرا إلى ذيل الفيل فى محاولة لجره وإذلاله فتحرك الفيل فى وقار وجر معه الأسد.. فر الأسد لاعنا ساخطا. ضحكت الحيوانات وتوقفت عن دفع الإتاوة.

أهل أوروبا يشبهون علاقتهم بأمريكا بعلاقة الأسد بالفيل. الصداقة قائمة فى أمور السياسة والاقتصاد، أما الثقافة فموضوع آخر. يستعرض فيه الأسد الأمريكى، ويتوقر الفيل الأوروبى، ولأن الصداقة لابد أن تستمر بينهما، ولأن القوة لا تحل عقدة الثقافة عند الأمريكى، لذلك لجأ إلى أمرين... إما الاستهانة، أو السخرية من المنجزات التى تذكر بالأصول الأوروبية، أو خلق قاعدة ثقافية أو مبدأ فلسفى يناقش الواقع الحاضر تحت شعار البحث عن الحلول العملية، أو الاهتمام بالعلوم العلمية التى باتت تتحكم فى مقدرات العالم الحديث.

وعقدة النقص هذه هى التى جعلت الفيل الفرنسى (ديجول) يرفض الاتجاهات الأمريكية من السياسة الدولية، إلى نشرة الأخبار الإنجليزية.. وكان يعتبر الإنجليز فى جزيرتهم ملحقين بالأمريكيين طالما أصروا على الانعزال فى جزيرة تعتبر نفسها الأصل وأوروبا هى الفرع. كان يعتبر الإنجليز مصابين بعقدة العظمة. رفضوا الالتحاق بأوروبا، ولكن تحت شعار وهم السطوة الثقافية على أمريكا، قبلوا أن يكونوا ذيلا لأمريكا. وكان تاريخ إنجلترا يدرس فى المدارس الأمريكية كمادة مستقلة إلى أواخر القرن ١٩ رغم مرور أكثر من مائة عام على استقلال أمريكا عن إنجلترا. وفى أوائل القرن العشرين بدأ الوعى القومى الأمريكى فى تدريس التاريخ، وإن ظلت السطوة الثقافية لإنجلترا، إلى أن لجأ الأمريكيون إلى الحلول الخاصة، وهى الاستهانة بالماضى، أو خلق نمط خاص يعتمد فقط على الحاضر، وإن ظل الفيل الأوروبى متوقرا واثقا.

والاستهانة بالتاريخ أو محاولة التخلص من الماضى صاحبت بعض الثورات. الثورة الفرنسية أرادت التخلص من التاريخ السابق، وكذلك الثورة الروسية وعدلت الأولى عن موقفها، وانتهت دراسة التاريخ فى فرنسا إلى موضوعية جاءت فى تقرير عام ١٩٠٢ عن تدريس التاريخ يقول:

«أن يكتسب التلميذ بصيرة فى الحكم على أمته نتيجة لمقارنة أحوالها بأحوال غيرها من الدول، وأن يعلمه أن يولى الأمم الأخرى ما هى جديرة به من الاحترام، وأن يوسع أفقه العقلى. وأخيرا يوضح له عن طريق العلم بأحوال بلاده، وأحوال العالم واجباته كفرنسى وكإنسان». وعدلت الدولة السوفيتية عن عزل التاريخ عن التلاميذ عام ١٩٣٣ وقبلت مبدأ العودة لدراسة التاريخ وتدريسه بالتسلسل عوضا عن المجردات التى كانت تدرس من خلال علم الاجتماع.

وتعرض التاريخ لهزة أخرى أيام هتلر وموسيلينى. وفى نفس العام الذى عادت فيه روسيا إلى التاريخ المتسلسل عام ١٩٣٣، وازن هتلر منطقه قائلا: إن الموضوعية هى أحد الأوهام العديدة التى تنطوى عليها الليبرالية، إننا لا نعالج التاريخ مجردين عن الهوى، ولكننا سنعالجه كألمان. إننا لا يعنينا السرد للحقائق الموضوعية. إننا نكتب تاريخا للألمان. أما موسيلينى فقد ألغى تدريس التاريخ من أساسه إلى حين كتابة التاريخ على الصورة الرومانية.

وأعجبت هذه النتيجة كل الدكتاتوريات.

علم التاريخ كان دائما موضع نزاع، اعتبره البعض أبا للعلوم. وأقدم العلوم. وقال آخرون إن ملاحظة حشرة وهى تتحرك تعطى من الحكمة أكثر مما يعطى التاريخ اليونانى والرومانى القديم. وتخوف منه البعض، أو احترس فى تدريسه، أو فى محاولة تزويد الأطفال ثم الشباب بأحداثه. طالب البعض بجعله مادة حية يتولاها المؤرخ الخلاق. ووصلوا به إلى حد التركيب الدرامى، أو الروائى، كما يقدمه الآن الروائى أمين معلوف، أو الروائية رضوى عاشور.

وفى الستينيات من القرن الماضى نشر عالم الرياضيات المعروف (برتراند راسل) بحثا مهما لا يعتبر فيه التاريخ علما بل فنا. على المؤرخ أن يقرأ ويقرأ كل ما تصل إليه معارفه حول الفترة المراد تقديمها، ثم يستبعد المصادر ويبدأ فى الكتابة معتمدا على إحياء وحيثيات الحدث الذى نسجت خيوطه فى ذهنه.

التبسيط على الطريقة الأمريكية

وفى أبريل عام ١٩٨٠ دعيت لندوة هامة عقدتها مجلة هستوريا (HISTORIA) الفرنسية فى باريس بمناسبة صدور العدد ٤٠٠ تحت عنوان (الفرنسيون وتعليم التاريخ). ودارت فى مجملها حول الصراع بين المزاج الأوروبى أو الفيل الأوروبى الوقور، والمزاج الأمريكى أو الأسد الأمريكى المتهور فى غابة الفكر الغربى. شارك فيها بالمناقشة تسعة علماء تاريخ، مع اثنين من وزراء التعليم السابقين هما (إدجار فور EDGAR FAURE) و (ميشيل دبريه MICHEL DEBRE تولى سابقا رئاسة الوزراء). مع مشاركة وزير التعليم آنذاك (كريستان بولاك CHRISTIAN BEULLAC). وعدد آخر كبير من رجال الفكر والثقافة، والمناصب الرسمية، والسفراء ورجال التعليم. سجل الندوة التليفزيون، وعدة إذاعات، وعدد كبير من الصحفيين. ويكفى أن أذكر أن عدد الوقوف فقط فى القاعة بلغ ٢٠٠ مشارك.

أدار الندوة المؤرخ المعروف (آلان ديكو ALAIN DECAUX) وله سلسلة دراسات تاريخية هامة منشورة، أو تليفزيونية درامية. كان السبب فى عقد الندوة، أو السبب المباشر الذى فجر الأزمة برنامجاً تليفزيونياً أذيع من محطة أوروبا رقم (١) دار فيه حوار مع طلبة تتراوح أعمارهم ما بين ١٢ إلى ١٥ حول معلومات أولية عن التاريخ الفرنسى.. سأل المذيع:

* هل تعرف من هى جان دارك؟
- نعم... إنها امرأة كانت... لا أعرف.
* وحرب الجزائر هل سمعت عنها؟
- لا.
* ألا تعرف كانت ضد من؟
- كانت الجزائر ضد... لا أعرف.
* اذكر لنا معركة انتصر فيها نابليون؟
- وترلو.
* ١٥١٥ ماذا يعنى لك هذا التاريخ؟
- القرن الخامس عشر.

وكما هو معروف (وترلو) هزم فيها نابليون الهزيمة الساحقة، وعام ١٥١٥ دارت فيه معركة هامة انتصر فيها الفرنسيون ولا تنسب إلى القرن ١٥ كما ذكر الطالب، ولكن للقرن ١٦ كما هو واضح.

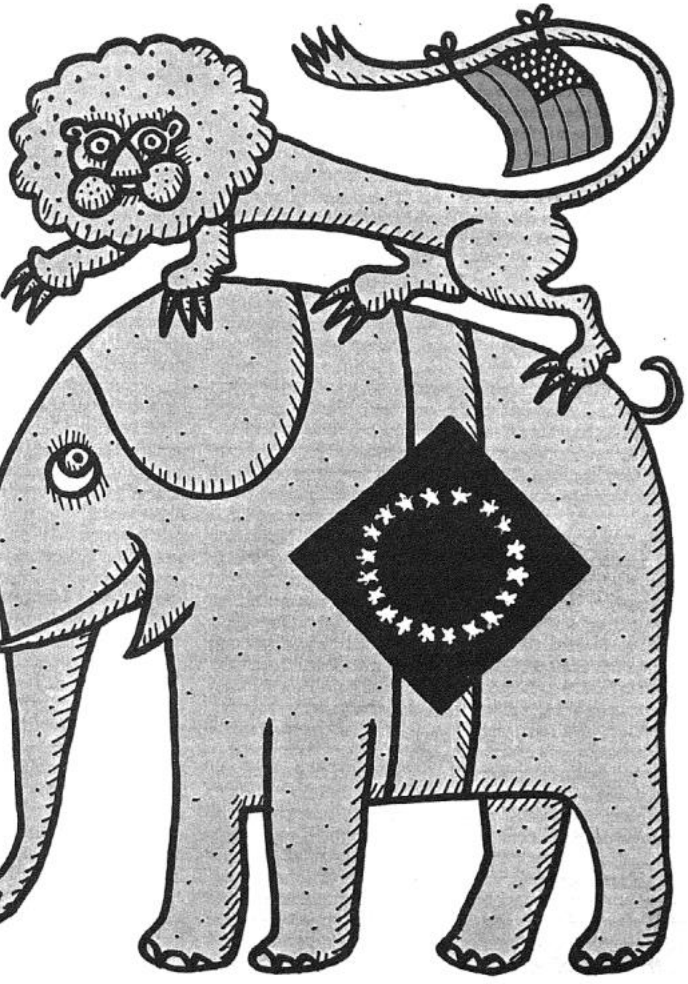
أثارت إجابات الطلبة الذعر، وجرى التساؤل: ماذا حدث لمستوى تعليم التاريخ فى فرنسا؟ ما مصدر هذا الخلل؟ هل هو التسيب العام؟ هل هو إهمال التاريخ؟ وإذا كان هل مصدره إدخال الأنظمة الأمريكية فى التعليم القائم على الدمج والتبسيط، والعموميات والاختيار من متعدد أو تجاهل المواد النظرية لحساب المواد العملية.

بدأ الندوة (آلان ديكو) بالحديث عن الاهتمام العام بالتاريخ، وكيف أنه نشر عام ١٩٤٦ مقالا حول تعليم التاريخ أثار ضجة لم يحدثها أى مقال آخر كتبه فى حياته. هذا الاهتمام العام بالتاريخ وتدريسه يجعلنا ننتبه لأهميته فى الوجدان العام. فالاتجاهات السياسية المعاصرة ما هى إلا حصيلة تراكمات تاريخية سابقة لا يمكن تجاهلها. وبالتالى لا يمكن أن نترك تدريس التاريخ للصدفة أو الغموض. والملاحظ أن التلميذ ينتقل من المرحلة الأولى من التعليم إلى الثانية دون الوصول إلى

بعد أحداث ١٩٦٨ ظهـرت محاولتـان ضد التاريخ. الأولى تقول بأنه لم يعـد هناك ما يستحق العناية أو الرعاية فى التاريخ. والثانيـة تنادى بالتعـديل أو إعفـاء المراحــل الأولى من دراسة التاريخ لصعوبة إدراك أهميته

الأمريكى والفيل الأوروبى!

فى أوائل القرن العشرين بدأ الوعى القومى الأمريكى فى تدريس التاريخ، إلى أن لجأ الأمريكيون إلى الحلول الخاصة، وهى الاستهانة بالماضى، أو خلق نمط خاص يعتمد فقط على الحاضر



تحديد واضح لأحداث التاريخ أو سنوات وقوعها، أو دور الشخصيات فيها. هذه الطريقة توقع التلميذ فى مجردات ولا تربطه بالواقع ولا تثير أيضا خياله.

وفى استفتاء أجرى حول أهمية تدريس التاريخ اقر ٦٢٪ بأهميته و ٦٤٪ طلبوا أن تخصص له دراسة خاصة. و٧٧٪ طالبوا أن يكون مادة إجبارية إلى آخر مراحل التعليم. وفى النهاية تحمس ٧٠٪ لضرورة العناية الخاصة والتركيز على تدريس التاريخ لأن الأحداث الحالية وسطوة القطب الواحد ما هى إلا نتيجة لخطوات الماضى.

وعلق ميشيل دوبريه فى حديثه الذى تلى آلان ديكو فقال:

إننا لا ندرس بإمكانية المشاركة، بقدر ما نقوم باستدعاء المشاركة نفسها. هذه المشاركة تقوم بدور التنبيه فقط. يقصد الاهتمام بالجانب التجريدى دون الواقعى. وهذا يعنى أن الطالب يخرج من المدرسة وليست لديه معلومات محددة عن تاريخه. وفى المراحل المتقدمة من التعليم لا يعرض على الطالب التاريخ المحدد مما يوقعه فى الغموض وعدم الاحساس بتتابع الأحداث. كما أننا نهمل التاريخ القومى لحساب الدعوة العالمية.

وبعد أحداث ١٩٦٨ (الاضطرابات الداخلية وترك ديجول الحكم) ظهرت محاولتان ضد التاريخ. الأولى تقول بأنه لم يعد هناك ما يستحق العناية أو الرعاية فى التاريخ. والثانية تنادى بالتعديل أو إعفاء المراحل الأولى من دراسة التاريخ لصعوبة إدراك أهميته. ثم ظهرت دعوة جديدة تقول بأن المشاعر العامة تتجه الآن إلى العالمية، لذلك يجب طرح العواطف القومية جانبا. واعتبر (دوبريه) أن هذه الدعوة هى أخطر الدعوات.

وتحدث (بيير جوبير PIERRE GOUBERT) أستاذ التاريخ فى السربون فقال: إن ما حدث من تعديل فى تدريس التاريخ أو دمجه فى مواد أخرى بدأ منذ عام ١٩٦٩. إن هذا الاتجاه هو الذى ألغى تدريس التاريخ فى الواقع. وتعجب من كيفية قبول تعديل تدريس التاريخ مع أنه لم يحظ بالتأييد فى استفتاء أجرى منذ عشرة أعوام (من تاريخ عقد الندوة) إلا بنسبة بين ١٠ أو ٢٠ ٪ فقط. ولكنه عاد ووضع يده على العلة - كما ذكر - وهى الأخذ بالأنظمة الأمريكية التى استهانت بالتاريخ والتى صارت هى نفسها موضع مراجعة شديدة.

وقال البروفيسور (جان

الأسـد الأمريكـى والفيـل الأوروبـى!



يقول شوفونيمـون ماذا لو فقدنـا الإحسـاس بقيمـة التاريخ؟ أو غرقنـا فى ظـروف الحاضـر؟ أليسـت هذه خطوات واضحة نحو (الأمركـة).. أمركـة التفكير الفرنسـى

تيلار (JEAN TULARD) المتخصص فى المرحلة النابوليونية، إن التاريخ فى مراحل التعليم يجب أن يعتمد على التسجيل المحدد. والملاحظ أن بعض الأراء الغريبة التى وردت عند بعض المؤرخين ما يزال لها صدى فى مراحل التعليم، أو أنها أصابت بعض الأحداث التاريخية بالسكونية. فكيف يمكن قبول قول المؤرخ (لافيس LAVISSE) ... (فى ملكية يوليو زاد عدد العمال، وبالتالى صاروا أكثر استقرارا). أو قوله (بعد عام ١٨٤٨ بدأت المآسى العالمية، وبالتالى فإن أسباب الثورات الهامة فى بعض الأحيان ليست لها صلة بأيامنا هذه). وإذا كانت بعض الأحداث العظيمة أو الشخصيات الكبيرة لم تمنع وقوع البؤس أو المآسى التاريخية، فإن الواجب يقتضى الحرص على عدم تجميد المفاهيم فى أذهان الطلبة. وكيف نتوقع أن يفهم التلاميذ هذه العبارة (إن الأقنان كانوا يباعون مع الأرض فى القرن ١٣) ما لم تكن هناك مقدمات تشرح نظام الرقيق فى القرن ١٣. إن القاعدة يجب أن تسبق حتى نشرح الحدث فى المرحلة التعليمية الأولى.

نحـو الأمركـة

وتحدث النائب الاشتراكى (جان بيير شوفونيمون JEAN PIERRE CHEVENEMENT) عن حجج الداعين إلى إلغاء التاريخ قائلا: أولا الاهتمام بتدريس التكنولوجيا العصرية، ثانيا: الاكتفاء بدراسة العلوم الاجتماعية عن التاريخ. ثالثا: قلة عدد المتخرجين من الفروع النظرية فى التاريخ، فى عام ١٩٧٢ كان هناك ٢٢٥ تخصصاً عالياً فى التاريخ. وفى عام ١٩٧٩ تقلص العدد إلى ٤٨ فقط. ناقش الحجج من زاوية سياسية فقال: إن محاولة تقليص التاريخ القومى لحساب التاريخ العالمى أو الاقتصاد العالمى هو فى الحقيقة محاولة رأسمالية أكثر منها دولية. هذه المحاولة التى تعطى أولوية للأحداث المعاصرة أو اللغة العالمية لا يوقفها إلا موقف سياسى حازم يستقيم به التاريخ الفرنسى على صفحات الكتب المدرسية. إنها محاولة إفقاد الذاكرة. إن صب الأفراد فى قوالب مكررة تحت شعار ثقافة حديثة هى محاولة تسعى لمصلحة قلة على خلاف ما تدعو إليه من عالمية فى الظاهر.

وتساءل النائب: ماذا لو ارتبطت فكرة إلغاء التاريخ بسياسة الدولة الرسمية؟

يقول شوفونيمون: ماذا لو فقدنا الإحساس بقيمة التاريخ؟ أو غرقنا فى ظروف الحاضر أو العموميات التى تحكم البعض.. هل هذه صدفة؟

أليست هذه خطوات واضحة نحو (الأمركة).. أمركة التفكير الفرنسى. وقال ساخرا... إنها دعوة لإلغاء الحلم. دعوة للاهتمام بالسوبرمان. وطالب بإعطاء التاريخ حقه.

هنا قال مقدم الندوة (آلان ديكو) إنه تلقى تعليقات مكتوبة بعضها يقول أن دعوة إلغاء التاريخ مؤامرة شيوعية. وقالت تعليقات أخرى إنها مؤامرة أمريكية. وقالت ثالثة إنها مؤامرة جيسكاردية (نسبة إلى جيسكار ديستان).

وتحدث البروفيسور (إيمانويل لو روى لادورى EMMANUEL LE ROY LADURIE) فى الكوليج دى فرانس فقال:

إن القضية فى رأيه ليست سياسية. إن الذاكرة لا تتصف بالثورية أو الرجعية. إنها التفكير بطريقة جمعية لما ننتمى إليه. التاريخ تتابع أجيال ومن المهم معرفة الأزمات التى مرت بها الأجيال من قرن لآخر. إن الطاعون الأسود الذى مر بأوروبا عام ١٣٤٨ لأجدر بالاهتمام فى أبعاده من معركة مارينان عام ١٥١٥ (انتصر فيها فرانسو الأول على السويسريين). وفى تدريس التاريخ لا يجب ترك جانب لحساب الآخر. التاريخ أحداث وشخصيات وتواريخ وظواهر اجتماعية. إن الطالب لديه الاستعداد للاهتمام بـ لويس ١٤ بقدر ما لديه الاستعداد لمعرفة أحوال الفلاح فى عصره. إن التعارض هنا مصطنع. الاساطير اليونانية والرومانية تثير شغف الطفل، وفى سن الثانية عشرة يصير أكثر اهتماما بالبطولات والشخصيات الكبيرة، ولا يؤثر هذا كما يصور البعض على تفكيره فى سن الثلاثين فيصير فاشستيا. وفى سن الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة يبدأ فى الاهتمام بالتاريخ البنائى. الانعزال أو المحلية يثيران الذعر. ولكن تحقيق الذات شىء لا يختلف عليه أحد... إذن لماذا لا يسعى الطالب لتحقيق ذاته عبر تاريخه، كمثل ما يحاول تحقيق ذاته عبر فريق كرة القدم؟ الخطوات الطبيعية هى التى تسير من المعرفة الأقل، إلى المعرفة الأكثر. ولكن يجب الاحتراس من تسييس التاريخ. النتيجة الطبيعية لذلك هى نفور الطالب من هذه المادة فى المستوى العام. وفى مستوى القوى الوطنية.

وتحدث (إدجار فور).. وزير التعليم السابق فوضع للتاريخ ثلاث ثمرات هى:

- التدريب على أدوات البحث، وتنمية قدرة النقد خاصة نقد الجذور نفسها. هنا يأتى دور الأرشيف والمكتبة، والوثائق المصورة الحية.
- التاريخ يعتمد على قاعدة يغذيها الماضى. ومعرفة الماضى مهمة فى إدراك أبعاد الحاضر. الماضى لا يعطينا تراكيب جاهزة قابلة للتطبيق. إنه يعطينا إدراكاً معمقاً للحاضر بوعى.
- التاريخ يشكل شخصية الفرد. يزوده بذاكرة إضافية. إننا نعيش فى عصر أصاب الفرد بالاختلال، ويستطيع التاريخ أن يعيد توازنه. وأذكركم بقول الفيلسوف جان لاكروا «حقيقة الذكرى (الماضى) هى بما تعد (فى المستقبل)».

انتهت الندوة بحديث كريستان بولاك (وزير التعليم آنذاك) تعرض فيه للمشاكل العملية من زيادة عدد التلاميذ وقلة مدرسى التاريخ. وأعلن عدة قرارات اتخذها بناء على ما أوضحته الندوة. بدءا من مناقشة دور التاريخ فى التربية القومية، إلى ما يجمل الأزمة آنذاك، والتى استمرت واحتدت الآن... وهى ضرورة التوازن بين ميراث تاريخ يجب الحفاظ عليه، وحاضر سياسى يكاد يفرض التغييب للتاريخ.

وانهى آلان ديكو الجلسة الأخيرة للندوة بالتذكير بكتاب (القياصرة القادمون) لمؤلفه أمورى د. رينكور.

فماذا عن هذا الكتاب ونبوءته التاريخية؟

القياصـرة القادمـون

كتاب (القياصرة القادمون) صدر فى الستينيات من القرن الماضى، ويعتمد فى قراءته للتاريخ على فكرة الدوران أو صعود الحضارات وهبوطها، ويستبعد بالتالى النظرية العنصرية القائلة بأن حضارات البشرية جميعا صبت فى حضارة الغرب، فهى القمة وهى النهاية (كما صورها فيما بعد فوكوياما) وهى الإبداع المتكامل. التاريخ فى نظر (رينكور) نبضات تنقبض وتنبسط، والانقباض هو لحظة الإبداع، ولحظة الإبداع هى إفراز للثقافة الأصلية، ولحظة الانبساط هى لحظة توزيع هذه الثقافة على أنحاء بعيدة وتحويلها إلى حضارة. فالثقافة فى نظره إذن لها صفة الفردية المبدعة فى كافة الأنشطة الإبداعية للإنسان، والحضارة لها صفة الجمعية، والانتشار، والمنفعة العملية. ويطبق هذه القاعدة على شعوب الأرض المبدعة قديمها وحديثها.

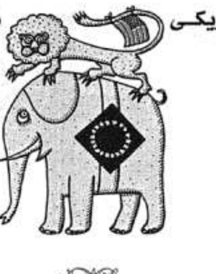
كيف ابدعت ثقافة؟ كيف تحولت إلى حضارة؟ كيف تدهورت؟

فى موضوع حديثنا يرى رينكور فى أوروبا ممثلة واضحة لحضارة اليونان القديمة، ويرى فى أمريكا ممثلة لحضارة الرومان القديمة. أوروبا عصر النهضة من ١٣ إلى ١٥ م أعادت ثقافة اليونان بمواصفات الإبداع وأيضا النقص (نترجم عادة رينيسانس RENAISSANCE بنهضة وترجمتها الدقيقة التى تفصح عن مغزاها هو إعادة الميلاد، والمقصود إعادة ميلاد الحضارة اليونانية) وظهور أمريكا وتطورها كجوهر أعاد دور الرومان قديما فى مفهوم نفعى، عملى، عسكرى.

ويستمر فى قراءته للتاريخ فيرى أن استمرار هذه الحضارة بنفس المواصفات القديمة سينتهى بها إلى نفس المصير... القيصرية ثم الدكتاتورية. وانهيار الإمبراطورية الرومانية الجديدة أى أمريكا بيد فرد سيعنى انهيارا وتهديدا للعالم. لأن قيصر الجديد يتحكم فى قوة مدمرة ستهدم المعبد على رؤوس الجميع.. العدو والصديق.

كانت بلاد اليونان مزدهرة قبل ميلاد المسيح بـ ٧٠٠ سنة، وبدأت أوروبا نهضتها بعد ميلاد المسيح بألف عام. وكما أعطت اليونان إبداعا على يد (يوربيد وسوفكليس، وارستوفان)

الأسد الأمريكى والفيل الأوروبى!



و(سقراط، وأفلاطون، وأرسطو)،... وغيرهم أعطى عصر النهضة الأوروبية إبداعا على يد (دانتى، بوكاشيو، وإنجلو، ودافنشى، ورفائيل)... وغيرهم. وكأمثلة لتحول السلطة قامت المدينة اليونانية «اسبرطة» بالتخلص من الملكية وإعلان الجمهورية، أى التخلص من حكم الفرد والانتقال إلى حكم القلة المتميزة.. وقامت أوروبا بنقل السلطة من يد الملك إلى يد الاقطاعى فى (الماجناكارتا) بإنجلترا عام ١٢١٥، ومجلس طبقات الأمة ١٣٠٢ فى فرنسا.

وحينما بدأت الثقافة اليونانية فى التدهور قام إلى جوارها الرومان بطبيعة خشنة.. يلبس الجميع (التوجا) البسيطة، ولا يعرفون طبقة النبلاء اليونانية. يعرفون ضبط النفس، وأهمية العمل الجماعى والسلوك النفعى، ولا يهتمون بالابداعات الفردية. وقد قال إنجليزى عن الأمريكيين أيام ثورتهم على الإنجليز (أن أهل أمريكا متخلفون عن بلاد العالم القديم من ناحية التهذيب بمائة عام). وفى المقابل قال أمريكى آنذاك (أما من حيث الإنسانية والعفة، والطهارة، والعدالة، واحترام حقوق الإنسان وكل فضيلة خلقية فهم - أى الأوروبيين - متخلفون عنا مائة عام). ويجب أن نلاحظ أن أحكام أهل أوروبا على أهل أمريكا أو العكس تنطبق عليهم فقط دون غيرهم من الشعوب، كما كانت رؤية اليونان والرومان قديما للعالم... خاليا إلا منهم كبشر، وما عداهم فهم من البرابرة. هذا يعنى أن الفرع تعارك مع الأصل، أهل أمريكا اصطدموا بأهل أوروبا.

كما اصطدم أهل اليونان بأهل روما قديما. وحاولت اليونان أن تستعيد يقظتها فى القرن ٤ ق.م على يد الإسكندر قديما.. وحاولت أوروبا أيضا على يد نابليون فى القرنين ١٨/١٩. وكلاهما فشل فى الشرق. يندرج فى هذا أيضا محاولات إنجلترا أيام الملكة فيكتوريا لمدة ستين عاما، ولكنها أيضا فشلت. وأخليت الساحة لشعب يمزج الواقعية بالمثالية. وانتهى إلى جعل الواقع هو أساس الحكم، ومصدر التشريع، وميزان العدالة... طرد الأسبان، والهولنديون، والفرنسيون.. وأخيرا إنجلترا من أمريكا، وأخليت الساحة بكاملها لجماعة جديدة.

تناول الأبناء أجدادهم بالنقد والتشريح، وربما بالاستهانة، أو الاحتقار فقال (جون آدامز) الرئيس الثانى لأمريكا (يجب على أولادى أن يدرسوا الرياضيات والفلسفة والجغرافيا، والتاريخ الطبيعى والبحرية، ليعطوا لأطفالهم حق دراسة التصوير، والشعر، والموسيقى، والعمارة، والتماثيل، والطنافس والخزف). وقال فرانكلين: (إن فى أمريكا حفنة قليلة من أولئك الذين يستطيعون دفع الأثمان الباهظة التى يدفعها الأوروبيون فى شراء الصور، والتماثيل، وأعمال العمارة والفن. وكلها غريبة أكثر منها مفيدة).

قال إنجليزى عن الأمريكيين أيام ثورتهم على الإنجليز (إنهم متخلفون من ناحية التهذيب بمائة عام). وفى المقابل قال أمريكى آنذاك (أما من حيث الإنسانية والعفة، فإن الأوروبيين متخلفون عنا مائة عام)

هذه أقوال تشابه ما قاله المهندس الرومانى (فرونتينوس) عام ١٠٤م الذى نظم شبكة روما المائية الشهيرة (من الذى يجرؤ على أن يقارن هذه الساقيات العظيمة التى تنقل الماء بالأهرام العقيمة، أو بأعمال اليونان الشهيرة العديمة النفع).

بشائر القيصرية

وابتداء من الرئيس جاكسون (١٧٦٧/ ١٨٤٥) يضع الكتاب الخط الذى ستبدأ منه بشائر القيصرية الأمريكية... والسبب لا يعود إلى دكتاتورية جاكسون ولكن لشعبيته.. هنا يجب أن نفرق بين النظام الاستبدادى الفردى الظالم الذى يفرض نفسه بالقوة والسلطان والأعوان، وعادة لا يعم طويلا وينتهى بانقلاب دموى، وبين النظام القيصرى، أى تحلق الجماهير حول شخصية تاريخية ترتفع بها إلى درجة البطولة، ولا تسمح بخلق حاجز بينها وبينه فى صورة مجلس شيوخ أو نواب أو غيره.... الصلة مباشرة، والأوامر مباشرة، والتنفيذ مباشر من المحكومين لأوامر الحاكم.

الرئيس جاكسون استخدم حق الفيتو أمام الكونجرس اثنتى عشرة مرة، فى مقابل تسع مرات فقط طول حكم السابقين عليه، وارتفعت النسبة بشكل واضح أيام رئيس أخر ستتمثل فيه مرحلة أخرى من القيصرية هو (روزفلت) فقد استخدم حق الفيتو ٦٣١ مرة أمام الكونجرس.

جاءت الثورة الصناعية بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية، فأعطت الفرصة بشكل قوى لسيطرة رأس المال، وحولت الإنسان إلى آلة، أو جزء من التركيب الآلى على حساب الإنسان... ويكفى أن نتأمل كيف ألغى الرق فى أمريكا، ولكنه تحول إلى قيمة من قيم المجتمع الأمريكى يصعب التنازل عنه. وفى ذلك يقول زعيم زنجى (لقد تحرر العبد المعتق من ربقة سيده ولكنه ظل عبدا للمجتمع. ليس له مال ولا عقار ولا أصدقاء... لقد تحرر من الضيعة القديمة، ولكنه ظل يتمرغ فى التراب)... وظهر نظام المنبوذين فى أمريكا.

أكد هذه النزعة الرومانية العنصرية الاتجاه الاستعمارى على الطريقة الرومانية... السيطرة على البحار لفرض السلم الأمريكى أو الرومانى... وفى مقابل ذلك كان الشاطئ الأوروبى أو الهيلينى أو اليونانى يأخذ فى الأفول. ولم تكن محاولة الملكة فيكتوريا فى إنجلترا إلا المهرجان الأخير لأفول نجم آلهة الثقافة اليونانية أو ثقافة أوروبا. ويعتبر كتاب (رينكور) مسرحية (فاجنر) الشهيرة (غروب الآلهة) رمزا لغروب ثقافة أوروبا، أو وقوعها فى الاضطراب نتيجة لسيطرة وسائل الانتاج الضخمة على حساب الابداع الفنى والأدبى والمعمارى الأصيل... وأكدت الصراعات القومية بين دول أوروبا هذا الاضطراب. حولت الابداع الفنى الأدبى، إلى صراع سياسى عسكرى واستعمارى. اختفى زمان (بتهوفن)، و(موزار) و(شوبان) المنتمين إلى أوروبا كما اختفى زمان سقراط، وأفلاطون، وأرسطو المنتمين إلى الثقافة الهيلينية، وليس لمدينة أو ولاية بعينها.

ولما ساءت الاحوال بين الاجداد، أى تصارع أهل أوروبا فى الحرب العالمية الأولى، تدخل الابن البار أمريكا لفض الاشتباك، ولكن تدخله ولد أمرين:

الأول: ارتفاع سلطان (ويلسون) الرئيس الأمريكى أمام الكونجرس فقد صار (الملك ورئيس الوزراء الذى يهيمن على السلطة التشريعية)، والقائد العام، وزعيم الحزب، والدكتاتور الاقتصادى، ووزير الخارجية.

الثانى: نمو بذور الشك بين الأجداد والأبناء... الشك بين أوروبا وأمريكا.. ظهر أسلوب رجل الأعمال (اليانكى) الذى يريد أن يرث الاجداد وهم على قيد الحياة. ذهبت رية الحرية المثالية، وأعطت مكانها لشخص العم (سام) الفظ.

ونتيجة الحرب العالمية الأولى انعكست أيضا على المجتمع الأمريكى... زاد غرور الأمريكى... زاد سلطان صاحب المال... ظهر الانحلال الخلقى، وهوس المضاربات، وتهريب الخمور، وعصابات المافيا، والفساد والمؤسسات الصناعية الضخمة، والمبانى العملاقة... ويصف روائيو هذه الفترة هذا الجيل الضائع. انتهى الجيل الضائع إلى أزمة اقتصادية عالمية بدأت عام ١٩٢٩، وتحولت سيطرة رؤوس الأموال من الجانب الاقتصادى إلى الجانب النفسى... أصبح الأمريكى يؤمن بالبطل (رجل الأعمال)... ولما جاء (روزفلت) محاولا انقاذ الموقف تحول بدوره إلى بطل من لون آخر.. تضاءل الفرد أمام ضخامة أجهزة المجتمع، وأصبح مستعدا للتنازل عن قسط من حريته مقابل الامن الاقتصادى. وحظى روزفلت بالرئاسة ثلاث مرات بعد تعديل الدستور، ومات قبل انتهاء مدته الثالثة، ولذلك اعتبر دكتاتورا مدى الحياة. وحينما اشار فى إحدى خطبه عام ١٩٤٠ إلى تركه الرئاسة بعد أربع سنوات، ارتفعت الأصوات مهللة (كلا.. كلا).

مشكلة الناخب الأمريكى

أراد الأمريكيون روزفلت كما أراد أهل روما يوليوس قيصر زعيما مدى الحياة.. واتفق ذلك مع نزعتهم العملية، وقلة خيالهم، واهتمامهم بالكم قبل الكيف، واهتمامهم بالتعليم لصب قوالب عملية ترى الإنسان نموذجا قابلا للتعديل، والتحوير حسب الحاجة، أما الحقائق الميتافيزيقية فيجب إغفالها أو هى غير موجودة. انتجت هذه الفلسفة (البرجماتية) العملية طبيعة تبدو متضاربة للوهلة الأولى. محافظة متقلبة فى آن. متقلبة نتيجة لطبيعتهم العملية النفعية، ومحافظة لإصرارهم على أن فلسفتهم فى الحياة هى أفضل ما أنتجته البشرية.

من هنا كما يقول الكاتب

كتاب الزاوية

رجل

عبقرية محمد

عالم يتطلع إلى نبى.. وأمة تتطلع إلى نبى، ومدينة تتطلع إلى نبى، وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكونان لإنجاب ذلك النبى.

ثم ها هو ذا رجل لا يشركه رجل آخر فى صفاته ومقدماته، ولا يدانيه رجل آخر فى مناقبه الفضلى التى هيأته لتلك الرسالة الروحية المأمولة فى المدينة.. وفى الجزيرة، وفى العالم بأسره.

نبيل عريق النسب وليس بالوضيع الخامل، فيصغر قدره فى أمَّة الأنساب والأحساب..

فقير.. وليس بالغنى المترف فيطغيه بأس النبلاء والأغنياء، ويغلق قلبه ما يغلق القلوب من جشع القوة واليسار.

يتيم بين رحماء.. فليس هو بالمدلل الذى يقتل فيه التدليل ملكة الجد والإرادة والاستقلال، وليس هو بالمهجور المنبوذ الذى تقتل فيه القسوة روح الأمل وعزة النفس وسليقة الطموح، وفضيلة العطف على الآخرين.

خبير بكل ما يختبره العرب من ضروب العيش فى البادية والحاضرة، تربى فى الصحراء وألف المدينة، ورعى القطعان واشتغل بالتجارة وشهد الحروب والأحلاف، واقترب من السراة ولم يبتعد عن الفقراء.

فهو خلاصة الكفاية العربية فى خير ما تكون عليه الكفاية العربية..

أصلح رجل من أصلح بيت فى أصلح زمان لرسالة النجاة المرقوبة، على غير علم من الدنيا التى ترقبها..

الأسد الأمريكى والفيل الأوروبى!



ـ كانت سيطرة المرأة الأمريكية بطبيعتها المحافظة، وكانت فى المجتمع الرومانى قد غزت عالم السياسة، شهدت المؤتمرات وأخذت من الحرية ما يعادل الرجل. وتعددت حوادث الطلاق بشكل فاضح واهتزت سلطة رب الأسرة الاستبدادى. وكان الزوج الخنوع المستسلم لزوجته قد غدا فعلا شخصية مألوفة مبتذلة فى المسرحيات الهزلية.

وفى مجال الابداع الأدبى والفنى لم تكن روما كما لم تكن أمريكا، إلا تقليدا وإنتاجا ضخما بالجملة، وتنمية لما تم إبداعه فى أوروبا. ولما كان المجتمع الأمريكى بسيطا يسوى بين الجميع دون البحث عن الأصل، مع حسابه بالكم دون الكيف، لذلك ارتفع شأن الدولار، وأصبح مقياس النجاح. فدخلك هو الذى يحدد اقترابك أو ابتعادك من الناس، من هنا كان زيف استقلالية المرأة. فهى استقلالية مرهونة بقدرتها الحالية وليس لمساواتها كإنسان بالرجل. من هنا كانت مأساة سن الشيخوخة أو المعاش... فهى تعنى عجز الإنسان عن العمل، أو عدم قيمته لأنه لم يدرب من صغره على ما يعرف بالحياة الثقافية كالأوروبى واعتبارها جزءا مكملا لحياته. وكان الرومان يعتبرون الشيخوخة والعجز مهانة، واستقرت عندهم فكرة انتحار كبار السن، وجعلوا لذلك موضعا بعينه.

وكما حاول الرومان بقتل قيصر إعادة الجمهورية ولكنهم فشلوا... حاول الأمريكيون بعد روزفلت الحد من سلطان الرئيس. ولكن كانت المشكلة ليست رغبة الرئيس فى السلطة، بقدر ما كانت رغبة الناخب فى الاتكال على السلطة التى تحقق له ذاته دون تعديل أو نقد. لقد بدأت القصة بدعوة المساواة بين جماعة مهاجرة ترفض أى شكل من أشكال السلطة التقليدية إلا سلطان القدرة على العمل والإنتاج.. وكان الإمعان فى المساواة فيما بينهم معناه إضعاف التدرج الهرمى. وإضعاف التدرج الهرمى أضعف بدوره السلطة الرقابية المتخصصة (الكونجرس). وإضعاف الكونجرس معناه الاعتماد على الصلة المباشرة بين الرئيس والجماهير... والاتصال المباشر ينمى عادة السلطة عند الفرد الحاكم.... ويعنى ازدياد سلطة الرئيس الأمريكى، ازدياد سلطة القائد العام الذى يتحكم فى قوة يمكن أن تدمر العالم.

وتأسيسا على ما ذكره (رينكور)...

تكون المأساة حينما يصل إلى القيصرية الأمريكية شخصية ضعيفة، والأسوأ أن يصل إليها شخصية تافهة.

وقبل وصول (رونالد ريجان) إلى السلطة عام ١٩٨٠ كان الحديث يجرى بشكل تلقائى عن تفاهته.. يلهو بالقطارات يعجب بنفسه على شاشة التليفزيون. يجهل كل ما يجرى فى العالم الخارجى تكتب له الخطب القصيرة. يتهرب من التصريحات السريعة. يدهش من حوله إذا تورط فى تعليق، يطلق (بوب هوب) عليه النكات. وعلق الممثل الراحل (مارلون براندو) على انتخابه قائلا... إننى أعرفه تماما وأعرف محدودية ثقافته فهو لا يعرف كيف يفرق بين الضغط على زر الإضاءة، والزر النووى.

أليست نفس الصورة التى قدمت عن (بوش) الأب عند انتخابه وتأكدت بصورة أكثر وضوحا عن بوش الابن؟

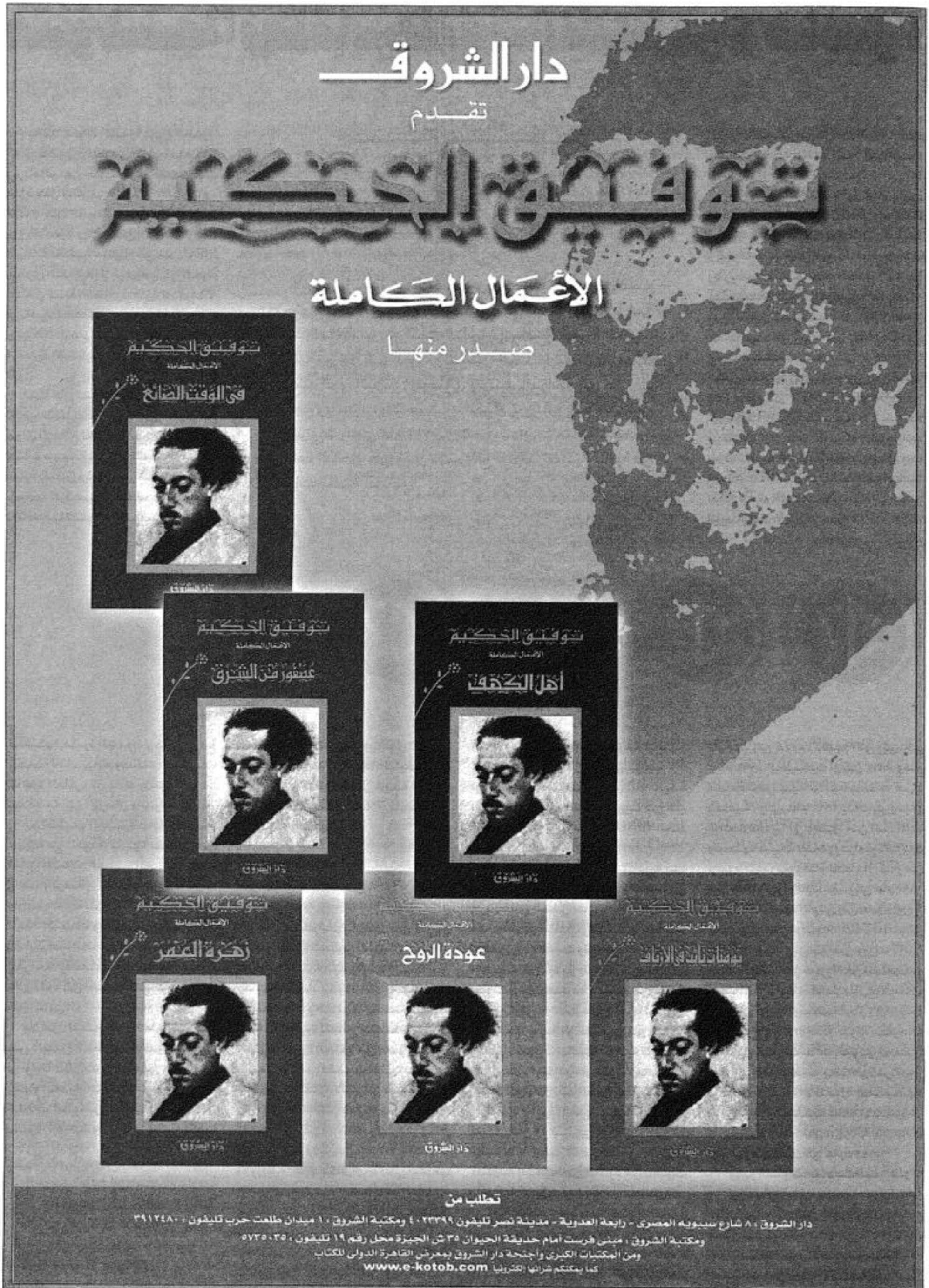
ونعود لكتاب (القياصرة القادمون) فنراه يقول أن لدى الأمريكى نزعة عنيفة، ولكنها لا تظهر فى صورة جماعية لنزعته الفردية. وهى نزعة لا ترفض فى الوقت نفسه الدخول فى قالب الجماعة، أو قبول القيصرية... الأمريكى يطلب المساواة، ويريد فى الوقت نفسه واحد منهم. ليس بأفضلهم يتولى المسئولية... يسخرون منه وينادونه باسمه، ويستهينون بانتصاراته كاستهانة الرومان بأبطالهم. يريد الرئيس موظفا بامتيازات خاصة فى مقابل تحمل الأعباء. ولكنه لا يفطن إلى أن كثرة الاتكال عليه تؤدى إلى زيادة نفوذه على الجميع. وإذا زاد نفوذه أصبح من الصعب انتزاعه، وقد يطالب الجميع أنفسهم ببقائه. وتكون هذه قمة القيصرية... نوعا من اتكال الجماعة على الفرد ليحل المشاكل، ويأتى بالترياق، ولكنهم لا يدركون أنه قد يأتى أيضا بكارثة.

وكلها دلائل تشير إلى أن نبوءة (رينكور) فى كتابه قد تحققت.

ونعود لندوة (ديكو) حول الدعوة الأمريكية لإلغاء التاريخ، مقرونة بفكرة صراع الفيل الأوروبى مع الأسد الأمريكى، أو النموذج الأوروبى الهيلينى مع النموذج الأمريكى الرومانى.

قد تخدعنا الوقائع الأخيرة من مصالحة بينهما بعد مؤتمر الثمانية، أو بعد احتفالات مرور ٦٠ عاما على تحرير أمريكا لفرنسا أو لأوروبا بكاملها من الحكم الهتلرى، وقد شارك فى الاحتفالات ألمانيا نفسها.

المصالحة لن تتم بين أوروبا وأمريكا. إنه قدر تاريخى. إنها إطالة فقط لمدة العرض... القصة مكررة ولأن التاريخ لا يعيد نفسه، فإنها أيضا عبرة منسية.. وهذه حكمة حضارية. ■


دار الشروق
تقدم
توفيق الحكيم
الأعمال الكاملة
صدر منها
في الوقت الضائع
عصفور من الشرق
أهل الكهف
زهرة العمر
عودة الروح
يوميات نائب في الأرياف
تطلب من
دار الشروق، ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق، ١ ميدان طلعت حرب تليفون: ٣٩١٢٤٨٠
ومكتبة الشروق، مبنى فرست أمام حديقة الحيوان ٣٥ ش الجيزة محل رقم ١٩ تليفون: ٥٧٣٥٠٣٥
ومن المكتبات الكبرى وأجنحة دار الشروق بمعرض القاهرة الدولي للكتاب
كما يمكنكم شرائها إلكترونيا www.e-kotob.com

عولمة فضائية.. التلفزة عابرة

جان شَلبى

كاتب هذا المقال باحث أكاديمى ومحاضر دائم فى قسم الاجتماع - جامعة سيتى البريطانية - فى لندن. والمقال دراسة تبحث العلاقة بين شبكات التلفزة العالمية، عابرة الحدود القومية، وإجراءات العولمة وتشكيل النظام العالمى الجديد وإلباسه الزى السائد (الموضة). وتستند الدراسة إلى عشرات المراجع والمؤلفات والإحصاءات الصادرة عالميًا منذ منتصف الثمانينيات وحتى عام ٢٠٠٢. وتستفيد من ٤٠ مقابلة شخصية أجراها الباحث على مدار سنتين مع قيادات تنفيذية عاملة فى شبكات التلفزة العالمية.

المحـــرر

حققت قنوات التلفزة عابرة الحدود، خلال العقدين الماضيين، تطوراً ملحوظاً عبر العالم: فى جنوب آسيا تحدت شبكات تلفزة مثل ستار تى فى Star TV وزى، Zee، إذاعات الدولة بنجاح وفتحت أبواب سوق التلفزة. وفى الشرق الأوسط رفعت قنوات فضائية مثل إم بى سى MBC مستوى التغطية الإخبارية وأثار الصوت المستقل لقناة «الجزيرة» قلق الحكومات. وفى أمريكا الشمالية وأوروبا، أحدثت سى إن إن CNN، على سبيل المثال، تحولاً فى التغطية الإخبارية العالمية وتدفق أخبار الكون.

لقد كان لقنوات التلفزة عابرة الحدود انعكاسات متباينة فى العديد من أسواق الإعلام لكنها طرحت فى تطورها قضايا مهمة تتعلق بالعولمة. قدمت صيغة تليفزيونية غير مناطقية فى ملمحها الرئيسى وتختلف عن الصيغة الخاصة بالقنوات القومية. كما أن تغطيتها عابرة الحدود، وجمهورها متعدد الجنسيات، وكذلك عمليات إنتاجها العالمى، كل ذلك جعلها تنسف العلاقة ما بين الإرسال والدولة - الأمة.

لم تتكيف التلفزة عابرة الحدود بسهولة مع العولمة، لكنها ساعدت فى إلباس النظام العالمى الجديد الزى السائد (الموضة). ساعدت هذه القنوات إجراءات العولمة بأن شكلت مناطق تعددت بتعدد الثقافة والتمويل والسياسة. حققت إضافات على صعيد تدفق المعلومات، وقدمت شبكات اتصال ونظم تبادل تقود إلى إحداث عمليات دمج على نطاق عالمى.

يلاحق القسم الأول، من الدراسة، تطور التلفزة متخطية الحدود القومية فى أوروبا على مدار العقدين الماضيين. ويقدم القسم الثانى شرحاً لكيفية اختلاف التلفزة عابرة الحدود عن التلفزة القومية، وتطويرها لصيغ إذاعية تتخطى تلك الحدود. ويحلل القسم الثالث إسهام هذه القنوات التليفزيونية فى إجراءات العولمة على أربعة محاور رئيسية للأنشطة: الإعلام، الموسيقى، السياسة، والتمويل.

عن: الجريدة العالمية للدراسات الإعلامية
The International Journal for Communication Studies

ترجمة: جمال إسماعيل



مرحلة الانطلاق

هناك فترتان بارزتان فى تاريخ التلفزة عابرة الحدود. الفترة الأولى هى المرحلة الاستهلالية والتى امتدت من بداية الثمانينيات إلى منتصف التسعينيات، وخلالها خاضت صناعة التلفزة تجارب لنماذج متعددة، وعانت القنوات عابرة الحدود من صعوبات، ولم تستمر معظم القنوات التى انطلقت خلال تلك الفترة لأكثر من بضعة أعوام. من بين تلك القنوات قناة سوبر Super Channel، التى بدأت عبر شركتين: آى تى فى ITV وفيرجن Virgen، النسخة الأوروبية لقناة سكاى Sky التى تمتلكها مجموعة ميردوخ للصحافة العالمية، إضافة إلى قناتين متخصصتين أطلقتهما دبليو إتش سميث WH Smith، دار التوزيع البريطانية، وهما: لايف ستايل Life style وسكرين بورت Screen Port. وهناك تجارب عمرها قصير لإذاعات عامة تشمل تى فى يوروب TV Eurp التى أطلقتها الـ BBC، هيئة الإذاعة البريطانية، وأوروبا تى فى Europe TV التى أطلقها «EBU»، اتحاد الإذاعات الأوروبية.

ما يسمى بالمرحلة الثانية بدأ منتصف التسعينيات عندما تحسنت فى أوروبا آفاق التلفزة عابرة الحدود، بشكل ملحوظ. فى ذلك الوقت كانت صناعة التلفزة قد نضجت وتوحدت. القادمون الجدد، مثل دبليو إتش سميث التى حاولت دخول صناعة التلفزة من طريق عموم أوروبا، انسحبوا من السوق. والإذاعات جيدة التأسيس، التى أساءت تقدير صعوبات التلفزة العالمية تراجعت إلى حدود أوطانها أو طورت مشاريع جديدة. وخلال تلك الفترة تطورت قنوات التلفزة عابرة الحدود بثبات وارتفع عددها من ١٥ قناة فى عام ١٩٩١ إلى ما يقدر بـ ١٠٨ قنوات فى عام ٢٠٠٠، رغم المنافسة الشديدة من العديد من القنوات القومية الكبل «السلكية»، والفضائية.

تخصصت معظم القنوات عابرة الحدود فى نوعيات ملائمة من البرامج تتراوح ما بين منوعات الأطفال والأفلام السينمائية والرياضة. من بين هذه القنوات مجموعة من حوالى ١٥ قناة حققت مكانة عالية تعود إلى اتساع انتشارها أو طبيعة محتواها.

من بين تلك النخبة أول قناة عابرة للحدود انطلقت ولاتزال تعمل وهى قناة تى فى٥ TV5 الفرانكوفونية التى تديرها ٥ قنوات عامة من فرنسا، بلجيكا، وسويسرا. صنعت هذه القناة التاريخ عندما بدأت البث إلى أوروبا عام ١٩٨٤ عبر القمر الصناعى 2FI أول الأقمار الصناعية الأوروبية. فى العام التالى بدأت شبكة أخبار سى إن إن CNN الأمريكية بثها إلى عموم أوروبا، وتبعتها قناة إم تى فى MTV فى عام ١٩٨٧. فى عام ١٩٨٩ انطلقت ثلاث قنوات: ديسكفرى Discovery، شبكة التسجيلات الوثائقية الأمريكية، يوروسبورت Eurosport، القناة الرياضية التى أطلقها EBU اتحاد الإذاعات الأوروبية، إلى عموم أوروبا، وقناة SKY الإخبارية BSKYB's، الموجهة إلى عموم الإقليم الأوروبى. فى عام ١٩٩١ انطلقت آرتى Arte وفق معاهدة فرنسية ألمانية بإنشاء قناة ثقافية. وفى عام ١٩٩٣ بدأت يورونيوز Euronews بـ ١١ عضواً من الـ EBU، وتبعتها شبكة «أفلام وبرامج» كارتون «رسوم متحركة»، (قناة للأطفال تدار من قبل «نظام تيرنر للإذاعة». وفى عام ١٩٩٥ بدأت BBC بثها الأولى إلى عموم أوروبا عبر بى بى سى برايم BBC Prime، وهى قناة ترفيهية، وبى بى سى وورلد BBC World، القناة الإخبارية. فى العام نفسه بدأت CNBC، قناة أخبار المال والأعمال، بثها إلى أوروبا، وتبعتها، عام ١٩٩٦ قناة بلومبيرج Bloomberg، شركة معلومات التمويل التى تتخذ من نيويورك مقراً لها. وفى العام نفسه بدأت فوكس كيدز Fox Kids، قناة الأطفال، عملياتها الأوروبية. وانطلقت قناة ناشيونال جيوجرافيك National Geographic إرسالها من لندن فى عام ١٩٩٧.

وعبر السنوات، ضاعفت هذه القنوات من توزيعها ويحقق معظمها اليوم تغطية لكل أوروبا. وبين عامى ١٩٩٧ و ٢٠٠٢ ارتفع معدل توزيعها من ٣٣.٣ إلى ٤٧.٨ مليون جهاز استقبال عبر الإقليم محققة بذلك نسبة نمو قدرها ٤٣.٦ بالمائة على مدار

الحـــــدود والنظـــــام العـــــالمى الجـــــديد

الفترة المشار إليها (انظر الجدول رقم ١). وأقل توزيع لـ ١٦ قناة رائدة تبث إلى كل أوروبا بلغ فى عام ٢٠٠٢ أكثر من ضعفى حجم التوزيع فى أسواق التلفزة القومية الأوروبية عدا ألمانيا. ففى عام ٢٠٠١ كان هناك ٢١.٧ مليون جهاز استقبال منزلى فى إيطاليا، ٩.٢٢ مليون فى فرنسا ٢٥ مليون فى بريطانيا، و٣٧.١ مليون فى ألمانيا. وتشير تقديرات إلى وجود ٢٣٢ مليون جهاز تليفزيون منزلى فى أوروبا (بما فى ذلك دول شرق أوروبا) بينها ١٠٧ ملايين مزودة بإمكانية الدخول إلى قنوات «الكبل» والأقمار الصناعية. وهكذا تكون قنوات عموم أوروبا تبث برامجها إلى خُمس أجهزة الاستقبال المنزلية فى كل أوروبا وما يقرب من نصف عدد الأجهزة المرتبطة بالكبل والأقمار الصناعية. وبعد سنوات من نقص الموارد المالية، تظهر معظم القنوات عابرة الحدود، حاليًا، عودة معقولة إلى الاستثمار: كبرت عائدات التوزيع واتسعت إمكانيات جذب الإعلان. كانت قيمة سوق الإعلان الأوروبية قدرت بـ ٣١ مليون يورو عام ١٩٨٨. بعد أربعة عشر عامًا ارتفعت هذه القيمة إلى ٦٢٨ مليون يورو، بزيادة ٢٠ ضعفًا. هذا التوسع يقارن بإيجابية مع تنامى إجمالى الإنفاق على الإعلان فى أوروبا خلال فترة مشابهة ارتفع فيها من ١١.٩ بليون يورو عام ١٩٩١، إلى ٢٩.٥ بليون يورو عام ٢٠٠٠، بزيادة ٢.٥ ضعف. وفى بداية التسعينيات كتب ريتشارد كولينز يقول: «إن المشاهدين عبر الحدود لا يهتمون إلا بقلة من المعلنين نظرًا لقلة ما يباع عالميًا من سلع». اليوم نرى تزايدًا فى مبيعات أعداد متنامية من المنتجات عبر الحدود. ويتصدر قائمة المعلنين على شاشات قنوات عموم أوروبا لاعبون عالميون مثل نوكيا، فودافون، البنك المتحد السويسرى، ويونيفرسال ميوزيك. وتتيح الحملات الإعلانية عابرة الحدود لهذه الشركات أن تحقق رسالة متناغمة ثابتة للعلامات التجارية لمنتجاتها على مستوى إقليمى يضمن تنامى العلم بها ويضعها فى ترابط ٣ أسواق الإقليم. لقد قدمت شبكات التلفزة عابرة الحدود، إلى الشركات متعددة الجنسيات الساعية إلى توسيع مبيعاتها فى الخارج، ساحة عرض نموذجية جعلت علاماتها التجارية عالمية. ويؤسس الدور الذى لعبته هذه الشبكات فى تسهيل التجارة العالمية لأول اتصال بالعولمة. ولكن هناك عوامل أخرى كثيرة جعلت منها الجزء المتمم لإجراءات العولمة.

تلفزة لا ترتبط بأرض

لشبكات التلفزة عابرة الحدود علاقة بالزمان والمكان تختلف كلية عن تلك التى لقنوات التلفزة المرتبطة بأرض. وتقليديًا ارتبطت التلفزة بحدود الأرض القومية. كما ارتبط التمويل، وخاصة فى إذاعات الخدمة العامة، بالمشاهد الداخلى. شبكات التلفزة عابرة الحدود تحدت تلك العلاقة الثابتة بين التلفزة والدولة - الأمة، وأصبحت تصل إلى مشاهدين عبر الحدود. ولتحقيق هذا «الوصول» يمكن تمييز ثلاثة انماط من التغطية: واحدة متعددة المناطق، وأخرى لعموم الإقليم، والثالثة كونية.

القنوات متعددة المناطق تبث - على الأغلب، فى منطقتين أو ست مناطق. وقد سارت محطات البث على هذا المنوال لأنها لا تملك مصادر نشر بثها على مستوى عموم الإقليم أو تخشى عدم توافر مصنفات وموارد كافية لتغطية أوسع. الأمثلة على ذلك تشمل آرتى Arte، القناة الثقافية الرفيعة المستوى التى انطلقت بناء على معاهدة وقعت فى الثانى من أكتوبر عام ١٩٩٠ بين فرنسا وألمانيا. تحاول آرتى توسيع استقبالها عالميًا لكن توزيعها يظل مركزًا فى أربع دول: فرنسا، ألمانيا، بلجيكا، وسويسرا. فى فرنسا يتم البث عبر القناة الأرضية الخامسة، من السابعة مساء وحتى الثالثة صباحًا وهذا يسمح لإرسالها بالوصول إلى ٢.٨ فى المائة من حصة المشاهدين، وهذه نسبة عالية لقناة عابرة للحدود. قنوات عموم أوروبا تغطى كل أوروبا. وتشمل يورونيوز Euronews، يوروسبورت Eurosport (التى تدار الآن بواسطة TFI، الإذاعة التجارية الفرنسية)، ميزو Mezzo، قناة الموسيقى الكلاسيكية، وفوكس كيدز Fox Kids. هذه القنوات لا تتوافر فى كل سوق من أسواق التلفزة الأوروبية لكنها تصل إلى ما لا يقل عن ٣٠ منطقة. وتقدم فوكس كيدز ويوروسبورت تغطيات أكثر اتساعًا وتبثان فى ٥٦ و ٥٥ منطقة، على التوالى، وبأكثر من ١٥ لغة مختلفة.

المجموعة الثالثة من شبكات التلفزة عابرة الحدود تبث داخل أوروبا وعبر العالم. ويعد نظام تغذية بثها إلى عموم أوروبا جزءًا من تغطية كونية تتضمن أيضًا الشرق الأوسط، جنوب آسيا، آسيا الباسيفيكية، الأمريكتين، وأحيانًا أفريقيا. ثمانى شبكات حققت هذا الإنجاز من بينها إم تى فى MTV وسى إن إن CNN وديسكفرى Discovery، وأصبحت متاحة فى أكثر من ١٥٠ دولة (انظر الجدول رقم ٢). وتستخدم هذه الشبكات ما يصل إلى ثمانى محطات تغذية متناثرة لتغطية الكرة الأرضية. ولدى CNN العالمية وTV5 ٦ و ٨ محطات تغذية، على التوالى، ووقعت اتفاقيات توزيع شاملة. وتستخدم TV5 ٣٩ قناة عبر ١٠ أقمار صناعية مختلفة، ولديها شراكة مع حزمة من ٢٥ قمرًا صناعيًا وأكثر من ٥٠٠٠ شبكة كبل «سلكية» عبر العالم. أما سى إن إن CNN العالمية فهى تستخدم «تشكيلة» من ٢٣ قمرًا صناعيًا لتغطية العالم. وبانطلاقها فى عام ١٩٨٥ كانت أول قناة كونية عندما أصبحت متاحة عبر العالم ٢٤ ساعة فى اليوم. وفى أغسطس عام ١٩٨٩، وعبر قمر صناعى سوفيتى، وصلت إلى أفريقيا، الشرق الأوسط، شبه القارة الهندية، وجنوب شرق آسيا.

شبكات التلفزة عابرة الحدود أقل ارتباطا من التلفزة القومية بالتوقيت المحدد. تعتمد برامج التلفزة القومية على توقيتات المشاهدة فى منطقة بعينها وتفاضل ما بين ساعات النهار وبرامج الساعات الأولى وإعادة البث والعروض الليلية قليلة التكلفة. وقد تكيف الإذاعات الكونية برامجها حسب التوقيتات المحلية لكنها تراعى فى الأساس، بث برامجها بفارق ساعتين بعد التوقيت المحلى لضمان استمرار بث الأخبار والمواد التسجيلية وشرائط الموسيقى والفيديو.

لقد تم تبنى البث التليفزيونى على مدار ٢٤ ساعة من أجل عرض أساليب حياة بشر يعيشون فى مراكز كونية مثل لندن ونيويورك ويعملون بالليل والنهار. وتسمح التغذية المستمرة للإذاعات العالمية بعبور مناطق الزمن بأسلوب أكثر جودة. لا يوجد اختلاف يذكر بين برامج BBC العالمية أو ديسكفرى فى الساعة الثالثة صباحًا، والثالثة مساء، فى أى بقعة فى العالم. لكن عمليات البث ٢٤ ساعة فى شبكات الأخبار العالمية تسمح بتغطية آنية للعالم. وتستطيع سى إن إن وبى بى سى تغطية أزمات العالم وصراعاته وقت حدوثها. بينما تقدم CNBC وبلومبيرج التقارير المتابعة عن أسواق المال الكونية. واللافت أن CNN صعدت الذروة خلال حرب الخليج لما قدمته من تقارير آنية، على مدار الساعة كل يوم من موقع الأحداث.

وتستند القنوات عابرة الحدود، فى اختلافها عن التلفزة القومية إلى أسس مفادها أنها تقدم شكلاً من البث لا يرتبط بأرض. المشاهدون من جنسيات متعددة، والتغطية تمتد عبر الحدود، والبرامج صممت كى تعبر مناطق التوقيتات. تتكيف هذه القنوات مع طبيعة العصر بنسف العلاقة بين المكان والتلفزة التى تجلت - تقليديًا - عبر تاريخ الإذاعة.

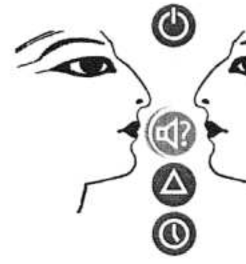
وتصب عمليات الدمج الحاصلة حاليًا على المستوى







أحمد اللباد



العالمى، فى العديد من المجالات، فى صالح أنظمة عالمية. وتشمل عولمة هذه المجالات العديد من العمليات التى من ضمنها بزوغ شبكات وأنظمة مقايضة وتشبيك «العلاقات». والتى تستلزم أيضاً بزوغ المنظمات متعددة الجنسيات، أو، والعالمية، وربط اللاعبين ببعضهم البعض، وتطوير شبكات اتصال. ويرتبط الطرح هنا من فرضية أن قنوات التلفزة عابرة الحدود هى جزء لا يستهان به ضمن عملية العولمة، ولها التأثير على قطاعات متعددة فى المجتمع. إنها تضيف إلى تدفق المعلومات الكونية شبكات اتصال وأنظمة تبادل من شأنها زيادة القدرة على إحداث ترابط. ولقد أخضعت للبحث والدراسة كيفية تشابك قنوات التلفزة عابرة الحدود مع أربعة نظم كونية: الإعلام، الموسيقى، السياسة، والتمويل.

صناعة الإعلام الكونية

وُصفت صناعة الإعلام الكونية بأنها ثنائية الصف. تتربع فى المجموعة الأولى ثمانى مؤسسات إعلامية عابرة للحدود، تندمج رأسياً وتمتد أنشطتها إلى أنحاء الكرة الأرضية وتطال معظم قطاعات الإعلام. الصف الثانى يشمل شركات متعددة الجنسيات لها مبيعات إقليمية قوية، أو باع عالمى، لكنها متخصصة فى سوق ملائمة. لدى مؤسسات الصف الأول الإعلامية عائدات تقارب ١٩.٧ بليون دولار أمريكى. وباستثناء برتلسمان «مؤسسة» فجميعها يلعب دوراً قيادياً فى التلفزة عابرة الحدود القومية، كما أن الكثير من القنوات عابرة الحدود وذات الريادة العالمية تكون بين أيديها (انظر جدول رقم ٣).

ويدير نظام «تيرنر للإذاعة» أحد فروع مجموعة وارنر وأمريكا أون لاين، قناتين للمنوعات: شبكة كارتون «رسوم متحركة»، وهى قناة الأطفال الرائدة فى أوروبا وتيرنر للأفلام الكلاسيكية، التى أعيد إطلاقها مؤخراً. فى عام ١٩٩٦ امتص «وارنر» نظام «تيرنر» واشترى أيضاً أكبر شبكة تلفزة إخبارية فى العالم، سى إن إن. والت ديزنى، التى أسست قناة خاصة بإنتاج ديزنى تبث فى مناطق أوروبية عديدة، أصبحت مالكة لمعظم أسهم فوكس كيدز منذ يناير ٢٠٠١. مؤسسة الأخبار التى باعت فوكس كيدز إلى ديزنى احتفظت بسكاى نيوز (التى تعمل من خلال فرعها البريطانى بى سكاى بى B Sky B) ولها مصالح مشتركة مع ناشيونال جيوجرافيك، كما تدير عدة قنوات للأقليات العرقية فى أوروبا. تجلب قناة ستار بلس Star Plus من الهند، التى تديرها عبر فرعها ستار تى فى Star TV، كما تجلب شبكة فيونكس سى إن إن Phoenix CNN باللغة الصينية من هونج كونج، وهى ملكية مشتركة بين ستار تى فى والوكيل «لو تشينج لى». وتمتلك فياكوم Viacom، ثالث شركة إعلام فى العالم، شبكتين للتلفزة الموسيقية، إم تى فى وشقيقتها VH1 فى إتش وان، تستهدفان سوق الكبار، ونيكيلوديون Nicelodeon، وهى قناة للأطفال. كنال بلَس Canal Plus، التابعة لفيفيندى يونيفرسال Vivendi Universal، أكبر تليفزيون أوروبى «مدفوع» ويبث لـ ١١ مليون مشترك فى ٥ أسواق أوروبية: فرنسا، إسبانيا، دول الاتحاد الجمركى (بلجيكا، هولندا، ولوكسمبرج)، دول إسكندنافيا، وبولندا. وكمنصة قمر صناعى تحمل كنال بلَس بعض قنوات كطرف ثالث لكنها تبث أيضاً العديد من قنواتها. أضف إلى ذلك أن فيفيندى عندما اشترت يونيفرسال فى عام ٢٠٠٠ ورثت منها عدة قنوات عابرة للحدود لذلك تُبث من المنصة نفسها قناتان للأفلام السينمائية، عبر ستديو يونيفرسال والشارع رقم ١٣، إلى أوروبا. فى عام ٢٠٠١ حققت «لاجارديرى» Lagardere للإعلام، والتى هى جزء من مجمع صناعى فرنسى كبير إجمالى مبيعات يقدر بـ ٨,٧ بليون من الدولارات الأمريكية. ويمكن اعتبارها أصغر شركات الصف الأول وهى دار نشر رائدة فى أوروبا تتصدر ناشرى الكتب ومجلات الصفوة وتصدر ٢٢٢ مطبوعة وتوزع فى ٣٠ دولة. وتملك الشركة، فى فرنسا، ثانى أهم مجموعة إذاعية لديها ثلاث شبكات قومية وتدير بعض أهم قنوات تلفزة الكبل «السلكية»، والأقمار الصناعية. كما أنها أول منتج أوروبى يشبع رغبات القنوات ذات الاهتمامات الخاصة. ومن بين القنوات التى تملكها لاجارديرى قناتان عابرتان للحدود: إم سى إم MCM، قناة التلفزة الموسيقية الأولى فى فرنسا وبلجيكا والتى لها تغذية عالمية تمتد إلى وسط وشرق أوروبا، وقناة ميزو Mezzo الرائدة فى تلفزة الموسيقى الكلاسيكية والمتاحة فى ٢٦ منطقة أوروبية.

تسيطر فيفيندى يونيفرسال، ولاجارديرى للإعلام، على ٥٤ بالمائة من مالتى ثيماتيكس Multi thematiques، الشركة التى تتخذ من باريس مقراً لها وتدير ست قنوات تليفزيونية متميزة: سينى سينماز Cinecinemas، سينى كلاسيك Cinecalssics، بلانيتى Planete وبلانيتى فيوتشر Planete future (للأفلام والبرامج التسجيلية)، سيزونس Seasons (نشاطات خارجية) وقنال جيمى Canal Jimmy (للشباب والخيال والمسلسلات). ويتراوح التوزيع الأوروبى لهذه القنوات ما بين منطقتين وست مناطق. بقيت الشركة الأخيرة فى شركات الصف الثانى، والتى تحتل المرتبة الحادية عشرة من ناحية العائدات: شبكة NBC الأمريكية مالكة الأسهم فى قناة ناشيونال جرافيك ومديرة CNBC شبكة أخبار المال والأعمال العالمية، مع مؤشر داوجونز.

تسهم قنوات التلفزة عابرة الحدود فى دمج صناعة الإعلام على نطاق عالمى لأن فى ذلك فائدة جمة للشركات ومجموعات الإعلام المسيطرة بالفعل. وتدرج المؤسسات الإعلامية العابرة للحدود ضمن الشركات القليلة التى لديها مصادر تمويل، خبرة إدارية، مكتبة عروض تليفزيونية، وتسهيلات جمع أخبار، تمكنها من إدارة قناة تليفزيونية على نطاق متعدد الجنسيات. وهى تستثمر فى التلفزة عابرة الحدود لرغبتها فى التوسع عالمياً وزيادة نسبة عائدات السوق الخارجية فى إجمالى العائدات. وتقدم هذه القنوات مصادر دخل إضافية إلى الشركات التى تملك مكتبات مواد فيلمية «رسوم متحركة، مسلسلات، أفلام وغيرها». ولقد ظل نظام تيرنر الإذاعى يعمل وفق هذه الاستراتيجية منذ منتصف التسعينيات وعرض مواد فيلمية متميزة عبر قناتين عابرتين للحدود. إذ تعتمد قناة تيرنر للأفلام السينمائية الكلاسيكية على مكتبة «مترو جولدن ماير» التى تضم ٧٠٠ من الأفلام الروائية من بينها كلاسيكيات مثل Casablanca «الدار البيضاء» Gone with the Wind «ذهب مع الريح». وتستفيد شبكة الرسوم المتحركة من مكتبة Warner bros «إخوان وارنر» التى تحتوى على عناوين مثل Batman «الرجل الوطواط» توم وجيرى، وFlintstones «أحجار الصوان».

موسيقى كونية

تشتهر صناعة الموسيقى العالمية بأنها صناعة «مغلقة» إذ تسيطر عليها حفنة من الشركات تشمل BMG، مجموعة شركات بيرتلسمان للموسيقى، EMI مجموعة وارنر للموسيقى، سونى للمنوعات الموسيقية، ويونيفرسال الموسيقية. هذه الشركات تسيطر على ٨٠ بالمائة من مبيعات الموسيقى عالمياً وتمتلك أهم التسجيلات ويعيش فى منتجعات هذه الشركات أشهر الفنانين العالميين. وخلال أقل من عقدين أصبحت MTV لاعباً آخر متميزاً داخل هذا الحقل.

بدأت «إم تى فى» بثها داخل الولايات المتحدة عام ١٩٨١. وفى عام ١٩٨٧ أطلقت أول قناة لعموم الإقليم فى أوروبا، وامتد بثها إلى أمريكا اللاتينية فى بداية التسعينيات، وإلى آسيا فى منتصفها. وفى عام ٢٠٠٣ أصبحت أكبر شبكة تلفزة فى العالم، بتغطية لا تنافس وتصل إلى ٣٨٠ مليون جهاز استقبال منزلى فى أنحاء العالم. ويعيش ٨٠ فى المائة من مشاهديها خارج الولايات المتحدة، وتوزع الشبكة فى ٨٠ بالمائة من دول العالم. كان مصدر الدخل الأساسى للشبكة ـ فى بدايتها ـ يأتى من عمليات البث عبر «الكبل»، وساهم المردود فى تقديم إنتاج متميز النوعية. لكن «الخدمة» فى بدايتها تشابهت إلى حد كبير مع ما تقدمه قناتها الأمريكية إذ لم تبذل الشركة الجهد الكافى للتكيف مع الذوق المحلى. وقد عابها أن ما تقدمه، وكذلك أطقم المذيعين، كان أمريكى الصبغة إنجليزى اللغة. بدت الشبكة وكأنها تؤمن بشعار تسويقى واحد مفاده «كوكب واحد ـ موسيقى واحدة». لكن، وفى بداية التسعينيات، وعندما بدأت حصة المشاهدة تتآكل لحساب بعض المنافسين المحليين مع انتشار قنوات «الكبل» فى مناطق رئيسية مثل ألمانيا وهولندا، راحت الشبكة تعيد النظر فى استراتيجيتها وقررت الإدارة أن تكيف بثها إلى عموم أوروبا مع أذواق الأسواق المحلية وأطلقت قنوات بعينها لتحقيق هذا الهدف.

وتعد شبكة إم تى فى الأوروبية اليوم شبكة إقليمية لها ست قنوات تخدم فرنسا، إيطاليا، هولندا، رومانيا، وإسبانيا. وثلاث قنوات تغطى الدول متحدثة الألمانية (ألمانيا، النمسا، وقسم من سويسرا)، دول اسكندنافيا، والمملكة

المتحدة وأيرلندا. تتضمن هذه القنوات العديد من العروض التى تنتج محلياً وتتصدر شاشاتها وجوه محلية لمذيعين ومقدمات برامج، وتحتل الدراما المحلية ٦٠ بالمائة من إجمالى ما يقدم من دراما. ورغم أن هذه القنوات تضع الذوق المحلى فى اعتبارها إلا أنها لا تستطيع أن تكون فى محلية المنافس المحلى. ويقدر عدد القنوات الموسيقية فى أوروبا بحوالى ١٠٠ قناة، ويتضمن هذا العدد قناة فيفا Viva فى ألمانيا وأجزاء من وسط أوروبا، قنوات إيماب Emap فى المملكة المتحدة، (لأكثر الألبومات مبيعاً وانتشاراً)، وشبكة إم سى إم التى تبث عبر أوروبا لكنها أكثر انتشاراً فى فرنسا وبلجيكا. وفى مواجهة هذا التزايد القوى قررت إدارة إم تى فى أن تحافظ قنواتها الإقليمية والمحلية على جاذبيتها العالمية ويقول مسئول تنفيذى للشبكة الأم فى لندن إن المشاهد يسعى إلى إم تى فى لأنها تحظى بفتنة، أو بريق، امريكى. عالمى. ومن بين المحاسن التى تتمتع بها، كشبكة كونية للتلفزة الموسيقية، أنها تملك اتصالات جيدة بنجوم الموسيقى العالميين. وفى عام ٢٠٠٢ قدمت عدة برامج تسجيلية عبر قنواتها عن الحياة الخاصة والفنية واسلوب معيشة نجوم موسيقى الـ Hip Hop الأمريكية، كما أنتجت فيلم «الاسبورنى» التسجيلى عن الحياة العائلية للمغنى الأمريكى Osbourne Ozzy.

وتحرص على بث المقابلات التليفزيونية مع النجوم وتنظم المسابقات والمهرجانات لهم فى مختلف المدن الأوروبية وتبثها على قنواتها وتسهم فى حملات الترويج الأوروبية للفنانين الأمريكيين وتسجيلاتهم الجديدة عبر مقابلات تجريها معهم فى أماكن تواجدهم وتقوم بذلك بدور الجسر بينهم وبين الأسواق الخارجية. هكذا أصبح للشبكة علاقات مركبة بالمشهد الموسيقى العالمى وأصبحت قوة عالمية فى هذه الصناعة عندما عرفت كيف تصل إلى المشاهد المحلى، وتتكيف مع ثقافات محلية. كما استطاعت تغليف الموسيقى العالمية بالذوق المحلى. إنها شبكة عالمية ذات صبغات محلية قادرة على عولمة صناعة الموسيقى.

عولمة السياسة

بدأت السياسة تتعولم، وبطرق متعددة، منذ الحرب العالمية الثانية. أصبحت العلاقات السياسية والاقتصادية بين الدول اكثر متانة وتشابكًا عبر شبكة من المعاهدات والاتفاقات. ظهر نظام عالمى تحكمه الأمم المتحدة ومنظمات حكومية دولية (IGO) مثل منظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولى. هذه المؤسسات ساعدت فى تأسيس انظمة دولية (او مجموعة قواعد) فى مجالات تتراوح ما بين حقوق الإنسان والاتصالات. تزايد استخدام الحكومات لـ «الحكومة العالمية» التى تضم منظمات دولية وقومية، حكومية وغير حكومية، فى قضايا عالمية مثل المخدرات والهجرة والتلوث.

وخلال العقدين الماضيين طُورت شبكتان عالميتان: BBC العالمية وCNN الدولية، كل ما من شأنه مواءمة النظام العالمى البازغ، وحققتا تغطية كونية وأصبح بإمكانهما نشر أطقم مصادر وجمع أخبار على نطاق العالم لضمان تغطية آنية للأحداث العالمية المهمة. وفى عام ٢٠٠٣ كان لدى CNN الدولية ٤٢ مركزاً للأخبار: ١١ فى الولايات المتحدة، ١٠ فى أوروبا، ٤ فى الشرق الأوسط، ٤ فى أفريقيا، ٩ فى آسيا، و٤ فى أمريكا اللاتينية. كما طورت شبكة عالمية من قنوات إقليمية ومحلية لها تسهيلاتها الإخبارية الخاصة بها. اعادت CNN هيكلة التغذية للشبكة العالمية على المستويات الإقليمية فى ستة برامج منفصلة: أمريكا الشمالية، أوروبا، الشرق الأوسط، أفريقيا، آسيا الباسيفيكية، جنوب آسيا، وأمريكا اللاتينية. ما يقرب من نصف البث الأسبوعى لهذه البرامج يتم إنتاجه محلياً، وهو يعادل ٥٠ ساعة بث وتستفيد هذه التغذية من ثلاثة مراكز إخبارية مندمجة كلية وتعمل خارج الولايات المتحدة: فى هونج كونج، المكسيك، ولندن.

وتعتمد BBC العالمية على ٥٨ من مراكز الأخبار كانت هيئة الإذاعة البريطانية قد انشأتها فى مناطق متفرقة من العالم. وتستفيد القناة من ٥ مراكز تغذية تغطى أوروبا، الأمريكتين، أفريقيا، جنوب آسيا، والشرق الأوسط عبر بانام سات Panam sat ويوتل سات Eutel sat. ويتمثل مفهوم الـ بى بى سى فى إذاعة الأخبار نفسها إلى الجميع مع التنويع فى برامج شئون الساعة، الأفلام والبرامج التسجيلية، وبرامج أسلوب المعيشة. وعلى خلاف ما سارت عليه الـ BBC، كان لـ CNN سلسلة مشاريع مشتركة مع شركاء محليين فى دول منها إسبانيا وتركيا حيث يتم إنتاج ما يبث فى كل من مدريد واستنبول مستعينة بالفنيين والإعلاميين والمهارات المحلية. كما تستفيد شبكة CNN الإخبارية العالمية من التسهيلات المتوفرة لفروعها المحلية فى الحصول على أخبار ما كانت لتحصل عليها بدونها. وقد تجلت هذه الفائدة خلال الهزات الأرضية التى ضربت شمال غرب تركيا عام ١٩٩٩. وكانت اطقم CNN التركية المحلية أول من تواجدت فى موقع الأحداث. كما كان للقنوات الإقليمية والمحلية مدخل على مصادر وأطقم أخبار CNN وأدت هذه الميزة دورها فى أحداث ١١ سبتمبر.

ولكل من BBC و CNN وضعه الفريد فى التعامل مع تعقيدات السياسات العالمية وتغطية نشاطات الأمم المتحدة. وتعد CNN أول شبكة تقيم مركز أخبار فى مقر المنظمة الدولية لبث التقارير الإخبارية المنتظمة عن أنشطتها. وتعطى التسهيلات المكرسة لأطقمها الإخبارية القدرة على تحقيق السبق الإخبارى العالمى، وتقديم خدمة متميزة لبناء مفهوم عالمى، للأحداث العالمية المهمة، يوسع الزاوية التى تحدد ملامح معالجة الأخبار العالمية فى الإذاعات الأرضية. ودائماً ما تتضمن التغطيات تقارير إخبارية وعرضاً لوجهات نظر مختلف الأطراف سامحة بذلك للصحفيين والمحللين إظهار التشعبات العالمية للأحداث. لقد صممت بى بى سى العالمية وسى إن إن الدولية نوعيات من البرامج فُصلت لكى تتناسب مع مشاهدين متعددى الجنسيات. وبالإضافة إلى نشرات الأخبار التى تبث على رأس الساعة، تشمل البرامج الإخبارية لـ BBC العالمية تغطيات لعالم المال والأعمال والبيئة والرياضة وبرامج التقارير الإخبارية للمراسلين والمحققين الصحفيين وشهود العيان والبرامج التحليلية مثل برنامج عالم سيمبسون الذى يقدمه جون سيمبسون محرر الشئون العالمية فى هيئة الإذاعة البريطانية، إضافة إلى المسلسلات الدرامية مثل مسلسل Life الدرامى المكرس لتناول انعكاسات العولمة على حياة البشر، وعروض المناقشات والمقابلات التليفزيونية التى تناقش قضايا الساعة وبعض البرامج الإخبارية الخاصة عن وسطاء متنفذين على المسرح العالمى ولديهم القدرة على إضفاء المفهوم الكونى على الأحداث العالمية. أما CNN فقد أطلقت فى أكتوبر ١٩٨٧ نشرة إخبارية عالمية باسم «العالم اليوم» تتضمن التقارير الإخبارية التى تذاع لأول مرة من خلال حشد من المراسلين والمعلقين. وتبث اليوم حشداً من البرامج الإخبارية السياسية والاقتصادية والرياضية والتسجيلية والآنية من موقع الأحداث. إن ما تقدمه قنوات الأخبار العالمية يمثل أيضاً إضافة قيمة على شبكات المعلومات التى تلعب دوراً متزايداً فى الدبلوماسية العالمية. وتعتمد قيادات سياسية ودبلوماسية وأعضاء فى منظمات عالمية على هذه القنوات كمصادر للأخبار الموثقة. وخلال الحرب فى أفغانستان عام ٢٠٠٢، نصح كولن باول، وزير خارجية الولايات المتحدة، رئيسه ونائب الرئيس بالابتعاد عن مشاهدة CNN بسبب الضغوط المضافة الناجمة عن استمرار التغطية الإخبارية للحرب.

كما تساعد شبكات الأخبار العالمية المشاهد على التأقلم مع تعقيدات السياسات العالمية. فالتدفق المستمر للمعلومات المستندة إلى مصادر إخبارية قوية، فى إطار منظور عالمى للأحداث، يمد المشاهد بإطار أفضل للتحليل يمكنه من فهم أفضل للأحداث العالمية. وهناك رغبة متنامية لتلقى الأخبار العالمية. كما أن كل الشبكات التليفزيونية عابرة الحدود حققت المزيد من الشعبية منذ أحداث ١١ سبتمبر.

خلال الحرب فى أفغانستان عام ٢٠٠٢، نصح كولن باول، وزير خارجية الولايات المتحدة، رئيسه ونائب الرئيس بالابتعاد عن مشاهدة CNN بسبب الضغوط المضافة الناجمة عن استمرار التغطية الإخبارية للحرب

التمويل العالمى

تحيط بالتمويل العالمى حقائق كثيرة تشمل تنامى الدمج لأسواق المال القومية ما بين بعضها البعض، التوسع فى تدفق

المال العالمى، وعولمة المؤسسات المالية مثل البنوك وبورصات الأوراق المالية والأسهم والسندات. كانت أنشطة التمويل العالمية تتطلب دائماً أنظمة معلومات عالمية، تقدم - عادة - من متخصصين فى المعلومات مثل وكالة رويترز للأنباء. اليوم نجد أن قناتين تليفزيونيتين تقدمان أنباء المال والأعمال، وأوجدتا تسهيلات لأطقم جمع الأخبار لتغطية قطاع التمويل العالمى. فمنذ عام ١٩٨١ تقدم قناة «بلومبيرج» معلومات مالية إلى دوائر التجارة ومحللى السوق، وقد أضافت التليفزيون كوسيلة أكثر تأثيراً لتقديم خدماتها، وذلك فى بداية التسعينيات. بدأت بلومبيرج البث من نيويورك وتوسعت عالمياً بإطلاق ٩ قنوات تلفزة بـ ٧ لغات حول العالم منها ٥ فى أوروبا لخدمة بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، إسبانيا، وإيطاليا. جميعها يتمتع باستقلالية ولكن بتنسيق مع مكتب لندن، لتقديم الأنباء العالمية، بيانات السوق، جديد المال فى الأسواق، أخبار آنية، وأنباء الطقس. وتستعين الشبكة بأكثر من ألف من الصحفيين الذين ينتشرون فى أنحاء العالم، وتستفيد القنوات الأوروبية من استوديوهات التلفزة فى لندن، فرانكفورت، ميلانو، باريس، ومدريد. كذلك نصبت الشبكة ٤٠ كاميرا تليفزيونية فى بنوك ومراكز أخبار مالية حول العالم، ولديها ١٠٠ كاميرا أخرى فى مناطق متفرقة.

وتحظى CNBC، أول شبكة عالمية لأخبار المال والأعمال، بانتشار عالمى واسع يمتد عبر ثلاثة أقاليم لتغذية التغطيات إلى أمريكا الشمالية، آسيا، أوروبا. وبدأ مؤشر داو جونز عمليات تلفزة داخل الولايات المتحدة فى عام ١٩٨٧، وانتقل إلى أسيا فى عام ١٩٩٣، وبدأ البث الأوروبى عام ١٩٩٥. بعد ذلك بعامين اندمجت شبكة داو جونز مع CNBC وتغير اسمها من «أخبار الأعمال فى آسيا» و«أخبار الأعمال فى أوروبا» إلى «CNBC آسيا وأوروبا». وتستفيد شبكة البث الأوروبية اليوم من التسهيلات المقدمة لأطقم الأخبار داخل هيكل CNBC فى آسيا وأمريكا الشمالية، وكذلك من الشركتين الأم اللتين تديران مشروعات إعلامية خاصة، وتقدم صحيفة «وول ستريت» التابعة لداو جونز وخدمته الإخبارية، إلى CNBC الأوروبية تغطية لا تنافس لأسواق المال العالمية. ومثل «بلومبيرج»، يوجد لدى CNBC مراسلون لدى جميع مراكز التجارة الرئيسية، وكاميرات للبث المباشر من منصات التبادل التجارى. وعندما تكون هناك أنباء مهمة تبث CNBC تقارير مراسليها على الهواء مباشرة وخلال دقائق من وقوع الحدث تقدم المعلومات الآنية. ويذهب جيرمى بينك Jeremy Pink، وهو مسئول تنفيذى فى الشبكة، إلى القول بأن CNBC تستطيع رفع سعر السهم إلى خانة بلايين الدولارات عندما تبث أنباء مهمة. وتحتفظ CNBC بقدرات تغذية على مستوى عموم الإقليم تغطى أوروبا وأعادت هيكلتها مع إعادة هيكلة القطاع المالى فى الإقليم على مدار العقد الماضى. ولم تعد الاتصالات تتم بين دولة ودولة ولكن بين قطاع مالى وآخر استناداً إلى أسس توحيد تحكم كل أوروبا.

إن عولمة التمويل، والربط بين أسواق المال، أوجبت التوسع العالمى فى تسهيلات أطقم الأخبار والتغطيات على مدار الساعة. وحققت «بلومبيرج» و«سى إن إن» الاستخدام الأشمل لشبكتيهما كى يواكبا، وعلى مدار الساعة أنشطة بورصات الأوراق المالية والأسهم. وتبدأ CNN الأوروبية تغطيتها للأسواق الأوروبية فى الصباح الباكر عبر برنامج Before the Bell «قبل أن يدق الناقوس» الذى يستعرض أهم أخبار الغد التجارية والأسواق الجديدة حول القارة ويستمر فى المتابعة إلى ما بعد منتصف اليوم. وتقدم CNBC فى برنامج لها عرضاً بالرسوم الإيضاحية وأعمال «الجرافيكس» حول أداء بورصات الأسهم والأوراق المالية فى مختلف دول أوروبا، حيث يشير اللون الأحمر إلى انخفاض السهم، والأخضر إلى ارتفاعه. تنتقل إلى تغطية الولايات المتحدة فى الساعة الرابعة مساء لمتابعة بورصة نيويورك، وتعود إلى أوروبا بعد نصف ساعة لاحقة لتغطية إغلاق بورصة لندن، ثم فرانكفورت. وفى المساء تعود إلى الولايات المتحدة لتغطية إغلاق بورصة الساحل الشرقى. وفى منتصف الليل تنتقل إلى آسيا لمتابعة افتتاح بورصتها. وبعد تتبع أخبار التجارة هناك تعود CNBC ثانية إلى البث المباشر من لندن، فى الساعة الخامسة صباحاً لعرض أهم ما فى اليوم من أخبار التجارة.

أسواق لا تعرف الحدود وتلفزة تتابع أحوال العالم دون تقيد بوقت أو حدود. تتخطى الزمان والمكان. وتسهم فى بناء نظام عالمى جديد. وقد تبدو التلفزة متخطية الحدود القومية كأيقونات لعصر العولمة لكنها تلبس العولمة الزى السائد.. على أحدث الطرز. ■

جـــدول ١

حجم التوزيع - للوقت الكامل - لـ ١٦ قناة تلفزة رئيسية لعموم أوروبا ١٩٩٧ - ٢٠٠٢ بالمليون جهاز تليفزيون منزلى

القنــــاة	١٩٩٧	١٩٩٨	١٩٩٩	٢٠٠٠	٢٠٠١	٢٠٠٢
ارتى Arte	-	٧٨,٩	٦١,٩	٦١,٩	٦٥,٠	٦٥,٠
بى بى سى برايم BBC Prime	-	-	-	٨,٢	١٠,٥	١٠,٨
بى بى سى العالمية BBC world	٢٥,١	٣٣,١	٣٩,٣	٤٥,٥	٩٤,٤	٥٦,٤
بلومبيرج Bloomberg	-	٢٧,٧	١٠,٣	٢٤,٦	٣٠,١	٣٧,٦
شبكة الرسوم المتحركة Cartoon Network	-	-	-	٢١,٠	٢٨,٦	٣٦,٩
سى إن بى الأوروبية CNB Europe	١٢,٦	٢١,٠	٢٦,٧	٣٢,٩	٤٠,٢	٤١,٩
سى إن إن العالمية CNN International	٥٨,٩	٦٧,٨	٦٨,٨	٧٣,٢	٨١,٠	٨٤,٧
ديسكفرى Discovery	٧,٠	١٦,٣	٢٠,٤	٢٦,٦	٣١,٤	٣٢,٩
يوروسبورت Eurosport	٧١,٩	٧٥,٦	٨٠,٦	٨٨,٣	٩٣,٠	٩٥,٣
يورونيوز Euronews	٣٠,٤	٣٤,٣	٣٤,٩	٣٤,٠	٤٤,٠	٤٨,٩
فوكس كيدز Fox Kids	-	-	١٥,٤	٢٣,١	٢٥,٠	٣١,٠
إم تى فى MTV	٤٤,٠	٥٨,٨	٧٩,١	٨٣,٦	٩٤,٢	٩٢,٨
ناشيونال جيوجرافيك National Geographic	٤,٠	١٤,٩	١٥,٣	١٩,٢	٢٢,٩	٢٦,٩
سكاى نيوز Sky News	-	-	٣٨,٩	١٨,٦	٢٢,٧	٢٤,٠
تى فى ٥ TV 5	٤٥,٥	٥٥,٧	٥٧,٦	٦٦,١	٦٨,٠	٧١,٤
فى إتش ١ VH 1	-	-	٢٠,٣	٢٣,١	١٩,١	١٨,٥
معدل التوزيع	٣٣,٣	٤٤,٠	٤٠,٧	٣٩,١	٤٥,٣	٤٧,٧

جـــدول ٢

التوزيع العالمى والأوروبى لمجموعة قنوات عالمية ولعموم أوروبا لعام ٢٠٠٢

(بالملايين من أجهزة الاستقبال المنزلية)

القنــــاة	التوزيع الأوروبى	التوزيع العالمى
بى بى سى العالمية BBC World	٤٩	٩٤
بلومبيرج Bloomberg	٣٨	٧٥
سى إن إن العالمية CNN International	٨٧	١٧٢
سى إن بى CNB	٥٥	١٨٠
ديسكفرى Discovery	٣٥	٢٢٢
إم تى فى MTV	٩٤	٣٨٢
تى فى ٥ TV5	٦٨	١٢٩
فى إتش ١ VH1	١٩	١٠٢

جـــدول ٣

أنشطة التلفزة عابرة الحدود فى أوروبا والتجمعات الإعلامية الرئيسية فى العالم

الترتيب العالمى لعائدات الإعلام (بين الأقواس)	عائدات الإعلام بالبليون دولار عام ٢٠٠١	المصالح فى قنوات التلفزة عابرة الحدود
أمريكا أون لاين - تايم وارنر (١)	٤٠.٣	شبكة رسوم متحركة. سى إن إن. أفلام تيرنر الكلاسيكية
والت ديزنى (٢)	٢٥.٣	ديزنى. فوكس كيدز
فياكوم (٣)	٢٤.٠	إم تى فى. نيكلوديون. فى إتش وان
بيرتلسمان (٤)	١٧,٦	—
فيفيندى. يونيفرسال (٥)	١٥,٥	قنال بلس: ستديو يونيفرسال، الشارع ١٣، سينيماز، سينيتلاسيك، بلانيتى، سيزونس، قنال جيمى
سونى (٦)	١٤.٩	سونى تى فى آسيا
مؤسسة الأخبار (٧)	١٣.٠	سكاى نيوز، ناشيونال جيوجرافيك، ستار بلس، فيونكس سى إن إن آى
لاجارديرى للإعلام (٨)	٧.٨	إم سى إم. ميزو. سينماز، سينلاسيك. سيزونس، بلانيتى، قنال جيمى
إن بى سى (١١)	٥.٨	سى إن إن بى. ناشيونال جيوجرافيك



الإعلام الوطنى وسط أعاصير الفضاء العالمى

أمينة شفيق

بات إعلامنا كالجيش الذى يزيد عدد جنرالاته على عدد جنوده. فى حين أن الإعلام الغربى لا يضم إلا الجنود القادرين على ملء الساحة الحوارية والفكرية

■ ■ لمجرد التذكرة بالتغييرات الكبيرة التى حدثت فى المجال الإعلامى، نلقى الضوء على عدة أحداث لجأنا فيها إلى الإعلام الوطنى والخارجى خلال الفترة الزمنية الأخيرة التى تزيد قليلا على ربع القرن. نغطى التغييرات التى طرأت على أساليب وصول المتلقى لبعض الأحداث التى جرت فى الفترة من عام ١٩٨١ إلى عام ٢٠٠٤.

فى السادس من أكتوبر عام ١٩٨١ اغتيل الرئيس محمد أنور السادات. كنا، نحن المصريين، نتابع الاستعراض العسكرى السنوى الذى كان يقام بمناسبة انتصار أكتوبر المجيد، عندما انطلقت «رصاصات» وتوقف الإرسال التليفزيونى المصرى. فأحسسنا أن شيئا ما حدث. وبعد فترة، أحسسناها ثقيلة وممتدة، عاد الإرسال، باثا نشيدا حماسيا للفنانة فايدة كامل ثم تلاه قراءة ممتدة لآيات من الكتاب الكريم. بناء على هذه المؤشرات، تيقن المصريون من خطورة ما حدث ولكن كان عليهم تحمل ساعات الانتظار الشديد الصعوبة حتى يفيق إعلامهم من «غفوته الرسمية»، ويبلغهم بحقيقة ما حدث.

حينذاك، لم نمتلك، نحن المصريين، إلا إدارة مؤشرات الراديو وتكرار إدارتها. أتصور أننا ركزنا جميعا على ثلاث محطات إذاعية عالمية هى الـ بى.بى.سى. وصوت أمريكا ومونت كارلو. وذلك لمحاولة التعرف على حقيقة الأحداث وتقدير أبعادها، حيث إن الإذاعات المصرية كانت تبث هى الأخرى آيات من الكتاب الكريم دون أن تشير إلى الحدث ومتتالياته السياسية. كنا قلقين على وطننا وشعبنا. كنا نبحث عن الخبر الجلل. فبالإضافة إلى أن الوصول إلى الحقائق الوطنية يشكل أحد الحقوق الأصيلة لنا كمواطنين، فهو واجب كل مصرى محب لوطنه.

عندما لم يسعفنا إعلامنا الوطنى، لم ننتظره. تركناه واتجهنا إلى الإعلام العالمى.

حتى عام ١٩٨١ كان للإعلام المرئى الوطنى سيادته على كل أرض الوطن. فى حين، كان للإعلام المسموع بعداه الوطنى والعالمى. فكان البعد العالمى الإذاعى الملجأ الأساسى والأكثر سرعة للوصول بالخبر إلى المستمع الذى هو فى حالتنا هذه، المواطن المصرى. أما الإعلام المطبوع من صحف ومجلات، فكان يحتاج إلى الوقت اللازم والممتد ليصل بالخبر وبالرأى وبالتحليل إلى يد القارئ فى اليوم التالى على الأقل.

وجاء عام ١٩٩١ عندما شنت قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية حربها على الجيش العراقى المحتل للكويت. حتى هذا العام كانت الإذاعات الثلاث، الـ بى.بى.سى. وصوت أمريكا ومونت كارلو، لا تزال المصادر الأساسية السريعة للحصول على المعلومات والأخبار المتعلقة بحرب الخليج. ولكن بدت وسائل الإعلام المطبوعة أكثر تنوعا. حيث بدأت بعض الصحف الممولة خليجياً تصدر طبعاتها الخاصة العربية المشرقية والعربية المغربية. كانت طبعاتها تصلنا فى مصر بشكل منتظم.

فى هذه الحرب استجد الجديد فى مصر، عندما ظهرت على أحد الترددات التليفزيونية المصرية برامج محطة إرسال غير مصرية كانت قد اكتسبت شهرة عالمية كمحطة إرسال كونية تبث من مدينة أطلنطا عاصمة ولاية جورجيا الأمريكية وهى محطة الـ سى. إن. إن. استمرت الـ سى. إن. إن. تبث إرسالها المباشر عن حرب الخليج الثانية على مدار الأربع والعشرين ساعة على شاشات كل أجهزة التليفزيون العربية، بلا اشتراك نقدى وبلا احتياج من المتفرج إلى طبق استقبال فضائى.

هذا الجديد المستجد، أحدث تحولا نوعيا فى علاقة المتفرج والمستمع والقارئ المصرى بالخبر وبالحدث المرئيين. هذا التحول النوعى لم يأت بالخبر إلى المتفرج بسرعة وبمصداقية فحسب، وإنما جاء بالحدث ذاته إلى المتفرج وهو مستلق على مقعده وجالس بين أهل بيته. جاء هذا الجديد بالحدث لحظة وقوعه وبحجمه الطبيعى. وتجسد التحول بشكل هائل عندما كان الخبر الأول الذى قدمه هو واقعة حرب شرسة تشنها قوات دولية على جيش عربى محتل لبلد عربى آخر. وينتمى البلد الغازى والآخر المغزو إلى مجموعة بلدان منابع النفط العربى.

وربما كانت هذه هى المرة الأولى التى تصبح فيها الحرب مادة للتفرج والمتابعة وكأنها فيلم سينمائى أو مسلسل أمريكى «للأكشن» أى أفلام ومسلسلات الحركة والعنف.

وبجانب هذا المستجد الذى جسدته الـ سى. إن. إن. لابد من ذكر أن قسم الإذاعة البريطانية الذى يبث باللغة العربية والمعروف بالـ بى. بى. سى. استغل الفرصة ودشن مشروعه للإرسال الممتد لأربع وعشرين ساعة. كانت حرب الخليج الثانية فرصة لتقديم هذه الخدمة الإعلامية الجديدة بحجة الامتداد بالإرسال لنقل تفاصيل المعارك الدائرة فى الحرب. وبالتالى حقق القسم العربى للـ بى.بى.سى. دنوا هائلا من المستمع العربى بسبب كم ساعات الإرسال ونوعيته المهنية المتميزة.

ثم جاء الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ ليفاجأ المتفرج وهو يتابع شاشات التليفزيون فى بيته، مشهد لأحد أبراج نيويورك وهو مشتعل من جانب نصفه العلوى. بدأ بث الحدث بعد دقيقة واحدة من وقوعه، ثم بعد حوالى ربع ساعة استطاع المتفرج أن يشاهد الطائرة الثانية وهى تصطدم بالبرج الثانى. لتستمر متابعة المشاهد للانهيار الكبير الذى لحق بأحد رموز الرأسمالية الأمريكية المطلة على الأطلنطى. لم يتلهف المتفرج إلى جريدة اليوم التالى ليعلم منها تفاصيل الحدث. كان يعرفها جيدا لأنه شاهد وقوعها. فركز على تحليلها وتوقعات نتائجها.

أما الأحداث الكبار

التالية لواقعة برجى نيويورك، فلم تحتج هذه الأحداث إلى الاستئذان للدخول إلى بيت كل منا. فقد كانت الفضائيات قد ملأت الفضاء بكل اللغات ومن كل البلدان والقارات. وباتت الأطباق التى تعلو البنايات لاستقبال البث الفضائى وكأنها جزء من هندسة البنايات وديكورها العلوى. صنعت الأطباق غابة واسعة على أعلى كل بناية. بل تجاوزت حدود العواصم لتصل إلى مراكز المحافظات وحتى إلى عدد لا بأس به من القرى. كما تجاوزت خصوصية المنازل لتنتشر فى المقاهى والنوادى والنقابات والأماكن الاجتماعية العامة. وأصبح المتفرج أمام مئات الخيارات الإعلامية التى يستطيع أن يقارن بينها وبالتالى يستكمل الخبر من كل جوانبه.

لقد عايشنا تفاصيل غزو التحالف الغربى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لأفغانستان ونتذكر ذلك المشهد الدرامى لمراسل فضائية «الجزيرة»، وهو يتابع سقوط الصواريخ على البنايات المتهدمة، فى الأصل، فى كابول وفى ذات الوقت يتابع سقوط زميله المصور من أعلى البناية التى يبث منها الإرسال.

ثم تابعنا تفاصيل الغزو الأنجلو أمريكى للعراق. شاهدنا الصواريخ وهى تصيب البنايات الواحدة بعد الأخرى. شاهدنا النيران وهى تشتعل فى أحياء بغداد. كنا نقارن بين بيانات وخيالات وزير الإعلام العراقى السابق وبين الواقع العسكرى الجديد الذى تنشئه الهجمات العسكرية الأنجلو أمريكية.

الخلاصة أننا لم نعد ننتظر جريدة الصباح أو النشرة الإذاعية أو التليفزيونية المحليتين لنتلقى منها الخبر.

أصبح الخبر يدخل إلينا لحظة وقوعه ويخدش خصوصيتنا ويتحول إلى حدث منزلى يشغل كل أفراد الأسرة ويحتل مكانا ومساحة فى اهتماماتها ونقاشاتها. باتت عبارة «خبر عاجل» عبارة نعرفها جيدا كمتفرجين.

ولم يعد الإعلام الفضائى الواسع الانتشار، بكل تقنياته الحديثة المتلاحقة والمتسارعة وبأسعاره التى تميل إلى الانخفاض بحيث تصبح فى متناول شرائح جديدة من المواطنين فى كل مكان، يفرق بين أحداث حرب إقليمية أو صراع داخلى فى دارفور أو حركة معارضة شعبية تسقط رئيس جمهورية جورجيا لتجرى انتخابات جديدة فى البلاد أو حادث إرهابى فى جزيرة بالى الأندونيسية أو حادث قطار فى الهند أو تركيا أو مشاهد الدمار التى أحدثها زلزال شمال إيران أو حتى تفاصيل مسابقات الجمال والمباريات الرياضية. باتت كل الأحداث، ضيوفا مفروضين، على المشاهد الجالس وسط أسرته فى منزله فى حى وطنى راق فى لندن أو جوهانسبيرج أو الرباط أو فى قرية صغيرة تعيش على الاقتصاد الزراعى فى مصر أو سوريا أو الهند أو جمهورية جورجيا الأسيوية.

بل امتد التأثير لما هو «أعظم»، عندما قدم هذا الفضاء لكل مشاهدى العالم الحوارات السياسية التى دارت بين حزبى المحافظين والعمال إبان انتخابات عام ١٩٩٧ البريطانية عندما ألغى تونى بلير زعيم حزب العمال والمرشح حينذاك لرئاسة الوزارة، المادة الرابعة من القانون الأساسى للحزب وهى المادة الخاصة بمبدأ «التأميم»، ونقل الملكية الخاصة إلى الملكية العامة، ثم عندما قدم الفضاء تفاصيل محاكمة بيل كلينتون إبان أحداث فضيحة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية مع مونيكا ليونسكى وما أحاط ذلك من تحقيق معلن تابعه ملايين البشر، ثم تلك المناقشات البرلمانية الحادة والحامية التى جرت داخل مجلس العموم البريطانى والتى هدفت لمحاسبة تونى بلير رئيس الوزراء البريطانى على أسباب اشتراكه فى الغزو على العراق ثم على أدائه فى هذه الحرب، والعديد والعديد من الأحداث السياسية التى تأخذ المشاهد وتقوده إلى عقد المقارنات بين ما يحدث هنا وما يدور هناك.

هذا ما يقع يوميا بالنسبة للحدث الذى يأتى إلينا عبر الأثير أو الفضاء أو الورقة المكتوبة. لكن توجد أحداث أخرى يسعى إليها القارئ أو المستمع أو المشاهد. يسعى الإنسان إلى العالم وأحداثه من خلال تقنية أخرى غزت بيوت الكثيرين منا وسوف تغزو بيوت العديدين الآخرين فى المستقبل القريب. باتت شبكة المعلومات العالمية كتابا مفتوحا وموسوعة مجانية أمام كل البشر القادر على شراء أدواتها، كذلك أمام الآلاف الساعين إليها عبر «مقاهى النت»، والتجمعات التى باتت تتزايد فى أعدادها يوما بعد يوم.

تجاوزت شبكة المعلومات العالمية حدود الأثير والفضاء والورقات المطبوعة، لأنها لم تعد تقدم الحدث فحسب وإنما باتت ساحة للحوارات والمناقشات التى تدور بين المشاركين فيها عبر القارات والمحيطات. ولا تدور الحوارات «الكونية»، هذه عن الموضة أو عن أحدث برامج «خفض الوزن والحفاظ بالرشاقة»، فحسب وإنما تدور فى الأساس، وفى الغالب والأعم، حول ما يهم البشر من اهتمامات سياسية وثقافية واجتماعية. كل فى وطنه وفى أوطان الآخرين.

الخلاصة هى أن العقل الإنسانى يقع الآن تحت مؤثرات إعلامية عامة لم تكن فى حسبان مخططى الإعلام الوطنى المحلى منذ ما يقرب من ربع قرن من الزمان، عندما وقع حادث اغتيال الرئيس السادات فى العرض العسكرى. حينذاك، كانت كل ساحة وطنية من صياغة المؤثرات الوطنية المحلية فحسب. أو الأكثر دقة، عندما كانت وسائل الإعلام والاتصال التى تقدم الخبر والمعلومة والتحليل لمواطنى كل بلد، لها حدود وطنية صلبة يصعب اختراقها أو التسلل منها. وبتعبير آخر، عندما كانت الحدود الوطنية لوسائل الإعلام والاتصال مثل الحدود الوطنية للوطن ذاته، قوية صلبة. أما الآن فحدودها كحدود الأوطان مسامية رخوة تسمح بمرور الأفكار والآراء والأخبار، كما تسمح حدود الوطن بمرور السلع والمال والأفراد.

وهنا تكمن الخطورة. لأن كل هذه الأفكار والآراء والأخبار تتجه إلى عقل المواطن حيثما كان. حتى لو كان هذا المواطن من أبناء إحدى الجزر النائية فى أى من المحيطات الواسعة.

والإعلام ليس مجرد تقنية حديثة تنحصر مهمتها فى انتقال الكلمة أو الصورة وإنما هو فى الأساس فكر ومضمون يتجهان إلى عقل ووجدان الإنسان. يعكس الإعلام ما يجرى فى المجتمع المحلى والعالمى من حركة سياسية واجتماعية. كما يشارك فى تطوير هذه الحركة لصالح تقدم المجتمع ذاته. وفى ذات الوقت يحتضن ويبشر بكل ما هو جاد من قيم وأنساق تدعم من الديمقراطية والعدل والمساواة والتسامح وقبول الآخر. ويستطيع الإعلام أن يسهم فى خلق أوسع الحوارات الفكرية حول قضايا المجتمع بحيث يحقق أكبر مشاركة فيها للوصول إلى أعمق الحلول لها. ولنا أن نتابع هذه الحقيقة فى تلك الأدوات الإعلامية المطبوعة أو المرئية أو المسموعة التى تتمسك فى كونها أدوات إعلام سياسية فحسب، والدور الذى تلعبه فى برامجها الحوارية.

لا نعنى بذلك تلك «الخناقات» العربية التى تأتى فى بعض الفضائيات العربية والتى لا يمكن فهمها أو متابعتها. وإنما نعنى تلك الحوارات التى تحمل إلى وسائل الإعلام هموم الناس وقضاياها ومشاكلها وتطرحها من جوانبها المتعددة بكل شفافية وصراحة. كما أننا لا نعنى تلك الرسائل الإعلامية الموجهة إلى غرائز الناس ولكننا نعنى تلك الرسائل التى تتحدث إلى عقل البشر السياسى والاجتماعى والتى تهدف فى النهاية إلى الارتفاع بدرجة وعيهم بمصالحهم الوطنية والاجتماعية وإلى دعم كل القيم الإنسانية الجادة التى لابد أن تتسلح بها كل الإنسانية.

فى التاريخ القديم كانت الأفكار والآراء تنقل فى الأساس من خلال الكتاب المنسوخ بالأيدى وفى مرحلة لاحقة، كانت تنقل بواسطة الكتاب المطبوع وذلك بعد اختراع أوروبا للمطبعة فى القرن الخامس عشر. ولكن ظلت

فى أقطار عربية، خاصة تلك البلدان المالكة للسيولة المالية العالية، استمر الإعلام إما حكوميًا أو مملوكًا من أفراد ينتمون إلى الأسر المالكة للسلطة والثروة فى البلاد أو فى بلدان أخرى يمتلك هذه الوسائل أفراد قريبون من السلطة السياسية

حركة الانتقال هذه محدودة فى إطار عدد البشر المسكين بمفاتيح اللغات التى تؤلف بها الكتب الحاملة للفكر والرأى. إلى أن قام المثقفون العظام القدامى بترجمة الكتاب إلى كل اللغات المحلية. ومع اتساع حركة الترجمة، انتشرت الأفكار بعض الشىء ولكن استمرت تأثيراتها فى حدود العارفين بمفاتيح القراءة والاطلاع. قديما، كان عدد هؤلاء القادرين على القراءة قليلا. ثم اتسع عددهم مع انتشار التعليم الذى بات الآن حقا إنسانيا مسجلا كأحد الحقوق الواردة فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر عام ١٩٤٨. ثم ازدادت حركة انتقال الأفكار والآراء مع صدور الكلمة المكتوبة التى يتابعها القراء من الصحف اليومية والمجلات والدوريات.

ولكن تستمر الكلمة المكتوبة ملكا للذين تعلموا القراءة ويستطيعون شراء الكتاب والجريدة والمجلة والدورية. أتصور انهم لايزالون أقلية فى هذا العالم وخاصة فى عالمنا النامى الفقير وتحديدا فى بلدنا، مصر.

وإذا جئنا إلى البث الإذاعى فسوف نجده أكثر انتشارا من الإعلام المطبوع وذلك لانخفاض أسعار أجهزة الراديو بالإضافة إلى سهولة تحركها، تحديدا بعد اختراع الترانزيستور وبطارياته الصغيرة. فى محافظة مصرية حدودية كمحافظة مطروح، يقال أن الراديو هو صديق المرأة البدوية. تستطيع هذه الريفية المطروحية حمل جهاز الترانزيستور إلى أى مكان تمتد إليه أغنامها للرعى. تستمع إلى إذاعة مطروح المحلية والبرنامج العام المركزى ويمكنها، إذا أرادت أو وعت، أن تدير المؤشر إلى أى إذاعة عالمية.

نتذكر جميعا تلك النقلة الإعلامية الكبيرة التى أحدثها انتشار الترانزيستور بدءا من العقد الستينى خاصة بعد أن أنتجت الدولة المصرية من خلال القطاع العام الإلكترونى أجهزة ترانزيستور شعبية، كان الفلاحون المصريون يحملون أجهزتهم إلى حقولهم بعد أن صمموا لها أغطية نسيجية خاصة تحميها من الأتربة.

الذى نركز عليه الآن هذا الحادث بخصوص تلك النقلة الجديدة الفضائية الهائلة التى تقدم الحدث الذى يشاهده ويتابعه المتفرج المنتمى لكل الشرائح، الأمية والمتعلمة ونصف المتعلمة والمثقفة. وهى نقلة تعتبر، فى واقعها الجامع هذا، نقلة إنسانية ديمقراطية لأنها ساوت بين البشر وجعلت من كل المشاهدين، بغض النظر عن مستواهم التعليمى، أصحاب حق أصيل ليس فى الحصول على المعلومة والخبر بحسب، وإنما فى رؤية الخبر والمعلومة لحظة وقوعهما. من لا يستطيع الحصول عليهما باللغات الأجنبية يمكنه الحصول عليهما بلغته المحلية ومن لا يستطيع الحصول عليهما فى البيت يمكنه التوجه إلى المقهى أو النادى أو النقابة.. إلى آخر هذه التجمعات. والأهم والأكثر أهمية، من لم يستطع الحصول عليهما من إعلام بلاده يمكنه الحصول عليهما من الإعلام الخارجى.

فى النهاية بات الحدث والخبر والمعلومة ملكا لكل البشر الساكنين هذا الكوكب الذى هو الأرض.

الا تشكل هذه النهاية السعيدة موقفا ديمقراطيا أصيلا لابد من أن «يشارك» فيه إعلامنا الوطنى (المصرى كمثال) بحيث يسهم بشكل جدى فى إثرائه وتطويره؟

وفى هذا الشأن لابد من ذكر نقاط أساسية تمثل وجهة نظر فى هذه المشاركة.

الأولى هى أن الإعلام المقروء والمسموع والمرئى لا يحقق نجاحاته إلا إذا كان انعكاسا لفكر اجتماعى جمعى محدد. يترجم الإعلاميون هذا الفكر إلى رسالة جيدة التكوين المهنى ويسعون إلى التعبير عنها ونشرها وكسب المؤيدين لها وطرح آراء المعارضين لها. إذا كان المجتمع يمر من مرحلة تطور إلى أخرى أكثر رقيا وتقدما، يقوم الإعلام والإعلاميون القائمون عليه بحمل رسالة التطور هذه، بوعى وإدراك، فى أعمالهم بحيث يسهمون فى سرعة إنجازها بنجاح.

ولمحاولة التوضيح، فالمجتمع المصرى مثلاً يمر الآن بمرحلة تقتضى استكمال مرحلة التحديث التى بدأت منذ قرنين من الزمان. مرحلة تحديث، امتدت حلقاتها طويلا دون إنجازها. كما أنه وبحكم الظروف العالمية والإقليمية المحيطة به والمؤثرة فيه، يحتاج المصريون إلى مساندة هذا التحديث بأفكار وقيم وأنساق الحداثة. فتحديث الاقتصاد والمؤسسات والهياكل والعلاقات لابد من مصاحبته بحداثة فكرية تعترف بقيم الديمقراطية والمساواة والعدل والحرية وقبول الآخر والمختلف والتسامح معه بحيث تصبح هذه القيم جزءا من الوجدان الإنسانى المصرى لدى الجميع، بدءا من الحكام ونهاية بالمحكومين. وللإعلام المصرى دوره، الأصيل، فى تحقيق التحديث وفى نشر قيم وأنساق الحداثة.

الثانية هى أن الإعلام المصرى كمثال، سواء اعترفنا أو لم نعترف، ينظر إليه عالميا كجزء من منظومة إعلامية عربية لها ما لها وعليها ما عليها. يمثل جانب كبير منها توجها حكوميا سلطويا مباشرا لا يحتضن إلا السياسات الرسمية سواء استندت على إرادة شعبية أو لم تستند. ويقف هذا الإعلام من هذه السياسات الموقف السلبى دون محاولة معارضتها أو حتى نقدها وتقييمها. تستخدم السلطات هذا الإعلام «بحرفنة عربية ساذجة، لدى أصدقائها فى حالة الصفاء كما تستخدمه لدى أعدائها فى حالة الجفاء. وهو الجانب الممثل لأغلبية وسائل الإعلام العربية ومنها أجهزة الإعلام المصرية المقروءة والمسموعة والمرئية.

ثم يأتى الجانب الآخر الذى يمثل الحيز الأصغر لوسائل الإعلام والاتصال كإعلام قائم على أساس المشروع الخاص المالك لمساحة من الحرية والاستقلالية التنظيمية أو الأصح الاستقلالية الإدارية المعلنة، ولو ظاهريا، عن الجالسين على سدة الحكم العربى.

وعندما ينظر عالميا لهذه المنظومة الإعلامية العربية من قاعدتى الاستقلالية أو التبعية فإن النظرة تصبح أكثر نقدا وانتقادا عندما يحدث هذا التقييم على أرضية التحولات الاقتصادية الجذرية التى جرت خلال ربع القرن الأخير والتى انتقلت فيها أعداد من الوحدات الإنتاجية من الملكية العامة إلى الملكية الخاصة. فى عدد كبير من الأقطار العربية تمت خصخصة الاقتصاد دون إجراء خصخصة حقيقية لمجالين آخرين أساسيين الأول هو المجال السياسى والثانى هو المجال الإعلامى. وفى أقطار عربية أخرى، خاصة تلك البلدان المالكة للسيولة المالية العالية، استمر الإعلام إما حكومياً أو ـ وهذا فى أكثر الأحوال ـ مملوكاً من أفراد ينتمون إلى الأسر المالكة للسلطة والثروة فى البلاد، أوفى بلدان أخرى يمتلك هذه الوسائل أفراد قريبون من السلطة وكتلها السياسية.

وفى الحالتين استمر الإعلام «مربوطا» و«مقيدا» بمقاعد السلطة وبمن هم جالسون على سدتها.

الثالثة هى أن الإعلام المصرى يعمل ويمارس نشاطه وسط إعلام عربى رسمى تتباين قدراته. وكما أن الدول العربية تتباين فى قدراتها الاقتصادية وتنقسم إلى دول تملك السيولة وأخرى لا تملكها، فإن الإعلام يقع تحت ذات التقسيمات. يوجد إعلام عربى مملوك لدول عربية غنية وبالتالى ينعكس هذا الثراء فى عدد المطبوعات التى تصدرها وعلى نوع وفخامة إخراجها. كما ينعكس على عدد الفضائيات التى تنطلق حاملة علمها ونشيدها الوطنيين. ويوجد إعلام عربى مملوك لدول عربية فقيرة، فينعكس هذا الفقر على قدراتها فى إصدار المطبوعات وفى عدد الفضائيات التى تبثها وعلى نوعية برامجها. فالواقع الاقتصادى لكل بلد عربى ينعكس على «آلة» إعلامها الرسمى السائد وسواء كان موجها للداخل أو للخارج.

هذا إذا تحدثنا عن حجم الإعلام، أما إذا دلفنا

من الأهمية بمكان إحداث نقلة فى الإعلام المصرى بعد أن تحققت «المرحلة الأولى» التى يشار إليها كمرحلة أنجز الإعلام الوطنى فيها انتشاره فى شكل مساحات زمنية وترددات فضائية عديدة

إلى نوعه فسوف نواجه بمادة إعلامية تتشابه فى نوعية رسالتها الرسمية المباشرة مع بعض التعديلات التى تصنعها الأسماء الرسمية التى عادة ما تحتل أولوية البث حتى لو تحققت هذه الأولوية على حساب حدث جلل كحدث سقوط بغداد فى أبريل عام ٢٠٠٣.

ومع اتساع المساحة الزمنية الإعلامية فى كل وسائل الإعلام العربى الرسمى عامة والمصرى خاصة ومع عدم قدرة كل بلد على حدة على ملء هذه المساحات فإن المشاهد العربى يواجه بـ «توحد» إعلامى عربى موجه له فى شكل الأفلام المصرية القديمة والجديدة و«الأبيض وأسود» أو «الألوان» والمسرحيات المصرية وخاصة الكوميدية ثم المسلسلات التليفزيونية المصرية وخاصة ما ينتج منها لشهر رمضان الكريم. هذا بالإضافة إلى كم الأفلام الأمريكية المتنوعة التوجه السياسى والقيمى والمتفاوتة فى النوعية والجودة والتى تسهم هى الأخرى فى ملء المساحات الزمنية الممتدة لأربع وعشرين ساعة. فتَكَوَّن لدى المشاهد المصرى والعربى معا «حالة مزاجية» غريبة تنبع فى الأساس من هذه المتابعة الفنية المتكررة التى تضعه بين عالمين، الأول عالم خارجى ملىء بالحركة السياسية وأحداثها والثانى عالم داخلى محاط بالاسترخاء والتهميش الفكريين.

ويمكن متابعة العناصر المكونة لهذه «الحالة المزاجية» عندما نرصد مجموعات الأغانى التى تبث على فترات متقاربة على شاشات كل أجهزة التليفزيون المصرية والعربية المحلية والفضائية، أو الأفلام المصرية التى يكاد المشاهدون يحفظون حواراتها عن ظهر قلب نتيجة تكرار عرضها والمسرحيات التى تبث لمئات المرات أو المسلسلات الدرامية المصرية التى تتناول الفضائيات بثها بترتيب زمنى غير متضارب، يصعب تصديق أنه غير مخطط من الجميع. ناهينا عن البرامج الحوارية الفنية، السينمائية أو الغنائية، التى تبدأ فكرتها من القاهرة لتنتشر على طول المنطقة العربية لتعطى إحساسا أننا لا نملك إلا الفن الدرامى والموسيقى دونًا عن كل الفنون الأخرى ودونًا عن كل مجالات العلوم والإنتاج التى تقيم دعائم أى مجتمع.

أقل ما يمكن أن يقال أن هذه الكثافة الإعلامية الفنية تعبر عن عجز أجهزة الإعلام العربية وفى مقدمتها الأجهزة المصرية عن ملء المساحات الزمنية الممتدة، التى التزمت بها، دون امتلاك مجتمعاتها لحركة ديناميكية عامة تقدم لها المادة الوفيرة السياسية والثقافية والاجتماعية الضرورية ودون أن تمتلك هذه الأجهزة للكوادر الفنية اللازمة لتحويل الحركة المجتمعية إلى رسالة إعلامية راقية.

والرابعة هى أن التقييد الإدارى للإعلام يتباين من وسيلة إعلامية إلى أخرى. ويحدد مدى انتشار الوسيلة قدر التضييق والتقييد. فكلما اتسع الانتشار زاد التضييق وكلما ضاق الانتشار كلما قل التضييق. فعادة ما يكون الكتاب أكثر حرية من المجلة ثم تكون المجلة أكثر حرية من الجريدة فى حين أن الجريدة تكون أكثر حرية من الإذاعة. لتأتى فى النهاية شاشة التليفزيون لتتحمل أكبر حجم من التقييد.

الخامسة هى أن لدينا إحساساً دائماً بأن الهرم الوظيفى فى الإعلام المصرى المرئى والمسموع مقلوب. وقد نما هذا الإحساس بعد المتابعة الدقيقة لمحطات الإذاعة والفضائيات الغربية بالتحديد. ويتأكد هذا الإحساس إبان الأحداث الإقليمية أو العالمية الهامة عندما نتعرف على حجم التباين بين نوع الخدمات الخبرية التى تقدمها الفضائيات أو الإذاعات المختلفة. فالملاحظة التى تحيط بوسائل الإعلام الخارجى هى كبر حجم المراسلين المنتشرين فى كل مناطق العالم الجغرافية بالمقارنة بحجم وعدد مقدمى ومقدمات البرامج أو عدد قارئى وقارئات نشرات الأخبار من الإعلاميين. فى إحدى الفقرات الفاصلة بين البرامج لإحدى المحطات الأوروبية تذكر الفضائية أن لها أكثر من مائتين وخمسين مراسلاً ومراسلة ينتشرون فى غالبية المواقع الحساسة وغير الحساسة من العالم. فى حين أن هذه الفضائية تحديدا لا يظهر على شاشاتها أكثر من ثلاثين مذيعاً ومذيعة ومقدم ومقدمة برامج وقارئًا وقارئة للنشرات الإخبارية. وهى حقيقة تقدم السبب الذى يجعل هذه الفضائية سباقة فى التغطية الخبرية فى كل الأحداث التى وقعت فى الشرق الأوسط وفى غيرها من المناطق خلال الفترة الماضية. هذا بالإضافة إلى نوعية التدريب المهنى والسياسى التى يحصل عليها أو يمر بها، بشكل مباشر فى ساحة العمل، كل الذين يظهرون على الشاشة. فى غالبية الأحوال يمضى مقدم البرامج أو قارئ النشرة فترة ممتدة من حياته المهنية كمراسل لهذه الفضائية فى مواقع الاحتكاك. وبالتالى يمكننا فهم السبب فى هذا المستوى الرفيع من الحوارات السياسية التى يجريها هؤلاء الإعلاميون مع السياسيين والاقتصاديين الذين تتم دعوتهم إلى حوارات الفضائية. ولو نتذكر ما كان يحدث فى إعلامنا المصرى فى العقد الستينى فسوف نسترجع أن هذا المنحى كان فى بداياته الأول مع الإذاعيين المصريين ثم توقف لأسباب لا نعلمها.

بات البناء الوظيفى لإعلامنا المرئى والمسموع كالجيش الذى يزيد عدد جنرالاته على عدد جنوده. فى حين أن البناء الوظيفى لأجهزة الإعلام الغربى لا يضم إلا الجنود القادرين على ملء الساحة الحوارية والفكرية فى أى وقت وفى أى موضوع يثار.

كانت هذه ملاحظات عامة تحيط بإعلامنا المصرى وخاصة بإعلامنا المرئى والمسموع. وهى ملاحظات تبدو فى مجملها سلبية ولكننا نشعر أنها ملاحظات فعلية لابد من أخذها فى الاعتبار ونحن نسعى إلى المشاركة الإعلامية المصرية الحقيقية فى صياغة هذه النقلة الفضائية الكونية الجديدة التى، كما ذكرنا، تحمل سمات ديمقراطية وإنسانية أكثر من كل تلك السمات التى حملتها أية نقلة إعلامية سابقة أخرى.

وفى كل الأحوال هذا هو الحادث فى إعلامنا من ملاحظات.

ويحدث هذا فى الوقت الذى تتسع فيه، مع صباح كل يوم، ساعات الإرسال الفضائية ومصادرها العالمية المتنوعة التوجه السياسى والثقافى، التى تخترق فضاء مصر وكل المنطقة العربية، كما تخترق كل بلدان ومناطق العالم، حاملة معها الآراء والأفكار فى شكل بيانات إخبارية وحوارات فكرية مليئة بالرأى والرأى الآخر وما بينهما من ألوان الطيف الفكرى. هذا بجانب الأفلام التسجيلية التى تقدم للقارئ المعلومة الجادة عن الحقائق المتنوعة للعالم الذى يعيش فيه. كما يحمل هذا الإرسال الفضائى المتنوع الأحداث التى تجرى فى مصر والتى لا ترد فى شاشاتنا التليفزيونية أو عبر أثير الإذاعة بنفس السرعة وبذات الشفافية والدقة.

فى هذا المناخ تطرح آراء ومقولات تشير إلى أهمية إحداث نقلة نوعية فى الإعلام المصرى بعد أن تحققت «المرحلة الأولى» التى يشار إليها كمرحلة أنجز الإعلام الوطنى فيها انتشاره فى شكل مساحات زمنية وترددات فضائية عديدة. فما هى عناصر تلك «النقلة النوعية» التى تتم الإشارة إليها الآن كما نتصورها؟

فى البداية لابد من مناقشة هذا الحيز المتاح من حرية التعبير فى وسائل إعلامنا. ولابد من الاعتراف أن هذه المساحة المتاحة الآن لحرية الرأى والتعبير للمختلف مع كل ما هو رسمى لم تعد كافية لبناء إعلام يستطيع أن يشارك فى تحقيق فضاء ديمقراطى يسهم فى إثراء المجتمع الإنسانى ككل. وإذا كنا نطلب من الدول الكبرى ذات السيادة على الاقتصاد العالمى وبالتالى على العديد من المجالات الأخرى ومنها المجال الإعلامى، أن تجعل من العلاقات الدولية ومن أسسها الاقتصادية، علاقات تراعى مصالح كل شعوب العالم، الفقيرة قبل الغنية، فلابد من أن نقدم النموذج الذى نراه قابلا للنقل والتطبيق والمطالبة. ولاشك أن الإعلام

الديمقراطية والحرية التى نطالب بها الآخرين، لابد أن تصبح فى المقام الأول منهاجا سياسيا واجتماعيا ثابتا فى تعاملنا الداخلى قبل أن نطالب به فى تعاملنا الخارجى. وإلا فلن يتعامل معنا العالم على أساس الجدية والمصداقية

يمكن أن يقدم الكثير فى هذا المجال إذا تحول بالفعل إلى منبر عام لكل المصريين بحيث يسهم فى بناء مناخ اجتماعى ديمقراطى حقيقى لا صورى كما يحدث الآن فى مناسبات عديدة. فالملاحظ، على سبيل المثال أن المعارضة المصرية لا تدعى إلى الإعلام المرئى والمسموع لمناقشة القضايا الداخلية. ولكنها تدعى عندما تريد الدولة استخدامها فى خلافاتها مع الآخرين وخاصة مع الإسرائيليين.

فالديمقراطية والحرية التى نطالب بها الآخرين، لابد أن تصبح فى المقام الأول منهاجا سياسيا واجتماعيا ثابتا فى تعاملنا الداخلى قبل أن نطالب به فى تعاملنا الخارجى. وإلا فلن يتعامل معنا العالم على أساس الجدية والمصداقية.

إذا سعينا إلى إحداث هذه «النقلة النوعية» فى إعلامنا المصرى، أتصور أن بداية النقلة لابد أن تكون من القاعدة الإعلامية ذات العلاقة المباشرة بعموم الشعب المصرى. وفى تقديرى أن هذه «النقلة النوعية» تبدأ بالإعلام المحلى الذى تواجد بالفعل بمساحات معقولة فى محافظات مصر. ونعنى بالإعلام المحلى، كل المطبوعات سواء كانت صحيفة أو مجلة كما نعنى به القنوات التليفزيونية بالإضافة إلى الإذاعات المحلية التى تصدر أو تبث فى أقاليم مصر. فى كل محافظة توجد على الأقل مطبوعة تصدر من إدارة المحافظة. كما توجد إذاعة محلية بالإضافة إلى وجود خمسة مراكز تليفزيونية تقدم خدمة لمجموعة محافظات متجاورة جغرافيا وهى الخدمة التليفزيونية التى تقدمها القنوات الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة. وهى وسائل إعلام، بكل تنوعها، تملك إمكانية التفاعل مع عموم المصريين فى كل المواقع التى يتواجد فيها أى إنسان مصرى لأنها الأقرب إليهم من حيث الطبيعة والموقع والمشاكل واللغة وحتى من حيث الإحساس والرؤية المستقبلية. وهى التى تملك القدرة على فتح مساحات واسعة لآراء عموم المصريين هؤلاء بحيث يجدون أنفسهم وكياناتهم فى إعلامهم الذى يملكونه فى الإقليم.

حتى الآن يعمل إعلامنا، المطبوع والمسموع والمرئى، فى المحافظات بإمكانيات تقنية متواضعة للغاية. وتحد هذه الإمكانيات المتواضعة من قدرته على الحركة داخل المحافظات التى يغطيها بحيث إن العاملين فيه يمارسون عملهم وكأنهم كـ «الكتيبة الثانية» من الإعلاميين. الذى نرجوه هو أن نجعلهم يعملون كـ «الكتيبة الأولى» التى تستطيع أن تحقق المحلية الحقيقية للإعلام أى أن يصبح الإعلام المحلى مرآة حقيقية لهذا الواقع المحلى. يجد فيه الإنسان المصرى كل ما يحتاجه من معرفة خبرية وتحليلية تخص محيطه الأقرب إليه.

فى هذا المجال لابد للمسئولين عن الإعلام ان يقدموا دعما أكبر للإعلام المسموع وللإعلاميين القائمين عليه سواء كان ذلك على المستوى المحلى أو المركزى. فى دراسة أجرتها إذاعة أسوان منذ عامين، ونشرت نتائجها، سجلت نسبة ٨٥٪ من عينة الشباب الأسوانى أنهم يستمعون لبرامج إذاعة أسوان بانتظام. هذا بالإضافة إلى أن المرأة الريفية لا تزال شديدة التمسك بالراديو وما يبث فيه خاصة إذا كانت ربة بيت تنتمى إلى الشريحة الاجتماعية البسيطة. وهى الشريحة التى نحتاجها فى عملية نشر القيم الإنسانية الجادة التى تحتاجها مرحلتنا استكمال التحديث والحداثة. فالإعلام المسموع لا يزال الأكثر انتشارا بالرغم من كل الضجيج الذى يحدثه الإعلام المرئى. وخاصة فى بلاد لا تزال الأمية تقف حائلا بين الإنسان وبين الكلمة المطبوعة.

وإذا سعينا بالفعل إلى إحداث هذه «النقلة النوعية»، فلا يجب أن نتصور أن قيم الديمقراطية والحرية وطرح الرأى والرأى الآخر والعدل والتسامح والمساواة مع التنوع الاثنى والنوعى والدينى، قيم تتعارض مع كون الإعلام علما وفنا فى آن واحد. لابد أن يؤسس على العلم والمعرفة والإبداع والتنوع والتعدد والمهارة المهنية التى تجعل منه سلة من المواد السياسية والاجتماعية والثقافية والفنية والرياضية التى تحقق للإنسان القارئ أو المستمع أو المشاهد، بكل شرائحه الاجتماعية والثقافية، إشباعا ثقافيا وإدراكا واعيا بمحيطه المحلى والعالمى.

فالجدية، لا تتعارض مع الإبداع أو مع الفنون الراقية التى تمس العقل والوجدان معا.

ولاشك أن إحداث هذه «النقلة النوعية» يحتاج إلى توجيه عناية فائقة للكوادر البشرية الإعلامية المتنوعة التخصصات والقائمة على كل مراحل العمل الإعلامى. وهى الكوادر التى ستصوغ هذه «النقلة النوعية» وتقود تفعيلها، كعمل يومى، يقدم للمتلقى. ولنا أن نتابع بعض الفضائيات الغربية والعربية معا لتبيان حجم الجهد الذى يحتاجه إعلاميونا من أجل إنجاح هذه النقلة النوعية.

فمنذ بداية هذا المقال تحدثنا عن الإعلام ليس فقط كتقنية حديثة أو كمساحة زمنية ممتدة وإنما كفكر يطرح ويدار حوله الجدل والحوار والمناقشات. وهو عمل يقوم به فى الأساس إعلاميون متمكنون من فكرهم ومن لغتهم ومن معلوماتهم ومن رسالتهم التى يتقدمون بها للمتلقى المصرى أو العربى أو الأجنبى.

فالحادث الآن هو أن جهاز التليفزيون يتجه إلى إعلاميين من خارج كوادره الأساسية فى حالة سعيه إلى تقديم برامج حوارية متخصصة فى حين أن فى أجهزة الفضائيات الغربية والعربية تسند هذه البرامج إلى إعلاميين من داخل جهازها. بما يعنى أن جهاز التليفزيون المصرى لا يجد من بين ابنائه من هو قادر على إعداد وإدارة هذه الحوارات.

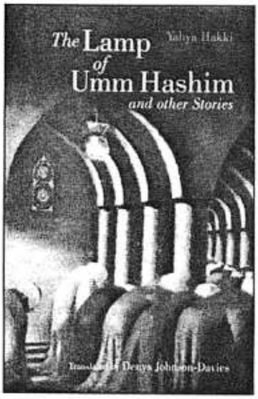
لذا يأتى التدريب المتخصص والأساسى والمستمر الذى يتلقاه الإعلامى، كعامل حيوى فى إعادة تأهيل الكثير من الإعلاميين المصريين الحاليين.

وفى مجال الحديث عن الإعلاميين المصريين، أود أن أشير إلى أن كل الفضائيات الغربية تتمتع بميزة، أعتبرها جديدة علينا ولم نأخذها فى اعتبارنا، وربما لم نلتفت إليها. وهى أن هذه الفضائيات تعكس ما فى مجتمعاتها من تنوع اثنى. نجد على شاشاتها قارئات للنشرات من أصول افريقية وأمريكية لاتينية أو آسيوية وحتى من أصول عربية. بمعنى أن الإعلاميات العاملات فى هذه الفضائيات الغربية لسن جميعا شقراوات متأنقات ذوات شعر أصفر متهدل. بل نجدهن إعلاميات، متنوعات من حيث لون البشرة والشعر ومن حيث تفاصيل ملامح الوجه بحيث يمكننا استنتاج جذورهن العرقية بكل سهولة ويسر. لا يتميزن بالجمال الجسدى بقدر تمتعهن بالقدرات الثقافية والمعلوماتية العالية التى تغطى على بساطة الملبس الذى ترتديه كل واحدة منهن. كما يتميزن بأناقة اللغة التى يتحدثن بها. بحيث تشدنا الحوارات السياسية، فلا نتنبه إلى النظر إلى وجوههن غير الفاتنة وهن يناقشن ضيوفهن، بكل جدية وعلم، فى القضية الفلسطينية أو العراقية أو الصراع فى دارفور.

وينطبق ذات الشيء على المراسلين العاملين لهذه الفضائيات. إبان الغزو الأنجلو أمريكى للعراق كان مراسل إحدى الفضائيات الأوروبية المتحدثة بالإنجليزية شاباً فى الثلاثينيات من عمره من أصل صومالى.

فى سعينا إلى إحداث «النقلة النوعية» التى نريدها لإعلامنا فلابد أن نهدف دائما إلى الحديث إلى عقل القارئ والمستمع والمشاهد المصرى. فهدفنا فى كل توجهاتنا هو عقل الإنسان المصرى، لذا لابد لحديثنا معه أن يكون صادقا متنوعا شفافا وسريعا وممتعا. إذا أخطأنا هذا الهدف فسوف يستمر المتلقى المصرى يدير جهاز مؤشر المحطات إلى أى مصدر يقدم له الخبر والمعلومة، فى حجمها وزمانها الصحيحين، تاركا إيانا مع البرامج الفنية والأفلام الروائية ومسلسلات شهر رمضان الكريم. ■

الإعلام المسموع لا يزال الأكثر انتشارا بالرغم من كل الضجيج الذى يحدثه الإعلام المرئى. وخاصة فى بلاد لا تزال الأمية تقف حائلا بين الإنسان وبين الكلمة المطبوعة



كنت صديقا ليحيى حقى

دنيس جونسون ديفيز

■■ كان واحداً من تلك المجموعة الصغيرة التى أرست أسس النهضة الأدبية للأدب العربى فى مصر مع منتصف القرن العشرين. لقد ضمت تلك الجوقة من الكتاب الذين شاركوا فى هذه النهضة أسماء مثل الطالب المجد والأديب طه حسين، والكاتب المسرحى توفيق الحكيم، ورائد كتابة القصة القصيرة محمود تيمور، وبالطبع الروائى نجيب محفوظ.

تتعدد أعمال يحيى حقى ١٩٠٥-١٩٩٠ لتملأ كتباً كثيرة فى القصة القصيرة والكتابات النقدية، متضمنة كتاباً موجزاً حول القصة القصيرة المصرية بعنوان «فجر القصة القصيرة». كان لحقى تأثير نافذ فى تشجيعه وعطائه للأجيال اللاحقة من الكتاب وذلك من خلال اتصالاته الشخصية بهم وبحكم منصبه كرئيس لتحرير المجلة الشهرية «المجلة»، والتى تولى مهمة تحريرها بقدر عال من الذكاء والموهبة الطبيعية والقدرة على التخيل.

«قنديل أم هاشم» هى أطول أعمال يحيى حقى وأكثرها شهرة، وقد نشرت للمرة الأولى عام ١٩٤٤. لقد كانت تلك الرواية القصيرة العمل الإبداعى الأول الذى يصدر بالعربية لمعالجة الصعوبات النفسية التى يواجهها الطلبة العائدون للوطن بعد إرسالهم لأوروبا لاستكمال دراستهم. وعلى الرغم من أنها نشرت منذ أكثر من نصف قرن مضى، فلازال يمكن قراءتها باستمتاع، بفضل الأفكار التى تدور حولها - كما لخصتها سطور كبلنج حول استحالة التقاء الشرق والغرب، تلك الأفكار التى لا تزال وثيقة الصلة بالواقع الذى نعيشه.

تدور الرواية القصيرة حول شاب يرحل إلى لندن بعد تضحيات مالية من قبل والده، لاستكمال دراسته فى الطب. ولأن الشاب قد أتى من خلفية اجتماعية محافظة، فإن الشاب يجد نفسه فريسة لصراع بين المؤثرات الجديدة التى تعرض لها فى بريطانيا، كعلاقته الغرامية مع فتاة بريطانية التى تناقضت مع أسس تربيته الدينية. عند عودته للقاهرة، تصاعد الصراع بشكل صارخ حينما كان عليه معالجة شكوى فاطمة من عينيها، تلك كانت ابنة عمه وخطيبته، وعلى هذا المنوال تحكى الرواية محاولاته لإنجاز تصالح بين المعرفة العلمية التى حصل عليها فى الغرب والمعتقدات الخرافية التى تتمسك بها أمه وسكان الحى الفقير الذى قرر أن يمارس الطب فيه.

لقد وصفت «قنديل أم هاشم» بأنها عمل إبداعى ممتع عقليا خاصة لذوى الثقافة الرفيعة حين صدورها. بنفس القدر تعاملت روايات أخرى صدرت فى وقت لاحق مع أفكار مشابهة، أبرزها رواية توفيق الحكيم «عصفور من الشرق»، وأخيرا أكثرها صراحة «موسم الهجرة إلى الشمال» للروائى السودانى الطيب صالح.

وفى بداية حياته العملية كمحام- حيث أصبح بعد سنوات دبلوماسياً يقضى أوقاتاً طويلة فى العمل بالسلك الدبلوماسى فى العالم العربى وأوروبا - عمل يحيى حقى لفترة فى صعيد مصر، حيث اكتسب وعياً تختلط به مشاعر الحب للفلاحين الذين يعملون تحت وطأة الشمس الحارقة وظروف العمل القاسية. وتعد «قصة فى سجن» من أطول الثلاثيات التى كتبت عن صعيد مصر فى تاريخ القصة القصيرة، والتى صدرت فى كتاب بعنوان الدم والطين. إن القصة، مثل العديد من كتاباته تتعامل مع شخصيات، بالرغم من كونها بمثابة العمود الفقرى للوطن، فإنها تظهر بشكل نادر للغاية فى الأعمال الأدبية فى مصر - فى الحقيقة إن هذا الأمر ليس خاصاً أو لصيقاً بالكتابة العربية وحدها، حيث إن الفلاحين بشكل عام لا يتم الإشارة إليهم إلا بشكل نادر فى الأدب العالمى.

إن حقى، على الرغم من ذلك يستحوذ بدرجة ملحوظة على صلة ودية بالمظلومين والمضطهدين، ويرتبط ذلك بقدرته على وصف شخصيات متواضعة من الحياة بطريقة تخلو من الشعور بالتفوق. ويمكن ملاحظة ذلك فى قصة «أم العواجز»، والتى خلق فيها مناخاً غير متباين مع ذلك الذى فى روايته القصيرة، وحيث «الكورس» فى هذه القصة الخرافية يتكون من هذه الكتلة الضخمة من الزخم الإنسانى الذى يصنع زحاماً فى الميدان حيث تدور الكثير من أحداث القصة.

وتظهر قصته القصيرة جداً «قصة فى شكل التوسل»، تلك التى ظهرت فى وقت مبكر للغاية، والتى قمت بترجمتها ونشرها على نطاق محلى فى الأربعينيات، استعداد يحيى حقى لتبنى أساليب جديدة من الحكى الروائى.

لدى تصديه للكتابة عن الفلاحين، كما حدث فى «قصة فى سجن»، يرينا حقى كيف أن اللغة العامية يمكن أن تستخدم لإضفاء بعد رائع للكتابة الإبداعية، وبشكل خاص فى جزئية الحوار. إن غالبية ☞

كان يحيى حقى من ذلك الصنف من الناس الذى يحب الاعتناء بمن حوله، لقد طوق باهتمامه جميع من حوله من الناس من كل طبقات المجتمع

مقدمة كتاب:
The Lamp of Umm Hashim and other Staries
(قنديل أم هاشم وقصص أخرى)
Translated by Denys Johnson-Davies
Cairo, The AUC Press, 2004, 90pp.

ترجمة: رانيا خلاف



يحيى حقي

كتاب الزاوية

عبقرية الداعي

عبقرية محمد

اتفقت أحوال العالم إذن على انتظار رسالة..

واتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة..

وكان من الممكن أن تتفق أحوال العالم وأحوال محمد، ولا تتفق معها الوسائل التى تؤدى بها رسالته على أحسن الوجوه.

كان من الممكن أن ينتظر العالم الرسول، ثم لا يظهر الرسول.

وكان من الممكن أن يظهر الرسول فى البيت الصالح وفى البيئة الصالحة، ثم لا تتهيأ له الصفات التى يتم بها أداء الرسالة.

ولكن الذى اتفق فى رسالة محمد قد كان أعجب أعاجيب الاتفاق، وكان المعجزة التى تفوق المعجزات.. لأنها مع ضخامتها وتعدد أجزائها وتوافق تلك الأجزاء جميعها، مما يقبله العقل قبولاً سائغًا بغير عنت ولا استكراه..

فكان محمد مستكملاً للصفات التى لا غنى عنها فى إنجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ.

كانت له فصاحة اللسان واللغة..

وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة..

وكانت له قوة الإيمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها..

وهذه صفات للرسول غير أحوال الرسول.. ولكنها هى التى عليها المدار فى تبليغ الرسالة، ولو اتفقت فيما عداها جميع الأحوال.





القصة تحكى بكلمات بطل القصة وهو واحد من الغجر، مبينة كيف أن الكاتب، المعروف بأسلوبه المكثف والثرى باللغة العربية الفصحى، كان قادراً على توظيف اللغة العامية بحس خيالى مماثل لكى يرسم بورتريه نابض بالحياة لشخصية قد تكون غير قادرة تماماً على التعبير عن نفسها بلغة أدبية. إن درجة من الواقعية يمكن الوصول إليها إذن بدرجة كان من المستحيل الوصول إليها إذا ما استخدمت اللغة الفصحى بشكل كامل فى مثل هذا النوع من القصص.

قد يتساءل البعض، من يتحدث بلغة فصحى بخلاف الشخصيات فى معظم الروايات العربية؟ إنه أمر ذو مغزى. بالتأكيد أن توفيق الحكيم، وهو من المساهمين الرواد فى خلق الأدب العربى الحديث، قد استغل أيضاً الثراء الفريد للغة العامية فى مصر فى العديد من كتاباته، متضمنة الرواية التى ترجمت تحت اسم Maze of Justice. تمكن يوسف إدريس أيضاً، وهو كاتب أصغر سناً كان قد لقى استحساناً من حقى، من إثراء العديد من قصصه القصيرة معتمداً على تمكنه من اللغة العامية. إذا كان المعيار الذى يؤخذ فى الاعتبار هو معيار جمالى صرف، فلابد أن اللغة العامية بالتأكيد تشكل سلاحاً إضافيا ضمن ذخيرة كل من يكتب باللغة العربية. إن الكُتاب كل على حدة يجب بالطبع أن يتوصلوا إلى قناعات شخصية فيما يتعلق بهذا الأمر.

من بين أهم الكتاب فى مصر، نجد أن نجيب محفوظ قد اتخذ موقفاً متفرداً حيث تجنب استخدام اللغة العامية، برغم ذلك وحينما تحولت رواياته إلى أعمال تليفزيونية، استعادت شخصياته أصواتها الطبيعية.

على خلاف المعتاد، فإن يحيى حقى الذى سلك حياته العملية خارج النطاق الأكاديمى، كان يتمتع بمقروئية عالية بين متداولى الأدب الكلاسيكى، فى كل من الشعر والنثر.

كان يحيى حقى يؤكد دوماً فى نصيحته للكتاب الناشئين على أهمية امتلاك سطوة حقيقية للغة التى يسعى الكاتب أن ينقل أفكاره عبرها. لقد كان حزينا بسبب الانحدار المحسوس لمعرفة الناس على كل المستويات باللغة العربية.

لقد طالب القائمون على السلطة الثقافية بمواجهة حقيقة أن اللغة العربية، على عكس اللغات الأوروبية، تتميز بامتلاكها لشكلين مكتوب ومنطوق، لقد شعر أن المشكلة تكمن فى حقيقة أن اللغة الفصحى كانت تدرس وكأنها لغة أجنبية.

كان يحيى حقى، بصفته الإنسانية، محباً للسفر شرقاً وغرباً. لقد عاش خارج مصر خلال سنوات عمله كدبلوماسى، وقد استقال من العمل الدبلوماسى فقط عند زواجه من امرأة فرنسية. لقد كانت تلك زيجته الثانية، حيث توفيت زوجته الشابة الأولى بشكل درامى بعد وضعها لطفلتهما. وهكذا وبعد مشوار عمل قصير فى المحاماة، تبعتها سنوات عديدة فى العمل الدبلوماسى، بدأ حقى فى تخصيص كل وقته فى خلق اسم يحيى حقى فى عالم الأدب.

على الرغم من الفارق فى العمر، أصبحت أنا وحقى صديقين خلال السنوات بين ١٩٤٥ و١٩٤٩ حينما كنت أعيش بشكل دائم فى القاهرة كمحاضر فى جامعة القاهرة. يبدو أننا رحلنا عن القاهرة معاً فى الوقت ذاته تقريباً، حيث إننى حينما اطلعت على بعض الأوراق مؤخراً، وجدت خطاباً منه قد أرسله إلىّ حينما كنت فى طهران. على رأس تلك الرسالة كان مطبوعاً اسم السفارة المصرية فى باريس. لقد كتبت الرسالة بكثير من الدفء والفطنة بأسلوب جزل تمتزج فيه اللغتان العامية والفصحى، كما اعتاد أن يكتب رسائله لابنته نهى. لقد جمعت تلك الخطابات ونشرت تحت عنوان «رسائل يحيى حقى لابنته»، وقد كتب مقدمة هذا الكتاب نجيب محفوظ، الذى كان صديقاً حميماً ليحيى حقى حيث كان يحمل له قدراً كبيراً من الإعجاب وكان يعمل فى وقت ما تحت رئاسته.

قبل رحيلى من القاهرة عام ١٩٤٩ ناقشت مع يحيى حقى رغبتى فى نشر كتاب عام مترجم للإنجليزية بهدف إظهار كيفية ممارسة كتابة القصة

القصيرة فى العالم العربى. لم يسبق أن طرح مثل هذا المشروع، وكان يمكن، كما شعرت، أن يضع الأدب العربى الحديث «على الخريطة»، وخاصة إذا ما قام ناشر إنجليزى معروف بهذا العمل.

بينما كنت أعيش خارج مصر، كنت أقوم بزيارات على فترات منتظمة للقاهرة، وفى كل مرة كنت أحرص على الاتصال بيحيى حقى. فى كل مناسبة كان يحيينى بابتسامة عابثة، مستفهماً، كمن يشارك فى مؤامرة، ماذا أصاب كتابى الشهير عن القصة العربية. لقد كان لدينا سوياً ذلك الشعور بأن هذا لم يكن سوى أمل كاذب.! فى الحقيقة، اقتضى تحقيق هذه الفكرة عشرين عاماً قبل أن أنتهى من جمع المادة الكافية لمثل هذا الكتاب، بعد ذلك كانت لا تزال تواجهنى مهمة شاقة أخرى، بالنسبة لشخص ليس لديه العلاقات الضرورية لإيجاد ناشر باللغة الإنجليزية تتوفر لديه الرغبة فى الاضطلاع بمثل ذلك المشروع الاستثنائى. على الرغم من ذلك، جاء اليوم المنتظر، حينما تعرفت بقدر كبير من الحظ الطيب على شخص على صلة بشخص آخر فى دار نشر جامعة أكسفورد. لقد تمت الموافقة على نشر الكتاب فى إطار كونه منحة تعليمية. بشكل طبيعى، لم أبد أى اعتراض، بل كنت سعيداً أننى سأزف إلى يحيى حقى فى زيارتى القادمة للقاهرة أنه لم يكن قادراً على نشر كتاب «القصة العربية القصيرة الحديثة» سوى دار نشر جامعة أكسفورد. وكأمر مسلم به، كان الكتاب يحتوى على قصة لحقى.

كان يحيى حقى من ذلك الصنف من الناس الذى يحب الاعتناء بمن حوله، لقد طوق باهتمامه جميع من حوله من الناس من كل طبقات المجتمع، حتى أن رعايته تلك امتدت إلى الحيوانات. إن ذلك يمكن تلمسه فى الكثير من أعماله الإبداعية، على سبيل المثال فى وصفه لوفاة كلب بسبب تسممه فى «قصة فى سجن» من بين الأقوال المأثورة للكاتب والمذكورة فى كتابه لابنته هذه المقولة: « لا أعرف شيئاً يمكن أن يكمل إنسانية المرء مثل إكرام الحيوانات الخرساء».

لقد أصابتنى الدهشة حينما علمت، وأنا أقرا مؤخرا عن بداية حياة حقى، أنه ولد لأبوين متواضعين فى حى فقير بالقاهرة، وأنه قد عانى من الصعوبات المادية لفترات طويلة، وخاصة فى الفترة التى سبقت انتهاء حياته الطويلة.

فى فترة ما، تم اقتراح اسمه لنيل جائزة صدام حسين، ولكنه أصابه الرعب من فكرة قبوله لهذه الجائزة واضطراره لمصافحة يد تلوثت بدماء المسلمين الأبرياء.

فى الحقيقة، لقد ساعدته جائزة الملك فيصل للخروج من ضائقته المادية، على الرغم من أنه فى ذلك الوقت لم يكن لائقاً من الناحية الصحية للسفر إلى السعودية لاستلام الجائزة.

المناسبة الأخيرة التى جمعتنا معاً كانت حينما طلب منه إلقاء كلمة فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة لدى فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب. لم يلق محاضرة فى ذلك اليوم، ولكنه قام بالإجابة بأسلوب تلقائى غير معد سلفاً لأسئلة أرسلت له على قطع صغيرة من الورق من الجمهور، وكانت الأسئلة تقرأ لحقى بصوت عال.

كان سؤالى الشخصى يستفهم عن أمر محير بالنسبة لى: كيف أن الأدب المصرى يعكس قدراً قليلا من المرح والفكاهة، برغم أن المصريين قد اشتهروا بحسهم بالدعابة والفكاهة. لم يجب بالقدر الكافى على سؤالى ولكنه اتفق معى فى الرأى، ربما لأنه، كما علمت فيما بعد، قد كتب مقالاً يأسى فيه للحس الاكتئابى العام الذى يظهر فى الكثير من الكتابات العربية الحديثة.

أتذكر أن أحد الحاضرين سأله عما إذا كانت قد راودته فكرة أنه فى يوم من الأيام قد يحصل على جائزة نوبل. ابتسم ابتسامته الساخرة تلك، قبل أن يجيبه بأنه لم يمنّ نفسه قط بمثل هذا الحلم، لأنه كان يعى جيداً أنه فى مكان آخر فى القاهرة، هناك شخص ما يكتب بدرجة عالية من الموهبة، والإخلاص والمثابرة بدرجة تفوقه شخصياً.

لقد كان دوماً أكثر الناس تواضعاً. ■

كتاب الزاوية

القائد البصير

عبقرية محمد

لم يكن الإسلام إذن دين قتال ولم يكن النبى رجلاً مقاتلاً يطلب الحرب للحرب أو يطلبها وله مندوحة عنها، ولكنه مع هذا كان نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب ودعته إليها المصلحة اللازمة، يعلم من فنونها بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمران، ويصيب فى اختيار وقته وتسيير جيشه وترسيم خططه إصابة التوفيق وإصابة الحساب وإصابة الاستشارة، وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة تقترن بآية الابتكار والإنشاء، لأن القيادة الحسنة هى القيادة التى تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع، وهى التى تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام.

وقد كانت غزوة بدر هى التجربة الأولى للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى إدارة المعارك الكبيرة، فلم يأنف أن يستمع فيها إلى مشورة الحباب بن المنذر حين اقترح عليه الانتقال إلى غير المكان الذى نزل فيه، ثم وعى من تجربة واحدة ما قل أن يعيه القادة المنقطعون للحرب من تجارب شتى فلو تتبع ـ صلى الله عليه وسلم ـ ناقد عسكرى من أساطين فن الحرب فى العصر الحديث ليقترح وراء خططه مقترحًا أو ينبه إلى خطأ، لأعياه التعديل.

مستهلكون وجوعى

■ ■ يبلغ تعداد مجتمع المستهلكين فى العالم بليونا وسبعمائة مليون آدمى. إنه المجتمع المسئول عن الضغوط الواقعة على الأنظمة البيئية، بما ينتج عنها من مستودعات قمامة متضخمة، واستنزاف للموارد الطبيعية، وانتشار لظاهرة البدانة، بكل مدلولاتها، بين عدد كبير ممن ينتمون لهذا المجتمع. إن شهية مجتمع المستهلكين تزدرد كل الفرص لتحسين أحوال الحياة، لصالح أغنياء العالم وفقرائه، على السواء؛ فأعضاء هذا المجتمع يفرطون فى استهلاك السلع والبضائع والخدمات على نحو يضرب عرض الحائط بكل مفهوم لمعنى الاستدامة؛ فذلك السلوك الاستهلاكى الجامح يدوس فى طريقه كل شىء، ويسىء إلى حياة المستهلكين أنفسهم، ويجعل العالم يفقد اتزانه الطبيعى، ويترنح!. وفى مقابل هذا المجتمع المتخم، يوجد مجتمع آخر من الجوعى والفقراء والمشردين، يبلغ تعداده بليونين وثمانمائة مليون إنسان. إن أحداً لا يمكنه إنكار أن الاستهلاك ضرورى لإقامة الصناعات وتنشيط حركة التجارة، وخلق فرص عمل جديدة؛ ولكن زيادته بهذا المعدل غير المسبوق، كفيلة بتقويض أسس أنظمة الأرض الطبيعية، التى تعتمد عليها حياة كل البشر، مما يجعل الفقراء أشد بؤساً.

إن هذا المجتمع الاستهلاكى يقوم على، ويدعم - بالوقت ذاته - ما يمكن تسميته بالصناعات الإتلافية، مثل صناعات السيارات، ومرابى الدواجن، وصناعات الأخشاب. وبالرغم من قوة هذه العلاقة، فمن الممكن مدافعها، إذا تبنى قطاع الأعمال والحكومات ومؤسسات المجتمع المدنى خططاً لتشجيع المنتجات الأقل خطراً على البيئة.

وكما سبق أن أشرنا، فإن للاستهلاك فوائده؛ ولكن معدلاته الحالية، وبخاصة عند كبار المستهلكين، فى الولايات المتحدة وغيرها من الأمم الغنية، فاقت كل حدود، وتجاوزت قدرة الأرض على التحمل؛ وأحياناً، تبدو الحالة مستعصية؛ وعلى سبيل المثال، لا يزال ٩٠٪ من الورق المستهلك فى العالم يأتى على حساب أشجار الغابات، إذ تأكل صناعة الورق، فى الوقت الراهن، خمس ما يستقطع من هذه الأشجار. أما المخزون السمكى العالمى، فقد جارت عليه شباك الجر القاعية، التى تكتسح كل ما تقابله على قاع المحيط، فكانت النتيجة أن تعرض ٧٥٪ من مساحة مسامك العالم المهمة لاهتزازات فى مخزونها، مما يعنى تناقص إنتاجيتها مستقبلاً بشكل يؤثر على كل من يفرطون فى استهلاك الأسماك، وأولئك الذين يأملون أن يروها - يوماً ما - على موائدهم!

وفى الذكرى الثلاثين لتأسيس هيئة (وورلد ووتش إنستيتيوت) - مرصد العالم - صدر هذا العدد من تقرير (حالة العالم)، ليهتم برصد توجهات مجتمع المستهلكين، وليخبرنا كيف نستهلك، ولماذا، وتبعات خياراتنا الاستهلاكية على الحالة العامة للبيئة البشرية على الأرض، وعلى رفاق لنا فى الإنسانية، يشاركوننا الحياة فى هذا الكوكب المرهق. ويشتمل هذا التقرير على فصول للطعام، والماء، والطاقة، والسياسات الاستهلاكية؛ بالإضافة إلى فصل يحاول أن يحدد لنا ملامح ومعنى (الحياة الطيبة)؛ وقد شارك بكتابة هذا التقرير خبراء اختصاصيون، حاولوا - فى مجمل إسهاماتهم - أن يجيبوا على سؤال مهم، هو: هل بإمكاننا، نحن البشر، أن نحقق مجتمعاً إنسانياً أقل استهلاكاً ؟؛ ويؤكد التقرير، فى عموميته، على أن مثل هذا المجتمع ضرورة.

ويشير التقرير، فى الفصل الأول، إلى أن عالمنا المعاصر ينتج ويستهلك بمعدل أكبر من مجمل ما أنتج واستهلك، على مر تاريخ البشرية؛ إذ ينتج عمال الصناعة المعاصرون، فى أسبوع واحد، ما كان نظراؤهم، بالقرن الثامن عشر، ينتجونه فى أربع سنوات!. أما عن الاستهلاك، فيكفى أن نراجع إحصائية بسيطة، تقول أرقامها بأن قيمة الإنفاق الاستهلاكى الخاص، أى ما أنفقه الأفراد على السلع والخدمات، تضاعف أربع مرات، فى الأربعين سنة الأخيرة من القرن العشرين، ووصل إلى ٢٠ تريليون دولار، بالعام ٢٠٠٠.

ومن ملامح هذا العالم، أيضاً، أن حدود طبقة المستهلكين، التى كانت مقصورة، فيما مضى، على أغنى أغنياء العالم بأوربا وأمريكا الشمالية واليابان، اتسعت، ودخل فيها (أغنياء جدد)، ينتمون إلى الطبقات المتوسطة، فى الصين والهند وكثير من الدول النامية، حتى أصبح تعداد هذه الطبقة بليونا وسبعمائة مليون مستهلك عالمى (انظر الجدول رقم ١)؛ لهم اختياراتهم الخاصة من الطعام، ولا يكفون عن السفر والانتقال من مكان لآخر فى أنحاء الدنيا، بما يتفق وأساليبهم فى العيش؛ ثم إن السلوك الاستهلاكى قد تجاوز وظيفته الأساسية، وهى إشباع كل الرغبات، وتحقيق كل الأحلام فى حياة رغدة هانئة، فأصبح هدفاً بحد ذاته.

كما أن هذا العالم المعاصر مليء بالمتناقضات، فبينما طبقة المستهلكين متخمة، يصارع بليونان وثمانمائة مليون من سكان العالم، من أجل الاستمرار فى الحياة، اعتماداً على دخل فردى لا يزيد على دولارين، فى اليوم الواحد؛ وبين هؤلاء المعدمين، بليون إنسان لا يجدون سبيلاً إلى مياه تصلح للشرب (يجسد الجدول رقم ٢ المفارقات الشديدة بين أوجه



بينما طبقة المستهلكين متخمة، يصارع بليونان وثمانمائة مليون من سكان العالم، من أجل الاستمرار فى الحياة، اعتماداً على دخل فردى لا يزيد على دولارين، فى اليوم الواحد

State of the World 2004 - Special Focus: The Consumer Society
(تقرير حالة العالم ٢٠٠٤ - نظرة خاصة إلى توجهات مجتمع المستهلكين)
World Watch Institute
January 2004 - 245 pages.

... معدة العالم فى خطر

رجب سعد السيد

إنفاق الأغنياء وتكلفة تلبية احتياجات فقراء العالم). كما أن توزيع المستهلكين فى العالم يضيف إلى هذه التناقضات ما يؤكدها؛ فالمستهلكون الأغنياء فى الشمال الأمريكى والغرب الأوروبى، وهم لا يمثلون إلا ١٢٪ من تعداد سكان العالم، يبلغ نصيبهم ٦٠٪ من مجمل الإنفاق الاستهلاكى العالمى، بينما لا تزيد نسبة إنفاق ٣٣٪ من سكان العالم، وهم فقراء جنوب آسيا وجنوب الصحراء فى إفريقيا، على ٣,٢٪. والمثير للدهشة والاستغراب أن هؤلاء الفقراء، الذين لا يقدرون على الإنفاق الاستهلاكى، يعيشون فى بلاد غنية بالموارد الطبيعية، التى تتسرب إلى أغنياء عالم غلاة المستهلكين عبر حركة تجارة عالمية متزايدة، بمباركة أنظمة إدارة (وطنية) يضربها الفساد!. ويجدر بنا، هنا، أن نتوقف لنراجع مقولة وردت إلينا من الغرب - وليس كل ما يأتى من الغرب يسر القلب! - هى (الاستدامة)، أو أى ترجمة تشاء للاصطلاح الأعجمى (Sustainability)، والذى يعنى، فى ظاهره، تقنين أو ترشيد استهلاك الموارد الطبيعية، حتى لا ننهك قدراتها الإنتاجية، لتخدمنا بالوقت الراهن، ولتظل محتفظة بقدرتها على خدمة أجيال تالية؛ وثمة شواهد كثيرة تكشف ما وراء هذا المفهوم؛ ففى وجود الأنظمة الإدارية الفاسدة، والحيتان من التجار، تتسرب هذه الموارد، لتغذى أنماط الاستهلاك فى الدول الغنية، التى تملك شراء منتجات هذه الموارد الطبيعية، ومعها ضمائر نفر من القائمين على إدارتها، متسترين وراء فكرة الاستدامة، التى هى، فى واقع الأمر، ليست أكثر من (سقف)، لا يجب على مؤسسات التنمية الوطنية تجاوزه، وإلا اتهمت بالإساءة للأنظمة البيئية ومواردها الطبيعية!.

إن من حق هؤلاء الفقراء أن يجدوا ما ينفقونه على سلع وخدمات تحسن أحوالهم المعيشية؛ أما أن تستمر الصورة على ما هى عليه، وأن يمضى العالم بهذا المسار المختل، فهذا أمر منذر بالخطر، وذلك لأن الأنظمة البيئية الطبيعية لا يمكنها أن تحتمل أكثر هذا الوضع الذى ترسخ فى القرن العشرين، وبات يمثل تحديا حقيقياً للبشرية، فى القرن الحالى.

ويخلص هذا الفصل إلى أننا نحن البشر بحاجة لإعادة النظر فى أساليب استهلاكنا، وإعادة ترتيب أولوياتنا الاستهلاكية، فلا يكون تركيزنا على إنتاج هائل الحجم من سلع تغرق الأسواق، بل يسبقه توجه إلى تحقيق حياة أفضل، تأسيساً على نوعية أفضل، وليس أكثر، من السلع والخدمات، تتضاءل أضرارها البيئية.

ويفرد التقرير الفصل الثانى لاستهلاك الطاقة؛ فلا أحد يستغنى عنها، فعليها تقوم كل عمليات إنتاج مقومات الحياة، من طعام وشراب وملبس ومسكن. وقد شهد النصف الثانى من القرن العشرين تطوراً كبيراً فى كفاءة استخدام الطاقة، وكان ذلك أجدر بأن يخفف من الضغط على مصادرها؛ غير أن ذلك لم يحدث، إذ صاحب ذلك التطور تبدلات هائلة فى أساليب حياة طبقة المستهلكين المعاصرين، فازداد نهمها للطاقة، لتركب سيارات أكثر وأكبر وأسرع، ولتعيش فى منازل لا تتوقف فيها أجهزة التكييف، وغيرها من أجهزة منزلية كهربية، عن العمل؛ ومن جانب آخر، أصبحت موارد الطاقة بالعالم محدودة القدرات، ولم تعد قادرة - حسب التقرير - على أن تحقق لكل إنسان فى العالم رغبته فى أن يعيش بأسلوب حياة الفرد الأمريكى أو الأوروبى متوسط الحال. حسناً، لقد غاب عن محرر هذا الفصل من التقرير أن (أطماع) من يعانون (عوز الطاقة) فى العالم أقل من ذلك بكثير، فهم لا يتطلعون - فى الغالب - إلى نمط الحياة الأوروبية أو الأمريكية، بل يرضيهم قدر من الطاقة يفى بحاجتهم الضرورية من الضوء، ليأمنوا ويتعلموا، وليضخوا المياه، ليشربوا ويزرعوا لقمة عيشهم، وقد تصل أحلام الطاقة عندهم إلى (السقف) إذا فكروا فى ثلاجة كهربية تحفظ أطعمتهم!؛ فالبون شاسع بين استهلاك أغنياء العالم وفقرائه من الطاقة، إذ يستهلك الفقراء أقل من الأغنياء بمقدار ٢٥ مرة. إننا نتحدث هنا عن (أغنياء مسرفين)، بينما يوجد أغنياء يستهلكون الطاقة بغير إفراط، ويعيشون (حياة طيبة)؛ وثمة مثالان واضحان على ذلك: اليابان، والنرويج؛ حيث يرتفع مستوى معيشة الأفراد، بينما يقل كثيراً معدل استهلاك الفرد من الطاقة عن نظيره الأمريكى.



من حقنا . بل من واجبنا إزاء أنفسنا وإزاء بيئتنا . أن نتحقق من أن ما نأكله خال من المواد الحافظة المشبوهة، ومن المبيدات والهورمونات ومضادات الحيوية؛ وهى كلها كيماويات تضر بصحة البشر وسلامة البيئة

وعلى كل حال، فإن بيد الحكومات أن تفعل الكثير من أجل استدامة الطاقة وتخضيرها، أو بمعنى آخر، تنظيف وترشيد إنتاجها واستهلاكها، صونا لمواردها، وحماية للبيئة؛ فيمكنها - على سبيل المثال - تبنى سياسات للطاقة تعتمد على قوانين حازمة ومعايير قياسية، تدعم الملتزمين، وتفرض الضرائب على المخالفين. كذلك، يمكن للأفراد أن يؤثروا فى قضايا الطاقة، بمراجعة القرارات اليومية، التى يتخذونها كمستهلكين، فلا يقبلوا على المنتجات والخدمات التى تستهلك كميات كبيرة من الطاقة؛ كما يمكنهم - كرأى عام، وكأعضاء فى مؤسسات المجتمع المدنى - التأثير على مراكز صنع سياسات إنتاج واستهلاك الطاقة.

ويتناول التقرير، فى الفصل الثالث، مسائل إنتاج واستهلاك المياه العذبة، وهى مسائل حاكمة فى خطط التنمية؛ فالمجتمع الآمن، الذى يتوخى أن يتوفر لبرامج التنمية فيه عنصر الاستدامة، هو الذى يسعى لتلبية احتياجات أفراده من المياه، دون أن يجور على الأنظمة البيئية؛ ويرى محرر هذا الفصل من التقرير أن هذا الهدف قابل للتحقق، بتنظيم الجهود، فى مواجهة تحديات حقيقية...

لقد تعاظم تأثير البشر على أنظمة وموارد المياه



العذبة، فى نصف القرن الماضى، مع تزايد تعداد سكان العالم، وتبدل أساليب استهلاكهم للمياه، فتضاعف الطلب على المياه ثلاث مرات، خلال هذه المدة؛ وقد استدعى هذا الطلب المتزايد إنشاء مزيد من السدود فى العالم؛ فقفز عددها من ٥ آلاف سد، فى العام ١٩٥٠، إلى ٤٥ ألف سد، بالعام ٢٠٠٤. ويسجل التقرير ملاحظة مهمة، وهى أن المراقبين - فى مجملهم - لا يهتمون إلا بتسجيل الجوانب الإيجابية لهذه القفزة الهائلة فى عدد السدود ومشاريع الرى وتنظيم المياه العذبة فى العالم، متجاهلين، أو مهونين من كلفتها الاجتماعية والبيئية، المتمثلة فى النازحين والمهجرين، وتمليح التربة الزراعية، وتغير أنظمة المصايد، وفقدان أنواع من الكائنات المائية المهمة؛ وفى معظم الأحيان، تحسم القضية لصالح المشروعات التى توفر المياه لخطط التنمية؛ والتحدى هنا، هو: كيف يتحقق التوازن بين إيجابيات هذه المشروعات وسلبياتها.

ومن التحديات التى تطرحها قضية موارد المياه العذبة فى العالم، أيضاً، التباين الشديد فى الاحتياجات وأنماط استهلاك المياه العذبة فى العالمين، الفقير والغنى: فأول الأولويات فى الأول، الذى يسمى - دائما - بالنامى، هو إمداد الناس بحاجاتهم الضرورية من المياه النظيفة والمرافق الصحية، غير أن القدرات السياسية والتمويلية، فى كثير من الدول التى تنتمى لهذا العالم، تعانى قصوراً يعجزها عن توفير هذه الاحتياجات الأساسية. على العكس من ذلك، يتخذ التحدى، فى عالم الأغنياء، شكلاً آخر، حيث تعجز إدارات إنتاج وتوزيع المياه فى العالم الصناعى المتقدم، عن كبح جماح استهلاك المياه فى أغراض ترفيهية، مثل رى مروج رياضة الجولف!. وبالرغم من هذا التباين فى الاحتياجات وأنماط استهلاك المياه العذبة، يشترك العالمان، الصناعى والنامى، فى تلويث وإهدار كميات كبيرة من هذه المياه؛ وأيضاً فى الحاجة إلى تفعيل وزيادة كفاءة الإدارات القائمة على استهلاك المياه.

ويدعونا الفصل الرابع من التقرير إلى أن ننظر، كأفراد، لقوائم طعامنا. إن كلمة (أفراد) تعنى ٦ بلايين إنسان، هم سكان البسيطة؛ ولك أن تتخيل حجم تأثير قرارات يجتمع عليها هذا العدد الهائل من البشر - أو، حتى، نصفه - فيما يخص الطعام فقط: فمجمل احتياجاتنا كمستهلكين هو الذى يحدد طرق الإنتاج وأساليب الاستهلاك؛ وعلى هذه القوة المستهلكة، وهى تنتقى أطعمتها، أن تكون على وعى بالأنظمة الزراعية والتصنيعية المنتجة للطعام، وأن تنحاز إلى جانب تلك التى تراعى صحة الآكلين وسلامة البيئة. إن بعضنا يتناول أطعمة لا يعرف عنها إلا الدولة التى صنعت فيها، كما تقول البيانات الملصقة على عبواتها. لقد تضخمت أنشطة تجارة المواد الغذائية، وباعدت بيننا وبين مواقع إنتاج وتصنيع هذه الأغذية؛ ولم يقتصر هذا التباعد على الجانب الجغرافى، بل إن ثمة تباعداً نفسياً؛ فإنك حين تعرف أين وكيف يصنع الطعام الذى تضعه على مائدتك، ويلتف حوله أفراد أسرتك، ينشأ لديك حال من الاطمئنان، تفتقده فى حالة العكس. فعلينا، كمستهلكين، إدراك أن الأطعمة التى تصنع وتغلف، وتقطع آلاف الأميال، فى عمليات نقل وتوزيع، قبل أن تصل إلى موائدنا، يتعدى ثمنها ما ندفعه من جيوبنا؛ فثمة كلفة إضافية، متمثلة فى التبعات البيئية والصحية المترتبة على إنتاجها وشيوعها بين الناس؛ وأهم هذه التبعات: صور من التلوث المرتبط بعمليات الإنتاج - ازدياد ظاهرة البدانة - تراجع عادة الاجتماع حول الوجبات، أمام النزعة إلى (التقاط) الوجبات السريعة (تيك أواى)!

ومن جهة أخرى، يجعلنا أسلوب استهلاك الطعام، واختيارنا لما نأكل، عرضة لأخطار صحية كثيرة؛ وعلى سبيل المثال، يعانى ٦٥٪ من الأمريكيين درجات متفاوتة من السمنة، تكلفتها: ٣٠٠ ألف حالة وفاة، سنوياً، بالإضافة إلى مصاريف الرعاية الصحية، التى بلغت، فى عام ١٩٩٩ وحده، ١١٧ بليون دولار؛ إن ذلك يدعونا إلى مراجعة اختياراتنا وأساليبنا الغذائية؛ وقد تكون الخطوة الأولى فى هذه المراجعة هى تأسيس معايير صحية للطعام، توفر لنا السلامة، فلا نكتفى بمعيار وحيد، مثل محتوى الطعام من السعرات الحرارية؛ فمن حقنا - بل من واجبنا إزاء أنفسنا وإزاء بيئتنا - أن نتحقق من أن ما نأكله خال من المواد الحافظة المشبوهة، ومن المبيدات والهورمونات ومضادات الحيوية؛ وهى كلها كيماويات تضر بصحة البشر وسلامة البيئة. وبالإضافة إلى هذه المعايير الضرورية، فإن بمقدور (الآكلين) أن يحدثوا تغييرات عميقة ومؤثرة، من خلال ما يضعونه على موائدهم، إذا قللوا من اللحوم، وقاطعوا المنتجات الزراعية المعتمدة على الكيماويات، ولم يهتموا بالطعام المستورد (القادم من بعيد)، لصالح المنتج المحلى. وعلى أى حال، فإذا لم يكن لنا حيلة فى اختيار طعامنا، وإذا كان علينا أن نأكل ما يقدم لنا، فمن حقنا - كآدميين - بل من مسئوليتنا، أن نعرف أسلوب إنتاج هذا الطعام الذى أرغمنا على ازدراده!

ويتعرض الفصل الخامس من التقرير للعلاقة بين النظام الاقتصادى وأساليب الاستهلاك؛ فيشير إلى أن معظم الأنظمة الاقتصادية فى العالم الصناعى لا يهتم بإنتاج سلع معمرة، بقدر اهتمامه بالسلع الوقتية، أى تلك التى تستخدم لمرة واحدة ثم تهمل، ليعود المستهلك - حين يحتاج إليها مجدداً - ليشتريها مرة ثانية، وثالثة... إلخ. ويساعد على إقرار هذا النمط الاستهلاكى سهولة إنتاج كميات ضخمة من تلك السلع، وانخفاض ثمنها نسبياً. ومن جهة أخرى، فقد عمل السلوك الاستهلاكى الجامح على ترسيخ هذا التوجه الاقتصادى، كما غذاه رغبة دائمة فى تحقيق معدلات متزايدة من النمو الاقتصادى. وقد أدى ذلك كله لسحب البشرية إلى شفا هوة بيئية سحيقة؛ فنحن نعيش فى عالم أفرط جانب من سكانه فى استغلال موارده، بل جاروا عليها؛ ومن ناحية أخرى، فإن التلوث يضرب هواء ومياه الأرض، التى اختل مناخها وتدهورت أحوال أنظمتها البيئية، على وجه العموم. وهذه الأحوال، التى نعاينها ونعانيها، تضع أهل الأرض أمام تحد بالغ الصعوبة؛ فهم مطالبون بتخفيف وطأة ضغوطهم على الموارد الطبيعية المنهكة، بما يستدعى أن يبادر الأغنياء بالاستغناء عن بعض مظاهر الرغد والرفاهية، لينخفض استهلاكهم من الطاقة والمواد الأولية المختلفة بمقدار ٩٠٪، فى العقود القليلة القادمة؛ ولعلنا نجد من يشاركنا التشكك فى احتمال أن يتحقق ذلك!.

ويكشف لنا الفصل السادس عن نوع من (الإنفاق) الاستهلاكى، يلعب دوراً خطيراً فى رسم ملامح خريطة الاستهلاك العالمى، هو (الإنفاق الحكومى، أو المؤسساتى)؛ إذ تبين أن مجمل ما تنفقه الشركات، والإدارات الحكومية، والمنظمات الدولية، والجامعات، وما شابه ذلك من مؤسسات وهيئات، على شراء السلع وطلب الخدمات، فى السنة الواحدة، ما يفوق الناتج الإجمالى المحلى لعدة دول؛ وفى بعض الدول الصناعية الكبرى، تبلغ قيمة المشتريات الحكومية ٢٥٪ من قيمة ناتجها الإجمالى المحلى؛ وقد اشترت حكومات دول الاتحاد الأوروبى، بالعام ٢٠٠١، بضائع وخدمات زادت قيمتها على تريليون دولار، أى ما يوازى ١٤٪ من الناتج الإجمالى المحلى لتلك الدول؛ وتبلغ هذه النسبة، فى دول أمريكا الشمالية، ١٨٪، وتزيد قيمتها الفعلية على ٢ تريليون دولار فى السنة؛ كما بلغ إنفاق الأمم المتحدة على السلع والخدمات التى

الجدول رقم (١)
توزيع الأنصبة من الاستهلاك على المستوى الخاص، مقابل تعداد السكان، فى مناطق مختلفة من العالم
(نسبة مئوية)

المنطقة	نصيبها من الاستهلاك الخاص، عالميا	تعداد السكان (بالنسبة للتعداد العالمى)
الولايات المتحدة وكندا	٣١.٥	٥.٢
أوروبا الغربية	٢٨.٧	٦.٤
شرق آسيا	٢١.٤	٣٢.٩
أمريكا اللاتينية ودول الكاريبى	٦.٧	٨.٥
أوروبا الشرقية وأواسط آسيا	٣.٣	٧.٩
جنوب آسيا	٢.٠	٢٢.٤
أستراليا ونيوزيلندا	١.٥	٠.٤
الشرق الأوسط وشمال أفريقيا	١.٤	٤.١
جنوب الصحراء الأفريقية	١.٢	١٠.٩



استهلكتها هيئاتها وبرامجها المختلفة، فى العام ٢٠٠٠، أربعة عشر بليون دولار. وتتميز الجامعات بين المؤسسات والهيئات التى تفرط فى الإنفاق على استهلاك السلع والخدمات؛ وهذا أمر مثير للدهشة: فالجامعات، كما هو متوقع، مؤسسات خدمية بالدرجة الأولى، تنتج وتقدم خدمات التعليم والبحث العلمى للأفراد، ولغيرها من مؤسسات المجتمع، فالأولى بها والأليق لها أن تسبق صفتها كمؤسسات منتجة صفتها كمؤسسات مستهلكة، غير أن هذا التقرير يشير إلى أن إنفاق الجامعات فى العالم على شراء السلع والخدمات يقدر ببلايين الدولارات، سنوياً؛ وتشتمل قائمة الإنفاق الاستهلاكى لها على بنود متنوعة، من مبان ومنشآت ومخيمات، إلى الوجبات السريعة. وقد أنفقت الجامعات الأمريكية، على سبيل المثال، فى العام ١٩٩٩، أكثر من ٢٥٠ بليون دولار، على السلع والخدمات، وهو ما يوازى ٣٪ من الناتج الإجمالى المحلى الأمريكى.

إن نشاط هؤلاء المستهلكين الكبار يؤثر على استهلاك الأفراد؛ فقدراتهم الإنفاقية الضخمة تلحق هزات كبيرة بالأسواق، وتسحب السلع من أمام آلاف المستهلكين الأفراد.

ويتصدر الفصل السابع عنوان: الاستهلاك والعولمة والحاجة للانضباط، ويعالج - كما هو واضح - الارتباط الذى شهده عقد التسعينيات من القرن المنقضى، بين تيار العولمة الجارف وتنامى الاقتصاديات الاستهلاكية. لقد كان ذلك مصحوباً بانتعاش اقتصادى وفر المزيد من السلع والخدمات، وجعلها بمتناول القوى الشرائية الاستهلاكية، كما واكبه تدفق لرؤوس الأموال عبر الحدود الدولية. وقد اعتمد ذلك كله على تضخم واضح وسريع فى حركة تجارة مواد أولية، جاءت من موارد طبيعية واقعة، أصلاً - ومنذ زمن طويل - تحت ضغوط استغلال جائر وإدارة بيئية جانبها السداد، مثل مسامك العالم، والغابات الاستوائية، وبعض المناجم. ويتساءل التقرير: ألا يمكن للعولمة أن تغذى توجهاً نحو أنماط وأنساق إنتاجية واستهلاكية يتحقق فيها عنصر الاستدامة، بمعنى أن تمهد السبل لخلق اقتصاد عالمى يتأسس على صون وحماية موارد العالم، لا على إنهاكها أكثر بالاستغلال غير الرشيد ؟. يقول التقرير إن ذلك ممكن، شريطة أن تتم بعض الإجراءات، مثل تقوية الاتفاقيات والمعاهدات البيئية الدولية، والمؤسسات المهتمة بشئون البيئة؛ وإصلاح أسس التجارة العالمية؛ ودعم أنشطة القطاع الخاص ومؤسسات المجتمع المدنى.

وينتهى التقرير بفصل ثامن، يدعو إلى إعادة النظر فى معنى (الحياة الطيبة)؛ ويرى أن طيب العيش لا يرتبط - بالضرورة - بالغنى؛ و يلفت التقرير نظرنا إلى أن معظم الجدل الدائر حالياً حول مبدأ الاستدامة يتركّز فى الاعتبارات البيئية والاقتصادية المطلوب مراعاتها لضمان عالم صحى؛ ولا يكاد المتجادلون يلتفتون إلى المسائل الاجتماعية والنفسية، فى هذا الخصوص، على ضرورتها وأهميتها فى تكوين الثقافات، ومن ثمّ تحقيق عنصر الاستدامة. وتأسيساً على هذا التصوّر، تحرص الحكومات على أن يستمر النمو فى الناتج الإجمالى المحلى، مفترضةً أن الزيادة فى الدخل تحقق مستوى معيشة طيباً، يتيح فرصاً أكبر للاستهلاك؛ والحقيقة، هى أن ذلك قد تكون له مردودات محبطة؛ والدليل على ذلك أن نوعية الحياة فى بعض دول العالم الغنى تعانى ضغوطاً متزايدة، وتمر بأوقات عسرة، ويعتريها اضطرابات فى العلاقات الاجتماعية.

والمزعج فى قضية الاستهلاك والمستهلكين أن ليس ثمة ما يشير إلى احتمال كبح جماح هذه الموجة الاستهلاكية الشرسة، وبصفة خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يغرق المستهلكون فى طوفان من السلع الاستهلاكية والخدمية، وحيث يتسم السلوك الاستهلاكى بالمغالاة؛ وعلى سبيل المثال، ازداد عدد المنازل فى ربع قرن (١٩٧٥ - ٢٠٠٠) بنسبة ٣٨٪، مع انخفاض متوسط عدد سكان المنزل الواحد؛ كما أن عدد السيارات الخاصة التى تجرى على الطرق الأمريكية يفوق العدد المأذون له بالعمل من قبل الجهات الإدارية؛ ومن مؤشرات زيادة الاستهلاك الأمريكى، أيضاً، زيادة متوسط حجم المبردات المنزلية بنسبة ١٠٪؛ فى الفترة من ١٩٧٢ إلى ٢٠٠١، مع زيادة متوسط عدد وحدات التبريد فى المنزل الواحد. فهل ارتبطت هذه الزيادة فى الاستهلاك بسعادة المواطن الأمريكى ؟. لقد أجرى استقصاء للرأى، فى العام ٢٠٠١، لقياس ارتباط درجة الغنى والقدرة الاستهلاكية بالسعادة الشخصية، وتبين منه أن ثلث الأمريكيين، فقط، يمكن أن يوصفوا بأنهم (سعداء جداً)؛ وهى نتيجة مشابهة لأخرى، تم التحصّل عليها بالعام ١٩٥٧، حين كان الأمريكيون أقل ثراءً، بمقدار النصف! ومن جهة أخرى، فلكى يضاعف الأمريكيون مستوى ثرائهم، فى نصف القرن الماضى، كان عليهم أن يعملوا أكثر؛ فازداد متوسط عدد أسابيع العمل، بالسنة الواحدة، بمقدار تسعة أسابيع، مقارنةً بأحوال العمل عند الأوروبيين؛ فكانت النتيجة أن أرهق العمل الزائد المواطن الأمريكى، وبالوقت ذاته، لم يجعل الدخل الإضافى، المقابل لهذا العمل، حياة الأمريكيين أكثر سعادة!. وفى عملية مسح استقصائى، أجرتها مؤسسة مراقبة العالم (وورلد ووتش إنستيتيوت)، فى مختتم القرن الماضى (١٩٩٩/٢٠٠٠)، لدراسة أحوال المعيشة فى ٦٥ دولة، تبين أن الرضا عن الحياة، والدخل، يسيران فى تساوق، حتى يصل الدخل السنوى للفرد إلى ١٣ ألف دولار (بالقيمة الشرائية للدولار فى العام ١٩٩٥)، بعدها، لا تضيف الزيادة فى الدخل إلا ارتفاعاً طفيفاً فى الإحساس الشخصى بمعنى السعادة!

وينتهى الفصل الأخير من التقرير بالدعوة إلى ضرورة مراجعة ما استقر لدينا من معنى للرغد والازدهار على أنه جمع وتكديس للسلع؛ فلا يكفى الشراء، وحده، لتحقيق مستوى معيشة طيب، إذ يسبقه عوامل أخرى، مثل الحرية والصحة والأمن والعلاقات الاجتماعية المرضية.

وكان من الطبيعى أن تثير هذه التوجهات الاستهلاكية الجامحة كدر وسخط بعض أنصار البيئة وصانعى السياسات الاقتصادية؛ وقد تمخّض ذلك عن بعض الأفكار والإجراءات المقترحة، التى يرونها كفيلةً بوقف هذه الموجة الاستهلاكية المندفعة؛ منها:

١ - فرض ضرائب على المصنوعات المتسببة فى إيذاء البيئة، بتلويثها أو بالضغط على مواردها الطبيعية؛ وبالوقت ذاته، وضع معايير وآليات لمراقبة الإنتاج، من شأنها التقليل من الآثار السلبية على حيوية الموارد الطبيعية.

٢ - تنشيط سياسة استعادة المنتجات بعد انتهاء استخدامها واستنفاد الغرض منها، وإلزام الشركات المنتجة بأن تسترد هذه المنتجات، بعد انتهاء فترة صلاحيتها، فلا تلقى فى مستودعات المخلّفات، ولا تحرق؛ مما يخفف الضغط على طبيعة الأنظمة البيئية.

٣ - إطالة عمر المنتجات، وتصنيعها بحيث يسهل إصلاحها إذا عطبت، وتحديثها عند الضرورة؛ وتقليل كمية وعدد الخامات المستخدمة فى تصنيعها؛ وهذا إجراء إضافى، كفيل بصون الموارد الطبيعية، وتقليل المخلفات.

٤ - كما أن السلوكيات الاستهلاكية بحاجة إلى قرارات أخرى، تعدّ بالملايين، يتخذها المستهلكون أنفسهم، على المستوى الفردى، وتتعلق بما يستهلكونه فى حياتهم اليومية من طعام وماء وطاقة... إنّ هذه القرارات - فى مجموعها - تشكّل قوةً هائلة، توجّه سياسات الإنتاج والاستهلاك. ■

الجدول رقم (٢)
تكلفة إنفاق الأغنياء على سلع الرفاهية
مقارنة بتكلفة الوفاء باحتياجات أساسية للفقراء
(القيمة بالبليون دولار فى السنة)

أوجه إنفاق الأغنياء	قيمتها	احتياجات الفقراء	قيمتها
مستلزمات (الماكياج)	١٨.٠	رعاية الحوامل	١٢.٠
طعام الحيوانات الأليفة	١٧.٠	مكافحة الجوع وسوء التغذية	١٩.٠
العطور	١٥.٠	مكافحة الأمية	٥.٠
رحلات بحرية ترفيهية	١٤.٠	توفير مياه صالحة للشرب	١٠.٠
استهلاك المرطبات (فى أوربا فقط)	١١.٠	تطعيم الأطفال ضد الأوبئة	١.٣
مجمل إنفاق أغنياء العالم على السلع والخدمات غير الأساسية	٧٥.٠	المطلوب لتحسين حياة الفقراء	٤٧.٣

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشـكـر الناشـرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

هزيمة أمريكا فى فيتنام مقارنة بين التجربة الفيتنامية والتجربة الفلسطينية

د. أمل خليفة

القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٥، ١٤٧صفحة



تأتى أهمية هذا الكتاب من حيث كونه يلقى الأضواء على تجربة أمريكا فى فيتنام كنموذج لحروبها الحديثة التى كان آخرها احتلال العراق..

من بين سطور الكتاب، تتكشف الكثير من جوانب العقل العسكرى/ السياسى الأمريكى بكل أهدافه الساعية إلى تغيير خرائط المنطقة العربية، وإعادة ترتيب أولوياتنا الثقافية والسياسية بما يتناسب مع مصالحها هى فى المقام الأول وربما الأخير.

تقول مؤلفة الكتاب: إن أيدى الأمريكيين ممتدة نحو رؤوسنا يتهيأون لشقها بالمشارط، وفى نيتهم أن يحذفوا من تلافيف عقولنا ما لا يروق لهم، ثم يوسعون موضعاً لبعض الأسلاك تتصل بما فى أيديهم من أزرار للتحكم فينا عن بعد فيما يسمونه نظام «الريموت كونترول».

يقدم الكتاب الهزيمة العسكرية والسياسية التى منيت بها أمريكا فى فيتنام لعل العقل العربى يستفيد من دروسها وخبراتها وهو فى مواجهة الطوفان الأمريكى الذى بدأ فى العراق ولا أحد يعلم إلى أين ستقوده خطواته القادمة فى منطقتنا.. خاصة أن الحملات العسكرية التى شنتها الولايات المتحدة فى النصف الثانى من القرن العشرين - أى خلال ٥٠ عاماً - أكثر من خمسين حملة، وفى السنوات الأربع الماضية من القرن الحادى والعشرين احتلت أمريكا دولتين: أفغانستان والعراق.

وسطور الكتاب تقدم أهم وقائع الحرب الأمريكية فى فيتنام، وتبين كيف استطاعت هذه الدولة الفقيرة أن تهزم عسكرياً أكبر قوى فى العالم فى ستينيات وسبعينيات القرن الماضى.

كما تقدم أيضاً مقارنة بين التجربة الفيتنامية والتجربة الفلسطينية.

■

الحقيقة والشريعة فى الفكر الصوفى.. قراءة فى نصوص الحلاج والغزالى

عبد السلام نور الدين

دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٤، ١٩٩ صفحة



اتسم الفكر الذى تبلور فى باطن الحضارة الإسلامية، بالتوفيق بين الثنائيات المتباينة، رغم أن الإسلام نفسه دين التوحيد.. هذه الملاحظة المنهجية هى جوهر هذا الكتاب الذى يؤكد أن نزعة التوفيق بين هذه الثنائيات: التسيير والتخيير، العقل والنقل، الحكمة والشريعة، أدت بأصحابها إلى النجاة من التهلكة، فى حين سقطت تهمة الزندقة على أولئك الذين ساروا بواحدية العقل إلى نهايته المنطقية مثل ابن الراوندى والرازى والحلاج.. إلا أن هذه الثنائية وتوفيقية العقل العربى - كما يقول الكتاب - ظلت عائقاً أمام تطور هذا العقل، وظلت أيضاً حائلاً دون أن يرى الأشياء فى تجسدها العينى الكامل وفى تجددها المطلق.

يقول المؤلف إن الكندى والفارابى وابن سينا قد عبدوا الطريق لابن رشد ليبسط مقال الاتصال بين الحكمة والشريعة. ولكن تلاميذ ابن رشد الأوروبيين حينما فصلوا بين الحكمة والشريعة على الرغم من معارضة توماس الاكوينى قبيل عصر النهضة، انفتحت مسالك الفصل بين الكنيسة والدولة، ولم تكن العلمانية الأوروبية فى عصر النهضة الأوروبية (فى بعض ملامحها الفكرية) سوى ثمرة غصنى العقل والنقل، الحكمة والشريعة الإسلامية، بعد أن قضى تلاميذ ابن رشد المسيحيون الالتفاف بينهما، وتدلى كل فرع بثماره حيث شاء.

وإذا كانت أفكار ابن رشد قد عبرت مضيق جبل طارق لتحرك بحيرة القرون الوسطى المسيحية الراكدة، إلا أن مجرى الثنائية والتوفيق قد ازداد عمقاً فى العالم الإسلامى، وانتقلت من علم الكلام والفلسفة إلى العرفان الصوفى فى صورة الثنائية والتوفيق بين الحقيقة والشريعة: الحقيقة الإلهية فى تنزيهها وتجريدها المطلق.. والشريعة فى تجسيدها المطلق فى صورة الدولة.

يؤكد المؤلف: إنه إذا كان سيد المرسلين محمد ﷺ قد نقل العرب من الظلمات إلى النور بفضل لا إله إلا الله وهدم الأوثان وحرر الكعبة من حيث اعتبار المشركين لها بيت الله والأصنام معاً، فإن قريش استشعرت الخطر فى الدعوة الجديدة التى ترمى إلى فصل الدين عن التجارة، والدولة عن القبيلة، وفصل ثنائية بيت الله والأصنام، وانتصر الإسلام وأصبح الدين كله لله، لكن سرعان ما عادت العقلية العربية التقليدية إلى قواعد ثنائياتها وتوفيقها.

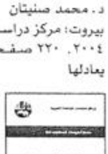
وفيما غامر الحلاج بتجاوز الثنائية وتمسك بواحدية الحقيقة الإلهية وارتقائها على الشريعة، كان قد قرر عن طيب خاطر أن يتنازل عن عنقه فى سبيل الظفر بجوهرة جمال الحقيقة، وهو ما اعتبره بعض وزراء دولة المقتدر العباسية تحريضاً للعامة وتحرشاً بالخلافة وتحريضاً بالوزراء، فعلقوه على الخشبة. أما الغزالى فقد توقف دون ذلك رغبة فى وصال الدولة وخوفاً منها، وإن كان قد توصل بعد مكابدة وتمزق وفى وقت متأخر إلى أن يتخلى عن خدمة دولة آل سلجوق بعد أن حاول عبثاً أن يوفق بينها وبين الحقيقة الإلهية.

■

النخب السعودية: دراسة فى التحولات والإخفاقات

د. محمد صنيتان

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ٢٢٠ صفحة، ٦ دولارات أو ما يعادلها



صدر حديثاً عن مركز دراسات الوحدة العربية كتاب «النخب السعودية: دراسة فى التحولات والإخفاقات» للدكتور محمد بن صنيتان ضمن سلسلة أطروحات الدكتوراة.

ينصب اهتمام هذا الكتاب على دراسة مكونات النخب السعودية ميدانياً، ومحاولة تشخيص جملة الأسباب التى حدّت من فاعليتها وأعاقت أداءها لجملة وظائفها الريادية، وفى جملتها المساهمة من موقع متقدم فى التحديث الاجتماعى والسياسى الحقيقى بما يدعم المواطنة والمشاركة السياسية الواسعة والعدالة الاجتماعية.

لقد استطاع المجتمع السعودى أن يفرز نخباً كان وراءها بالأساس متغير التعليم، ومتغير النفط والإرادة السياسية. وتشير أهم نتائج هذه الدراسة إلى أن هذه النخب لم تفلح فى أن تكون ريادية، بل هى عامل يغذى أحياناً الثنائيات القديمة ونزعات التفاخر الإقليمى أو المناطقى، والمفاضلة بين البدو والحضر، مع ما للاستتباعات الخطيرة التى غذاها النفط: كالسلوك الاستهلاكى، والبذخ التفاخرى وعلاقات السمسرة والمحسوبية من أثر حاسم.

غير أن العقد الأخير، بما تضمنه من ضغط حرب الخليج وتبعاتها الاقتصادية والمالية، وما يحدث فى دول الجوار من تحولات قد يدفعان هذه النخب إلى مراجعة مقولاتها وسلوكها.

■

التراث والنهضة: قراءات فى أعمال محمد عابد الجابرى

نخبة من المؤلفين

إعداد: د. عماد عبد اللطيف

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ٢٨٧ صفحة، ٨ دولارات أو ما يعادلها



يحتل مشروع نقد العقل العربى مكانة متميزة فى مجال التفكير فى أسئلة التراث فى الفكر العربى المعاصر. ويعود السبب فى ذلك إلى نوعية التأليف خلال ما يزيد على ثلاثة عقود فى مجال الدراسات التراثية.

لقد اعتنى الجابرى منذ منتصف الستينيات بابن خلدون والخلدونية، ثم اهتم بأسئلة الفلسفة الإسلامية وقضاياها، واتجه بحكم تكوينه الفلسفى وانخراطه السياسى فى إشكالات العمل الوطنى والقومى وقضايا التحرر العالمى إلى بناء مشروع نظرى يروم بناء تصور شمولى لأسئلة التراث وقضاياه فى ثقافتنا المعاصرة.

يحتوى هذا الكتاب على أبحاث مهداة لمحمد عابد الجابرى بمناسبة مرور عشرين عاماً على بداية صدور مشروعه فى نقد العقل العربى، أعدتها نخبة من الباحثين بهدف المساهمة فى تحليل أعمال الجابرى ومناقشتها بأسلوب نقدى حوارى يساهم فى تعزيز مساحة الفكر النقدى العقلانى التجديدى فى فضاء الفكر العربى.

■

حياة مستقرة

عادل عصمت

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٤، ١٣٥صفحة



هذه هى الرواية الثالثة للروائى عادل عصمت بعد «هاجس موت» ١٩٩٥، و«الرجل العارى» ١٩٩٨، كما أن له روايتين تحت الطبع هما «قرية منسية» و«حالة سرد».

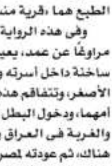
وفى هذه الرواية التى يبدو عنوانها مراوغًا عن عمد، يعيش بطلها صراعات ساخنة داخل أسرته وخاصة مع شقيقه الأصغر، وتتفاقم هذه الصراعات مع موت أمهما، ودخول البطل فى تجارب مع السفر والغربة فى العراق وعلاقاته المفتوحة هناك، ثم عودته لمصر ليعيد ترتيب أوراقه أو فى واقع الأمر محاولاته الدعوية لترتيبها.

■

المعتزلة، نشأتهم.. فرقهم.. آراؤهم الفكرية

صلاح أبو السعود

القاهرة: مكتبة النافذة، ٢٠٠٤، ١٢٨ صفحة، ١٥ جنيهًا



يتفق المعتزلة بكافة فرقهم على أن الإنسان عليه أن يعرف الله عز وجل، وأن يفعل الحسن ويتجنب القبيح، والسبيل إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، والتمييز بين الحسن والقبيح هو: النظر العقلى.

وبعض المعتزلة يقولون بأن تقصير الإنسان فى الوصول إلى هذه المعرفة يستوجب العقوبة، فالعقل عند المعتزلة هو ميدان معركتهم الكبرى مع المذاهب الإسلامية الأخرى، ويقوم الاعتزال على خمسة أصول، من قام بها فهو معتزل وهى: التوحيد، والعدل والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وباقتناعهم بوحدة الذات والصفات أى أن الله وصفاته شىء واحد، دخل المعتزلة معارك فكرية وفقهية ضارية مع خصومهم، إلى الحد الذى دفع هؤلاء الخصوم إلى تكفير المعتزلة، إضافة أيضًا إلى إيمان المعتزلة بخلق القرآن، فإنه إذا لم يكن مخلوقًا فهو قديم، وإن كان قديمًا فقد شارك الله سبحانه وتعالى فى قدمه وأزليته، وهذا يعد عندهم شركًا، كما أنهم أيضًا ينكرون رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة.

يستعرض الكتاب بشىء من التفصيل أسباب تسمية المعتزلة بهذا الاسم، وكل آرائهم الفكرية والفقهية عند مختلف فرقهم الكبرى، كما يلقى الضوء على معاركهم السياسية فى عصر الخليفة المأمون فيما حمل المعتزلة الناس على القول بخلق القرآن، وكان التعذيب والقتل نصيب المخالفين لهم فى الرأى، كما يستعرض الكتاب أيضًا اندثار هذه السلطة السياسية للمعتزلة فى عصر المتوكل الذى أظهر عداءه للاعتزال وأهله.

وتتبدى أهمية الكتاب فى أنه يقدم بموضوعية أفكار الاعتزال مالها وما عليها، ودور الاعتزال فى إعلاء شأن العقل فى مسيرة الفكر الإسلامى عبر التاريخ.

■

القصة القصيرة الإسبانو أمريكية فى القرن العشرين

تأليف: مجموعة من الأدباء المتحدثين بالإسبانية

ترجمة وتقديم: صالح علمانى

مراجعة: د. محمد حسن موسى

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة إبداعات عالمية، ٢٠٠٤



يحاول هذا الكتاب أن يرصد نماذج وتيارات مختلفة فى مرحلة فسيحة عرفت إنتاجًا غزيرًا من القصة الأمريكية الإسبانية، ابتداء من قصة «الدجاجة المذبوحة» لهوراسيو كيروغا، المنشورة عام ١٩٠٧، وحتى قصة «نهاية الأسبوع» لماريو بينيديتى المنشورة عام ١٩٩٩، ضمن مجموعة «صندوق بريد الزمن».

والقراءة التى يمكن لهذا الكتاب أن يقدمها هى الاطلاع على تجربة الحداثة الإسبانو أمريكية كما تجلت فى القصة القصيرة، وحركة التجديد فيها.

لقد كانت أمريكا الإسبانية، على امتداد حوالى أربعة قرون - مثل كل المستعمرات الأخرى - مجرد مورد للمواد الأولية، ومستورد ومستهلك للمنتجات المصنعة، ومن ضمن تلك المنتجات المستوردة، كانت تستهلك أدبًا يكتب على بعد آلاف الأميال عن واقعها، بعيدًا كل البعد عن مشاكلها وهمومها اليومية، ونجد أن أبرز الروائيين والقصاصين بهذه اللغة فى النصف الثانى من القرن العشرين هم من أمريكا اللاتينية أيضًا. ومع ذلك، فإن أصالة القصة الأمريكية اللاتينية كانت قد استقرت ونضجت إبداعيًا منذ النصف الأول من القرن العشرين.

ومسيرة التجديد الحقيقية فى القصة القصيرة تبدأ مع قصص هوراسيو كيروغا، أحد أبرز ملهمى الروح التجديدية فى الإنتاج الأدبى الإسبانو أمريكى. فقد كان كيروغا أول من حاول وضع نظرية للقصة القصيرة الأمريكية الإسبانية، فحدد بدقة أطر هذا الجنس الأدبى وعناصره الأسلوبية.

وكان يرى أن «الإلهام»، هذا البعد الغامض فى الإبداع، هو عنصر ضرورى لا غنى عنه فعلاً، ولكنه كان يدرك فى الوقت نفسه أن الافتقار إلى الملكة التقنية يمكن أن يفسد أرقى رؤية إبداعية.

وقد اهتم كيروغا، بصورة خاصة، فى رسم الحدود الجوهرية الفاصلة بين القصة القصيرة والرواية، على الرغم مما بينهما من تداخل فى الظاهر.

ومع أن المختارات الأدبية فى هذا الكتاب كانت محاولة انتقائية لا تدعى الإحاطة الكاملة بالتاريخ الأدبى لأمريكا الإسبانية، إلا أنها نجحت بالفعل فى تقديم إبداعات رموز الأدب والعديد من التيارات والنماذج الأدبية المميزة لهذه المنطقة التى لا يعرف عنها القارئ العربى الكثير.

■

عندليب

أميرة الشاذلى

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٤، ٨٤صفحة



تحمل سطور هذه القصة - بكل براءة وعفوية - آلام الشعب الفلسطينى فى المخيمات، وكيف يترصد الموت عبر بنادق الصهاينة للأطفال الصغار؟

وكيف يرحلون عن الدنيا وهم بعد أعواد خضراء لا يعرفون للحياة معنى سوى اللهو واللعب مع أقرانهم.

بطلة هذه القصة واسمها عندليب فقدت أباها وهى طفلة صغيرة، شعرت بأنها تفتقر إلى الأمان وتأكد هذا الشعور الذى لم يبارح روحها وهى ترى طائرات إسرائيل تقصف أبناء شعبها، وأيضًا عندما اعتقلت إسرائيل أخاها بدر لمدة ثلاثة وثلاثين شهرًا ليخرج من المعتقل مصابًا بفقدان الذاكرة ورعشة فى جميع أطرافه.

ورغم كل هذا التوحش الإسرائيلى الذى أصاب أفراد عائلتها، إلا أن عندليب دائمًا تبدو كعصفور يحب الحياة، يتحرر من خوفه من أجل مواصلة الطيران والتغريد.

■

الفيلسوف ابن رشد ومستقبل الثقافة العربية

د. عاطف العراقى

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤، ٦٥٥ صفحة

كان الفيلسوف العربى ابن رشد يدعو إلى دراسة مشكلات المعرفة على أساس العقل، وكان يؤمن بأن التمييز بين الخير والشر إنما يقوم على العقل وحده، كما درس مشكلة حرية الإرادة على أساس برهانى عقلانى.

كما خاض ابن رشد العديد من المعارك الفكرية مع الغزالى، وفكر الأشاعرة عمومًا وخالفهم فى الكثير من القضايا، كما نقد أفكار الصوفية.

ويقول مؤلف الكتاب أن هذا الفيلسوف العملاق. ابن رشد قدم نسقًا فلسفيًا محكمًا كان تعبيرًا عن ثورة العقل وانتصاره، وبذل فى التوصل إلى الآراء التى يتكون منها نسقه الفلسفى جهدًا كبيرًا.

كما استفاد من فلاسفة اليونان وفلاسفة العرب الذين سبقوه ومهدوا له الطريق: طريق العقل والاستنارة.. كما كان اشتغاله بالطب وكتابته فيه أكثر من كتاب ورسالة دليلاً على اعتزازه بالعلم.

وينقسم هذا الكتاب إلى قسمين: الأول، عن الفلسفة الرشدية من خلال أبعاد متنوعة يجمعها هدف واحد، هو النظر إلى مستقبل الثقافة العربية من منظور تجديدى تنويرى، وكيفية الاستفادة من فلسفة ابن رشد ومبادئه العقلية النقدية، والثانى، عن تاريخ المؤلف نفسه مع ابن رشد وأفكاره طوال أكثر من أربعين عامًا.

■

عبد الحسين شعبان - صورة قلمية

القاهرة: مركز المحروسة، ٢٠٠٤، ٢٩٨ صفحة



يضم هذا الكتاب بين دفتيه وقائع حفل تكريم عبد الحسين شعبان، وهو

واحد من أبرز مناضلى حقوق الإنسان فى العالم العربى، والذى نظمه البرنامج العربى لنشطاء حقوق الإنسان.

ولد عبد الحسين فى مدينة النجف الأشرف فى ٢١ مارس ١٩٤٥ لأسرة عربية كبيرة يعود أصلها إلى اليمن، تخرج من جامعة بغداد واستكمل دراسته العليا فى براغ حيث نال درجتى الماجستير والدكتوراة وتخصص فى القانون الدولى، وانخرط منذ فجر شبابه فى العمل السياسى، وكانت أول مشاركة له هى مظاهرة ضد العدوان الثلاثى حمله المتظاهرون خلالها على أكتافهم وكان يقرأ الشعر ويندد بسقوط حكومة نورى السعيد وبحياة جمال عبد الناصر. كما عمل فى صفوف الحركات الشيوعية واليسارية فى مجالات اختصاصية قيادية عديدة منها: العمل المهنى والنقابى والعلاقات والعمل الأيديولوجى والإعلامى والثقافى.

وللدكتور عبد الحسين العديد من المؤلفات فى مجالات السياسة والأدب والثقافة والإسلام وحقوق الإنسان.

وفى هذا الكتاب/ الاحتفالية كانت إسهامات عبد الحسين شعبان فى مختلف الأصعدة السياسية والثقافية، محوراً لكتابات الكثير من رفاقه فى كل الدول العربية، الذين رسموا بأقلامهم صورة بانورامية لنشاطه الإبداعى وعمله التنويرى.

وقد ضرب د. شعبان مثالاً يحتذى به حين رفض تجديد رئاسته للمنظمة العربية لحقوق الإنسان فى بريطانيا، رغم مناشدات العديد من الأوساط لكى يتراجع عن قراره، إلا أنه أصر على موقفه وناشد زملاءه من أعضاء اللجنة التنفيذية الذين مضى على وجودهم دورتان عدم ترشيح أنفسهم لإفساح المجال أمام وجوه جديدة لتتولى المسئولية، مؤكداً بذلك على أهمية العمل من تحت وليس من فوق فقط.

وخلال مشوار كفاحه كانت التقاليد التى حاول أن يرسيها فى عمل المنظمة بمثابة درس خارج الدوام الرسمى العربى.

■

أغانى الخبرة والحيرة والبراءة سيرة شعرية شبه ذاتية شبه موضوعية

عبد الوهاب المسيرى

القاهرة: دار الشروق، ١٦٢ صفحة



هذا الكتاب هو سيرة شعرية كتبها الدكتور المسيرى ما بين عامى ١٩٥٦ و٢٠٠٢ كاستمرار لرحلة المؤلف الفكرية، والتى يسعى فيها إلى إلقاء الضوء على بعض اللحظات الدالة فى حياته.

تبدأ أولى صفحات الكتاب/ الرحلة بعنوان «الأفراح الأولى» يفتتحها د. المسيرى بقصيدة من أربعة سطور يوجهها للكرة الأرضية ويقول فيها «لو كان لى ألف ذراع/ لو كان لى ألف قدم/ لضممت الأرض إلى صدرى/ وأغمضت عينى فى شغف».

وتضم هذه المرحلة الشعرية التى تمتد من عام ١٩٥٦ حتى ١٩٦٠ العديد من القصائد التى تشى بالبهجة حتى فى قصيدة «أزمة» التى يفتقد فيها الشاعر عينى حبيبته التى تأتيه كل ليلة فى الصقيع البارد فتمتلئ حياته بربيع وشموس ساطعة.

وتبدأ المرحلة الثانية من عام ١٩٦١ حتى ١٩٦٤ بعنوان «الأحزان الأولى» يحوى عددا من القصائد التى تحمل سخط الشاعر على الأحزان التى تداهمه وهو يمثل وقائع تاريخية منها المكان الذى يفترض حسب العقيدة المسيحية أن المسيح قد صلب فيه، كما فى قصيدة «الكلمات التى لا تولد» و«يوليسيس» البطل الأسطورى اليونانى الذى قضى عشرين عاماً فى رحلة العودة إلى جزيرته والذى ظلت زوجته الوفية بينولوبى تنتظره رافضة كل عروض الزواج من أحد غيره، كما فى قصيدة «الرحلة المجيدة».

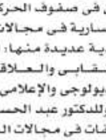
وتمضى صفحات الديوان وهى تحمل عناوين دالة مثل «أغانى الفردوس الأرضى ١٩٦٩ - ١٩٧٣»، ثم «أغانى الحيرة والعودة ١٩٧٣ - ١٩٧٦» ثم «أغانى البراءة ١٩٧٦ - ١٩٨٥» ثم «أميرة القهوة ١٩٨٧ - ٢٠٠٠»، وأخيراً «أغانى اللقاء والوداع ٢٠٠١ - ٢٠٠٢»، والتى يختتمها الشاعر بقصيدة بعنوان «عبرتها وحيداً - عبرتها جميعاً».

■

دوريات

دبى الثقافية
مجلة فصلية تعنى بالأدب والفن والفكر

دبى: دار الصدى، العدد الأول، أكتوبر ٢٠٠٤



فى طباعة فاخرة صدر العدد الأول من مجلة «دبى الثقافية»، برئاسة تحرير سيف محمد المرى، ويدير تحريرها ناصر عراق، وهى تحتوى على العديد من الموضوعات المميزة. ففى باب «قضايا وتحقيقات» تفتح المجلة ملف الصحافة العربية، وتطرح التساؤلات حول أسباب تدنى مستواها المهنى، وغياب قيم العمل الميدانى الحقيقى عن الذهنية الصحفية العربية، ولماذا يلجأ بعض الصحفيين إلى «الفبركة» فى تحرير موادهم ويهملون الواقع الثرى بمشكلاته ومتناقضاته؟

فى تحقيق آخر تستعرض المجلة فلسفة الأسماء عند الفلسطينيين، وفى تحقيق ثالث بعنوان: «صعاليك بغداد: أسماء لها رنين وشعراء بلا قصائد» يتجول محرره فى الشوارع الخلفية للثقافة العراقية حيث تنتشر ظاهرة «الصعلكة» خاصة فى مقهى حسن عجمى بشارع الرشيد وحديقة نادى اتحاد الأدباء وغيرها من الأماكن.

ويتناول باب القضايا والتحقيقات أيضاً دور المراكز الثقافية الأجنبية فى الأردن، وهل تلعب دوراً مشبوهاً أم تدعم حوار الحضارات؟!، بالإضافة إلى تحقيق آخر حول الكاتبات المغربيات اللائى يخشين البوح ويهربن من الرواية إلى القصة القصيرة.

وفى باب الحوارات، يفجر الشاعر الفلسطينى الكبير محمود درويش فى لقاء مع المجلة قضايا ساخنة مؤكداً أن القصيدة العربية الآن لا تتحمل ركاكة الواقع، وأنه لا يوجد لدينا تيار نقدى كجزء من الحركة الثقافية العامة، ويعترف بأنه يكتب الشعر ثم ينقد نفسه، وأنه يحب النثر ويمجده أكثر من الشعر. كما تنشر المجلة قصيدة «طباق - إلى إدوارد سعيد» لمحمود درويش كاملة لأول مرة.

وتحاور المجلة أيضاً د. عبد العزيز المقالح من خلال كتاباته الشعرية والنقدية والفكرية.

كما تحاور أيضاً الشاعر الإماراتى إبراهيم محمد إبراهيم حول دور الإنترنت فى عالم الأدب بعد أن أطلق الشاعر مجلة إلكترونية تعنى بالإبداع.

وهناك أيضاً حوار مع الشاعرة التونسية آمال موسى التى تقول عن نفسها «أنا الشاعر الأوفى بعد أدونيس ومحمود درويش»، وكذلك حوار مع الروائى المغربى بهاء الدين الطود صاحب رواية «البعيدون» التى أثارت اهتماماً كبيراً فى المغرب.

وفى باب بعنوان «دراما الحياة» تشتبك المجلة مع عوالم المسرح والسينما والتليفزيون والإذاعة، من خلال العديد من الموضوعات العميقة والساخنة منها حكايات وأساطير فى الإذاعة المصرية و٨٥ عاماً من الضحك فى السينما المصرية، بالإضافة إلى موضوع عن «ورش السيناريو» باعتباره فعلا فاضحا يمارسه كتاب كبار، وموضوع عن المسرح اليمنى الذى ينتظر الموت وآخر عن تليفزيون الواقع أم تلفيق الواقع؟

وفى باب «ألوان وظلال» كان هناك احتفاء كبير بالفنون التشكيلية والمتاحف، ويلقى الضوء على «دار بلغازى» أول متحف خاص فى المغرب، بالإضافة إلى عدد من الموضوعات المتميزة منها عن الفنان فيرمير الذى مات جوعاً رغم أن إحدى لوحاته بيعت بخمسين مليون دولار، وعن فنانة إنجليزية تتخصص فى رسم الدجاج.

وفى باب «الدراسات» كانت هناك دراسة عن «اليهود فى الشعر العربى» وأخرى عن «بنية الإخفاق فى قصص فاطمة الكعبى»، ودراسة ثالثة عن الهوية الثقافية للسودان. كما احتوى الباب على دراسة نقدية متميزة بعنوان «أدباء بارزون خلف سور الصين العظيم»، ودراسة أخرى عن قسطاكى الحمصى ١٨٥٨/١٩٤١، باعتباره أول ناقد عربى فى العصر الحديث، ودراسة عن قصة جمال الغيطانى «رشحات الحمراء».

وفى باب الترجمات كانت هناك عدة قصائد شعرية لشعراء أكراد وأرمن وإنجليز وهنود بالإضافة إلى قصص قصيرة لأديب مكسيكى وأفريقى من جمهورية مالى.

وفى باب الموسيقى والغناء، كان هناك موضوع عن اختفاء الأغنية الوطنية، وآخر بعنوان «ملامح ضبابية للأغنية السورية»، وثالث عن بيتهوفن المتمرد الحزين.

وبثراء أبوابها، نجحت المجلة فى تقديم أصوات أدبية وفنية وفكرية من المشرق والمغرب العربى لأول مرة بهذا التنوع والثراء، بالإضافة إلى أصوات من أفريقيا وآسيا وأوروبا.

الديمقراطية العربية.. واشتراطات العولمة الأمريكية



صفحات من كتاب:
المأزق العربى.. غياب الفعل الجماعى وعنف الأقلية
صالح السنوسى
مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٤، ١٤٢ صفحة

قد يكون الذين اصطدموا بالسلطة ودفعوا الثمن من آجل الديمقراطية، هم فئة قليلة من المثقفين، ولكن الأغلبية العظمى من المثقفين العرب بمختلف اتجاهاتهم منذ بداية التسعينيات مجمعون على تبنى الديمقراطية، ولم يسبق أن حصل هذا التوافق حول أية قضية أخرى فى السابق، فقد كان هناك مثقفون قطريون ارتبطوا بأنظمة الدول القطرية ودافعوا عنها، فى مواجهة الدعوة القومية، ولم يلتقوا مع المثقفين القوميين، وهناك مثقفون ليبراليون لم يتفقوا مع اليساريين فى أطروحاتهم، كما أن الدعوة إلى السلام والتطبيع مع إسرائيل وجدت مثقفين يدافعون عنها، ويخالفون رأى الذين يتبنون المواجهة كأسلوب وحيد مع إسرائيل، كذلك الأمر بالنسبة للتحالف مع الغرب، والقبول بوجوده العسكرى ونفوذه السياسى والاقتصادى فى المنطقة، يجد من المثقفين من يدافع عنه، خلافًا لنظرائهم الرافضين له.

أما الديمقراطية، فإن الخلاف حولها لم يبلغ الحد الذى بلغه حول تلك القضايا، فالديمقراطية تحظى بقبول واتفاق لم تظفر به أية قضية أخرى بين المثقفين العرب. ولكن ليس بإمكان المثقفين وحدهم أن يصنعوا فعلاً جماعيًا، دونما حاجة للجماعة، فدور هؤلاء أن يهيئوا ظروف قيام الفعل الجماعى، عن طريق المساهمة فى خلق حالة من الإدراك والوعى بالمطالب والقضايا والطموحات بين أفراد الجماعة، «وهل فعل روسو، وفولتير، وديدرو فى فرنسا، أكثر من أنهم وضعوا أيديهم على مواطن الداء، وبالغوا للفرنسيين فى تصوير البلاء، حتى أحس الناس يومئذ أنهم مظلومون، ثم كان إحساسهم بالظلم هو وحده السبب الحقيقى فى قيام الثورة الفرنسية».

لا يمكن أن تهبط الديمقراطية من السماء بمجرد أن ينادى بها المثقفون، فالنضال الواقعى، الذى تسنده أغلبية المجتمع المدركة لمصلحتها فى الديمقراطية، هو الشرط الأول والأساسى لتحقيق هذا المطلب، فالديمقراطية لم تظهر فى الغرب لأن مجموعة من العباقرة قد أرادوا ذلك، بل لأن هناك تغذية اجتماعية مرتدة.

كذلك الأمر بالنسبة للجماعة العربية، فلن يكون بإمكانها تحقيق مجتمع ديمقراطى فى مواجهة الظروف والمصاعب المتمثلة فى السلطة والغرب، إلا إذا كانت الأغلبية قادرة على صنع فعل جماعى عبر آليات الفعل الجماعى المتمثلة فى الأحزاب والاتحادات والنقابات ومنظمات المجتمع المدنى الأخرى. ولكن هذه التنظيمات لا يمكن لها أن تقوم وتكون فاعلة إلا إذا كانت ثمرة إصرار الأغلبية. فهذه التنظيمات لم تولد مع الإنسان، بل أوجدتها المجتمعات الغربية أثناء صراعها مع حكامها، لتصبح فيما بعد الآليات، التى يتم من خلالها التعبير عن إرادة الأغلبية بواسطة أشكال مختلفة من الفعل الجماعى، ولكن هذه الآليات أو التنظيمات ليست هى، التى خلقت الفعل الجماعى، بل كانت مجرد مطالب وطموحات حولتها روح الفعل الجماعى لدى الأغلبية إلى حقائق، فإن لم تتوافر روح الفعل الجماعى لدى الفرد العربى، أى القبول بالمخاطرة والتضحية، فلن تقوم هذه التنظيمات وتؤدى دورها كآليات فاعلة، طالما هناك خوف من تأسيسها، والانتماء إليها بسبب حظر السلطة لها. ولهذا فإن الحديث عن الديمقراطية دون توفر روح الفعل الجماعى لدى غالبية أفراد الجماعة، هو بمثابة وضع العربة أمام الحصان.

إن مثل هذه التنظيمات الموجودة فى بعض الأقطار العربية، لم تكن ثمرة فعل جماعى قامت به الأغلبية، رغم معارضة السلطة، بل إن بعض هذه الأنظمة السياسية هى التى أنشأت هذه الهياكل الصورية، لتجعل منها أدوات ضمن آليات السلطة لمزيد من السيطرة والضبط، ولم تستطع الأغلبية المعنية بهذه المؤسسات أن تحولها إلى أدوات تؤدى دورها الحقيقى رغم إرادة السلطة، بل سيطرت عليها هذه الأخيرة، فوضعت لها المقاييس والمعايير وشروط الحركة، فأصبح أى شخص ينتمى إليها هو مجرد رقم سلبى، يضاف إلى كم مهمل، تحركه السلطة متى شاءت، كما أن هذه الأغلبية لم تقم بمقاطعة هذه المؤسسات، من خلال حركة عصيان ترفض التعامل معها، طالما هى بتلك المقاييس والشروط وبهذه التبعية للسلطة، فالمقاطعة والإضراب هى من أكثر أشكال الفعل الاجتماعى فاعلية.

فالنقد والرفض والمعارضة العلنية، هى التى تمهد الطريق لتشكيل الفعل الجماعى، إذا كانت أغلبية الجماعة تملك فعلاً روح الفعل الجماعى.

قد تكون الديمقراطية هى الدواء الشافى لكثير من أمراض الواقع العربى. ولكن لا يمكن الحصول على هذا الدواء ما لم تتوافر أولاً روح الفعل الجماعى لدى الفرد العربى، فالديمقراطية ثمرة، لا يمكن تصور وجودها دون وجود شجرة الفعل الجماعى، إلا إذا أتى هذا الفعل من خارج الجماعة كحالة التدخل العسكرى الغربى المباشرة، للإطاحة بحاكم والإتيان بحكومة ترفع شعار الديمقراطية، غير أن الحكومة التى تصل تحت خفق رايات فيالق الغرب المنتصرة على بعض الحكام العرب المشاكسين للغرب، لا يمكن اعتبار ديمقراطيتها ثمرة للفعل الجماعى، بل ديمقراطية الغزو، وبالتالى لن تكون هى تلك الوصفة، التى يتفق الكثيرون على أنها البلسم الشافى لمعظم أمراض الواقع العربى، لأن أغلب تلك الأمراض والإشكاليات هى أيضًا الوجه الآخر لمصالح الغرب السياسية والاقتصادية والاستراتيجية فى المنطقة، وقد لا يكون من الحكمة فى شىء تصور أن الغرب يمكن أن يسعى بإخلاص لخلق أوضاع، تتناقض مع ما يعتبرها مصالحه ومكتسباته.

إن الإرث السياسى والثقافى الغربى لا يعوزه الجانب التبشيرى بالمبادئ والقيم الإنسانية، حتى فى مرحلة أعتى موجات الاستعمار فى القرن التاسع عشر، فها هو الجنرال الفرنسى «بول بير» بعد أن احتل هانوى يأمر «بتعليق ملصقات تحمل بنوداً من إعلان حقوق الإنسان لكى يتعلم الفيتناميون قيم ومبادئ الثورة الفرنسية، ويعتنقوا ما تبشر به من معتقدات سياسية، ولم يجد الجنرال «جارنر» أول حاكم عسكرى أمريكى للعراق، حرجاً فى التناقض بين ما يبشر به العراقيين من ديمقراطية وحقوق إنسان، وبين حقيقة أنه غزا واحتل بلادهم بالقوة وأخضعها لمشيئة بلاده.

لعل إشكالية «الديمقراطية الهبة» لا تكمن فقط فى كونها تأتى مع الغزو، فالمنطقة العربية مغزوة عملياً على كل صعيد، بل الإشكالية الحقيقية، هى أن الغرب لا يريد فقط، إدخال الديمقراطية كطريقة فى الحكم، وإنما يريد أيضًا تمحيص وغربلة الإرث الثقافى والحضارى للجماعة العربية، لأجل فرز الغث من السمين، وتجنيب الأجيال القادمة ما يراه سلبياً فى هذا الإرث، وذلك من خلال إدخال مناهج تعليم وطرق تنشئة وغرس عادات وسلوكيات وتصورات ورؤية للعالم، أى صياغة هوية جديدة للجماعة، وهو أمر قد يصعب على الجماعة تقبله، رغم أنها - على الأغلب - لا تستطيع أن ترفضه إذا ما تضافرت جهود الغرب والحكام، ولكن ذلك يقلل فى كل الأحوال من فرص نجاحه ونجاح ديمقراطيته.

قد تواجه الديمقراطية التى يهديها الغرب للجماعة العربية مشكلة حقيقية، فى ظل اشتراطات العولمة حسب المفهوم الأمريكى، فالبعض يتساءل عن مدى جدوى ممارسة السياسة فى ظل تلك الاشتراطات والظروف، لأن الدولة وما يتعلق بها من شئون تعتبر هى موضوع السياسة، فإذا ما تخلت عن وظائفها وفاعليتها للشركات المتعدية الجنسية والمؤسسات المالية والاقتصادية والمنظمات الدولية، فإن السياسة قد تفقد جدواها، وإذا ما صح هذا التصور وتخلت الدولة عن وظائفها وانتهت الأيديولوجيا، وانتهى معها اختلاف الوعى، وأنعم الغرب على العرب بالديمقراطية، فإن هذه النعمة - فى تلك الحالة - قد تكون وصلت إليهم فى زمن لم تعد بلسمًا لأمراضهم المستجدة عوضًا عن أمراضهم المزمنة، مادامت «الدولة صارت تستمد شرعيتها من قبول المؤسسات العالمية، سواء كانت الأسواق المالية والمؤسسات الدولية، وليس من قبول المؤسسات الوطنية حتى المنتجة منها شعبيًا». فحكومات الدول والكيانات الهزيلة مهما بلغت شرعيتها الداخلية، لا تستطيع أن تستمر فى السلطة، ما لم تتكيف مع اشتراطات العولمة، وتثبت أنها منضبطة حسب قواعد حسن السير والسلوك، التى تحددها الولايات المتحدة والغرب عموماً، فهذا الأخير وحسبما تشهد به التجربة الاستعمارية مع بعض مستعمراته - لا يقبل إلا بالديمقراطية التى تضفى الشرعية على هيمنته ومركزيته، ولهذا فإن المراهنة على الغزو الغربى لتحقيق الديمقراطية وانتظار مجىء الفرج على يديه قد يكون انتظارًا فى غير محله.

صالح السنوسى

كـــــــتب دينيــــــــة

خطابنا الإسلامي في عصر العولمة

يوسف القرضاوي
دار الشروق، ٢٠٠٤



يقدم القرضاوي لكتابه:
كتب كثيرون يطالبون بوجوب المراجعة لخطابنا الديني الإسلامي، وخصوصاً بالنسبة للآخر، ونظرتنا إليه، وموقفنا منه.

وهذا الكلام بعضه حق، وبعضه باطل، وبعضه حق أريد به باطل. إننا نرحب بتجديد الخطاب الديني، والارتقاء به، وتطويره إلى ما هو أحسن وأمثل: فكرة وأسلوباً. ولكنا نحذر من خطوة التنادي المستمر بتغيير الخطاب الديني الإسلامي في هذا الوقت خاصة، ولاسيما من أقلام مشبوهة، لا يهمها الدين ولا أهله، وليس لله ولا للآخرة مكان في حياتها الفكرية أو السلوكية.

فالواقع أننا نخشى من تيارين كلاهما أشد خطرا من الآخر:

١-تيار الغلو والتشدد والتنطع، الذي يريد أن يضيق على الأمة ما وسع الله.

٢-وتيار الانفلات والتسيب، الذي اتخذ إلهه هواه، فلا يتقيد بنص، ولا يستند إلى إمام معتبر.

لهذا كان على أهل العلم والدعوة، أن يقولوا كلمتهم، ويبينوا وجهتهم، وعليهم أن يعضوا بالنواجذ على الحق الذي ائتمنهم الله عليه، معتصمين بحبل الله المتين، يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله.

■

لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟

تأليف: شكيب إرسلان
ترجمة وتحقيق: حسن السماحي سويدان
الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤



إن تخلف المسلمين هو معضلة المعضلات، التي وقف أمامها العلماء والمفكرون، يقلبون فيها وجوه النظر، فمنهم من نظر إلى جانب وأغفل جانباً، فجاء حله ناقصاً. ومنهم من نظر نظرة شمولية كالأمير شكيب -رحمه الله- في كتابه هذا فجاء الجواب أدنى إلى الحقيقة. ورصد مظاهر التخلف الداخلية والخارجية وعدم إغفال أي منها هو الخطوة الأولى لمعرفة الأسباب التي أدت إلى هذا الواقع المزري الذي تعيشه الأمة من المحيط إلى المحيط.

والأمير شكيب بما عرف عنه من العلم الواسع، والتجربة العميقة المتميزة، والاهتمام الصادق بشئون الأمة المسلمة، والمتابعة الحثيثة لمشكلاتها وأحوالها هو أحرى من يتصدى لبيان سبب تخلف المسلمين وتقدم غيرهم. لقد تحدث الأمير عن مظاهر التخلف وأسبابه، فذكر منها الجهل والتقليد والبخل والخوف من المغامرة، وبين أن ذلك يورث في الأمة الوهن، الذي هو حب الدعة والكسل والتواني والنظرة الجامدة. كما تحدث الأمير عن الفساد الذي هو السبب الأكبر للتخلف، وخاصة فساد الأمراء والعلماء، وما يجره على الأمة من بلاء.

وخص الأمير دعاة الفرنجة بالحديث الطويل، ففند شبهاتهم التي يريدون من خلالها عزل الإسلام -الذي هو عصب الأمة الذي يحركها- عن الحياة، ورد على دعاة التثبيط، الذين يشككون الأمة في قدراتها، ويسلبونها ثقتها بنفسها، ويزرعون الفشل والشك في قلوب أبنائها، وأنهم أعجز من أن يصنعوا شيئاً ذا بال.

والكتاب بما تضمنه من نظرات ثاقبة وآراء حصيفة لا يزال يمثل ورقة عمل يمكن الانطلاق منها إلى درس ملف التخلف الذي يزداد كل يوم تعقيداً، ويحتاج لجهود قد لا يطيقها فرد مهما أوتي من علم وخبرة، ولا بد أن تنهض به مؤسسات إسلامية متخصصة.

■

فجر الإسلام

أحمد أمين
دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤



كتاب مهم يتناول فيه المؤلف الحياة العقلية في صدر الاسلام الى اواخر الدولة الاموية وقد جلى الاستاذ احمد امين كل مظاهر الحياة انذاك فكرية او ادبية او دينية واظهر العرب على حقيقتهم وطبيعتهم في تلك الحقبة وقد نال الكتاب استحسان العديد من العلماء العرب والمستشرقين.

■

حجابي هويتي. فتاتان تدافعان عن حجابهما

ألما وليلى ليفي
دار الفارابي - لبنان(٢٠٠٤)



ألما البالغة من العمر ست عشرة سنة وليلى ذات الثماني عشرة منذ كانتا تلميذتين في ثانوية هنري-والون في اوبرفيلييه. اختارتا منذ بضعة أشهر أن ترتديا الحجاب الذي يغطي الشعر والأذنين والعنق. في ١١ تشرين الأول/ أكتوبر سنة ٢٠٠٣ قرر المجلس التأديبي في الثانوية طردهما بصورة نهائية لأنهما رفضتا التخلي عن الحجاب. بعد فصلهما الفظ من المدرسة الرسمية، ها هما تعرضان هنا تجربتهما كفتاتين فرنسيتين ومسلمتين.

أجرت فيرونيك جيرو وكذلك إيف سانتومير، على مدى أسابيع طويلة، أحاديث بلا مجاملة، تحدثنا خلالها عن معنى قناعاتهما وأسباب خيارهما.

كيف اكتشفتا الإسلام؟ ما هي رؤيتهما وممارستهما للدين الإسلامي؟ كيف تتصوران العلاقات بين الرجل والنساء؟ ماذا تمثل العلمانية في نظرهما، في المدرسة وفي الحياة العامة؟ ما هي نظرتهما إلى المجتمع الفرنسي وقيمه؟ إن الأجوبة المعطاة عن هذه الأسئلة -مهما كانت مدهشة ومحيرة- تساعد على تجاوز التبسيطات والأفكار المسبقة السائدة في النقاش العام. وهي تسمح بعدم نسيان أن الفتيات اللواتي اخترن ارتداء الحجاب كما فعلت ألما وليلى، هن أولاً فتيات كسائر الفتيات.

إن فهم هذه الأحاديث هو أولا مساعدة القراء على الفهم قبل الحكم. فماذا نعرف، في الحقيقة، عن دوافع وممارسات هاتين الفتاتين اللتين تتراوح سنهما بين السادسة عشرة والثامنة عشرة؟

لقد أمسى لدينا تحقيقات سوسيولوجية غنية وقوية الإسناد... تجاهلها بصورة منهجية المسئولون السياسيون ومعظم المثقفين الذين تحدثوا الى وسائل الإعلام. ويتمنى هذا الكتاب أن يندرج في سياق مواصلة تلك الأعمال. أما طرافته العلمية فهي في كونه يقدم صورة كاملة لشخصين، تكمل النموذجيات الأوسع التي يعرضها باحثون من أمثال فرنسوا غاسبار وفرهد خوسروخافار وجيل كيبل واوليفيه روي، نصيره غينيف ونانسي فينيل. إنه نتاج خمس عشرة ساعة من الأحاديث المسجلة، التي أضيفت إليها أحاديث كثيرة أخرى دارت أمام آلة التسجيل.

■

مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب (في علم التصوف)

تأليف: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي
ترجمة، تحقيق: نعيم زرزور - محمد إبراهيم
المكتبة العصرية للطباعة والنشر،٢٠٠٤



مكاشفة القلوب درب لهدي القلوب، والانعتاق من الذنوب. كتاب أراده الإمام أبو حامد الغزالي نبراساً للمؤمنين في الزمن الصعب حيث الدنيا ومفاتنها والمال ومفاسده، في زمن أصبح فيه التدين شاقاً على الطامعين في مباهج الحياة، والغافلين عن الآخرة، ويوم البعث والنشور، هذا الكتاب في أبوابه المتنوعة هو خير دواء لمن أراد لنفسه الطمأنينة، ولمن أراد لقلبه النور والسعادة، ورضا الله...

كتاب مزين بالآيات القرآنية، معطر بأحاديث سيد البشرية محمد صلى الله عليه وسلم، التي تخبر بيقين عن نعيم جنان الله والخلود في جوار الرحمن ويحذر قساة القلوب من عذاب الجحيم وغضب الله. إنه تذكير لبني البشر في زمن النسيان...

وبالنظر للأهمية التي يحتلها هذا الكتاب فقد اهتم بتحقيقه وتصحيحه من الأخطاء اللغوية، والنحوية، واضعين علامات الوقف في مكانها المناسب، مخرجين آياته محققين لأحاديثه وذلك من أجل أن يغدو تقديمه وإخراجه بمستوى يليق بمضمونه.

■

كتب دينية باللغة الإنجليزية للصغار

is for a llah A

(ألف تشير إلى الله)

yusuf islam

.mountaim of light, $ 9.00



ولد يوسف اسلام فى لندن عام ١٩٤٨، كان يحمل اسم «كات ستيفنز» وكان مطربا عالميا قبل أن يشهر اسلامه. هو ابن لأم سويدية واب يونانى، بلغت شهرته كمطرب فى الستينيات والسبعينيات حدا جعل مبيعات اسطواناته تصل إلى اكثر من ٤٥ مليون نسخة فى العالم كله.

اعتنق كات ستيفنز الاسلام عام ١٩٧٧ وصار اسمه يوسف اسلام،وتزوج منذ ذلك الحين وانجب خمسة اطفال.

كما انه عضو نشط فى المجتمع البريطانى المسلم، ويركز جهوده كلها على مجالات التعليم والارتقاء الروحانى للانسان.

الف يوسف اسلام هذا الكتاب ليفتح نافذة رائعة على عالم الفكر الاسلامى المبسط، عنوان الكتاب نفسه مأخوذ عن اغنية شهيرة ليوسف اسلام، كتبها ليعلم طفله الاول إن حرف الألف يشير دائما وابدا إلى الله عز وجل وليس لكلمات اخرى نعلمها للاطفال عند بدء كلامهم مثل ام وابرة وانف وهكذا.

إن فلسفة الحياة التى تتحكم فى العالم الغربى تبدأ، كما يرى يوسف اسلام، باول درس يتلقاه الطفل فى المدرسة.

فالتركيز الذى يقوم به الاساتذة على شىء ما يترك اثرا لا يمحى فى عقول الاطفال البكر. وعادة لا يركز هؤلاء المدرسون على اول واهم الرغبات الانسانية، وهى الشوق إلى معرفة الخالق عز وجل.

وهكذا، وباستخدام الحروف الهجائية، يقود يوسف اسلام القارئ ليقدم له او يذكره بالجوانب الاساسية فى الاسلام، كلمات مثل الله، والجنة، والقرآن، ويوم القيامة، موضحا افكاره برسومات وصور جذابة. لقد تم اعداد ذلك الكتاب من اجل اولئك الذين يريدون إن يقدموا لابنائهم صورة عن عالم، يقف فيه الله تعالى وراء كل الاشياء فيه، مهما بلغت ضالتها.

■

young muslim guide to the A modern world

دليل المسلم الصغير إلى العالم الحديث

seyyed Hussein nasr,

paperback 270 pp,$ 17



يرى مؤلف الكتاب «سيد حسين نصر» أن الغرب قد افرز العديد من المستشرقين الذين يدرسون الاسلام من زاوية واحدة، بينما افرزت الحضارة الاسلامية عددا كبيرا من العلماء الذين تخصصوا فى دراسة الحضارة الغربية من كل اوجه الحياة فيها، من الفنون والاداب والحياة الاجتماعية والدين فيها من وجهة نظر اسلامية.لقد رسم المسلمون ما يمكن تسميته بالخرائط الفكرية للعالم الحديث، وهى خرائط يسعى مؤلف الكتاب إلى عرضها على شباب المسلمين كى يصبحوا اكثر دراية بالجذور الدينية لاسلامهم عند وضعه فى مقارنة مع الديانات الاخرى، وكى يمكنهم تكوين رؤية شاملة للعالم من وجهة نظر اسلامية.

إن ذلك الكتاب يمثل اول محاولة من نوعها لوضع حقائق الاسلام الازلية فى مواجهة القيم الغربية الدينية والفكرية، بشكل محايد جذاب فى ظل المواجهة العنيفة التى تحدث بينهما فى عالم اليوم. اما سيد حسين نصر مؤلف الكتاب، فيعتبر من ألمع الاكاديميين فى جيله، ولد فى طهران فى عائلة من الاطباء واساتذة الجامعة الذين تخصصوا فى دراسة الشريعة الاسلامية. تلقى تعليمه الاول فى طهران ثم سافر إلى امريكا لدراسة الفيزياء وتاريخ العلم والفلسفة فى جامعات مثل هارفارد وماساشوسيتس، وعمل استاذا فى جامعة طهران وهو مؤسس الاكاديمية الايرانية للفلسفة، ويعمل اليوم أستاذا فى الدراسات الإسلامية فى جامعة جورجتاون.

يقدم الكتاب عرضا شاملا لتعاليم الاسلام كما ترد فى القرآن والحديث والسنة، كما انه يضم عددا من التعليقات والتفسيرات التى قدمها ائمة المسلمين على اختلاف توجهاتهم، إلى جوار عدد من اراء المتخصصين فى الحضارة الاسلامية من الغربيين.

■

Celebrating Ramadan

(الاحتفال برمضان)

diane hoyt goldsmith

Hardcover, 32 pp, 14 $



كتاب يمزج الصورة بالكلمة، والرسم باللغة، ليقدم فى النهاية صورة عن الحياة فى رمضان وحياة مسلم امريكى صغير يدعى ابراهيم. يضم مقدمة عامة عن بدايات الاسلام وعقائده الاساسية والوحى الذى نزل على محمد (ص)، اضافة إلى عدد من مبادىء القرآن وحركات الصلاة.

يقدم الكتاب صورة للمسلم الامريكى الصغير ابراهيم وهو يحتفل مع عائلته بحلول الشهر الكريم، سواء فى مدرسته الاسلامية او فى مسجده، ويظهر مدى الدفء الذى يسرى فى عروق الكل مع حلول شهر رمضان، ويضم الكتاب وصفا دقيقا لذلك القطاع من العالم الذى يعد الاسلام فيه من اكثر الديانات انتشارا، ويركز على تنوع الثقافات التى تذوب فى الثقافة الاسلامية الواسعة، من خلال عرض عائلة ابراهيم التى تعود جذورها إلى مصر والبوسنة

■

The Atlas of islam: people, daily life and traditions

(اطلس الاسلام، الناس والحياة اليومية والتقاليد)

Neil Morris

Barrons Juveniles 64 pp, $ 15



كتاب من القطع الكبير، كتب من أجل القراء الصغار كى يقدم لهم صورة واضحة عن احد اكثر ديانات العالم انتشارا، تضم كل صفحة خمس او ست صور تصحب القارئ إلى عدد من البلاد الإسلامية المختلفة التى يشاهد فيها طقوس اهلها كأنه يقف بينهم. اضافة إلى شرح واف لكل الفنون والعمارة والتاريخ والأنشطة اليومية التى يمارسها المسلمون فى جميع أنحاء العالم.

إن الكتاب مقسم إلى ٢٧ جزءا، يركز كل واحد منها على زاوية منفصلة من التاريخ والثقافة الاسلامية،واهم الموضوعات الواردة فيه تشمل تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام، وحياة الرسول(ص)، والفتوحات الاسلامية، وحضارة الاندلس والاتراك السلاجقة، والحملات الصليبية، اضافة إلى اشكال العبادات الاسلامية، والاحتفالات الدينية والفنون والعمارة الاسلامية، و تفاصيل شاملة عن الدول الاسلامية فى عالم اليوم.

على الرغم من عنوانه، فان ذلك الكتاب ليس «اطلس» بالمعنى المفهوم، هو اقرب إلى مسح شامل جذاب لحياة المسلمين اليومية فى العالم كله. ويناقش كذلك عادات الحياة اليومية للعديد من الجماعات الاسلامية فى العصور الغابرة مثل العباسيين والأمويين والاتراك، إلى جوار جماعات الصوفية ومسلمى وسط اسيا، كل ذلك كى يقدم رؤية شاملة لحياة العالم الاسلامى إلى شباب القراء الذين لم يروا هذه المشاهد رأى العين

■

Better than athousand month

(خير من الف شهر، احتفال عائلة أمريكية بالشهر الكريم)

Hassaun ali jones bey

Ibn Musa Publishing, 168 pp $ 13



عنوان هذا الكتب مأخوذ من آية قرآنية تصف ليلة القدر، وهى افضل ليالى شهر رمضان يحاول الكتاب وضع يده على النقاط المشتركة بين الاسلام والمسيحية، مقللا من الخلافات بينهما، يرويها اب مسلم ينحدر من اسرة امريكية ذات اصول افريقية.. اسرة تحاول إن ترد دائما على أسئلة ابنائها بشأن الدين الاسلامى بدقة واستفاضة.

يروى الكتاب حياة اسرة امريكية خلال شهرين، شهر رمضان والشهر الذى يليه، ويشير العنوان الفرعى للكتاب «احتفال عائلة امريكية مسلمة برمضان» إلى العدد المتزايد للاسر الامريكية التى تعتنق الاسلام،خاصة فى مجتمع الامريكيين الافارقة هناك.

■

He is just not that into you
(إنه ببساطة غير معجب بك!)
Greg Behredent
Simon Spotlight Entertainment
176 pp. 2004. $11.97



كتاب تحليل نفسي وعاطفي ساخر حقق اعلى المبيعات بمجرد صدوره في أمريكا. مؤلفه هو كاتب حلقات المسلسل التليفزيوني الشهير «الجنس والمدينة» وهو يرتكز على حلقة نالت اعجاب النساء عند عرضها. الكتاب يندرج تحت قائمة الكتب التي تناقش علاقة النساء بالرجال، مثله مثل كتاب «ادم من المريخ حواء من الزهرة» الذي الفه الدكتور جون جراي، ويقوم بنفس المهمة، محاولة توضيح تفكير الرجال الغامض بالنسبة للنساء.

مؤلف الكتاب يتعامل بوضوح شديد، يستخدم لغة قاسية لابلاغ المرأة التي تلتمس العذر دائما للرجل، بأنه قد لا يكون معجبا بها في نهاية المطاف. يستعرض الاعذار التاريخية التي ترددها النساء كلما وجدن أن الرجل الذي يهتممن به لا يبادلهن اهتماما مماثلا. تقول المرأة لنفسها أن الرجل لا يحاول بدء علاقة معها ربما لانه مشغول، او لانه خائف، او لانه مصاب بجرح غائر من صدمة عاطفية قاسية، او لانه لا يريد إن يلتزم، او لانه خائف من افساد علاقة الصداقة بينهما، او لانه خائف من أن تصده.

كلها اعذار واهية، من وجهة نظر مؤلف الكتاب، لا تساوي ثمن المجهود الذي تبذله المرأة في مجرد النطق بها، ولا حجم المعاناة التي يمر بها عقلها وهي تحاول تفسير مواقف الرجل المتضاربة من وجهة نظرها والتي لا تشير الا إلى رغبته في عدم الارتباط بها، عنوان الكتاب» انه فقط ليس معجبا بك إلى هذا الحد» يتكرر في عناوين كل فصوله، مع اضافة تفصيلات اخرى.

فالرجل في الفصل الأول من الكتب لا يحب المرأة إذا كان لا يتصل بها، أو إذا كان لا يدعوها إلى العشاء، أو اذا كان لا يريد أن يراها الا وهو في حالة احباط، او اذا كان لا يريد الا العبث معها، او اذا كان يريد أن يعبث مع الأخيرات رغم انه يحبها، او لانه لا يريد أن يتزوجها.

كتاب يثير الجدل، والسخرية احيانا، لكن المؤكد انه يحمل لمحة ما من الصواب، والا لما حقق كل هذه المبيعات في امريكا.

■

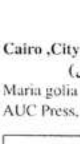
The illustrated guide to the valley of the kings
(الدليل المصور لوادي الملوك)
alberto siliotti
AUC Press, 2004, LE 75



يقدم ذلك الكتاب لاول مرة الصورة المعمارية الكاملة لمنطقة طيبة، يصف كل مقبرة بشكل تفصيلي ومكثف في الوقت نفسه، مع خريطة موضح عليها أهم الرسومات ومقتنيات المقابر، ووصف المؤلف البناء المعماري والتصميمات الزخرفية للمعابد الموجودة هناك باستخدام العديد من الخرائط الطبوغرافية.

■

Cairo ,City of sand
(القاهرة، مدينة الرمال)
Maria golia
AUC Press, 2004, LE 80



تختبر ضغوط الحياة طاقة المصريين على الاحتمال حتى أقصى حدودها.. ترسم ملامحها بوضوح على وجوه ١٦ مليون نسمة، هم أولئك الذين يعيشون في القاهرة، يتمركزون حول النيل وتحيط بهم الصحراء. إن ذلك الكتاب يروي العديد من المواقف والأحاديث، يصف ظروف القاهرة واساليب المعيشة فيها، وردود فعل الناس إزاءها. كتاب لا يركز على تاريخ القاهرة قدرما يلقي الضوء على حاضرها ولحظاتها الحالية.

تتغلغل القاهرة إلى داخل مسام أهلها، ليتأمل الكتاب الروابط التي تربط بين الأسر، والعادات والتقاليد، وبيروقراطية الحياة اليومية، كما يلقي نظرة على علاقة القاهرة بالآخر، سواء كان ذلك الآخر هو الاحتلال البريطاني او الفرنسي، او كان ممثلا في التأثيرات الحديثة القادمة من الخارج مثل السياحة، ويناقش الكتاب كذلك أسلوب حوار القاهريين ونكاتهم ومفرداتهم اللغوية الخاصة، لان كل هذا هو ما نسج القاهرة.

قالوا عن الكتاب انه تحليل رائع شديد الذكاء، يكشف بوضوح أسرار أحد اكثر مدن العالم غموضا، لان مؤلفته تتمتع بوضوح رؤية من يشاهد الأشياء من أعلى، في الوقت الذي تغوص فيه إلى قلب القاهرة وأهلها كي تقرا مشاعرهم، وهذا هو ما جعل تلك السيدة، ماريا جوليا، تؤلف كتابا مختلفا عن القاهرة، وضعت فيه كل مشاعرها ورؤيتها وانطباعاتها، عن تلك المدينة المثيرة التي تحيا فيها منذ زمن طويل.

■

The Complete Cartoons of The New Yorker
(الرسوم الكارتونية الكاملة لمجلة نيويوركر)
David Remnick
Black Dog & Leventhal Publishers
655 pp. 2004, $ 40.80



موسوعة ضخمة، تضم افضل رسوم كاريكاتير نشرت في مجلة «نيويوركر» الامريكية الشهيرة، على اختلاف مواضيعها، سياسية واجتماعية واقتصادية، والتي نشرت في الثمانين عاما الاخيرة. يحاول محررو النيويوركر إن يكتبوا ملخصا قصيرا قبل كل فصل يشرحون فيه الحقبة التي رسم فيها هذا الكاريكاتير، والضغوط السياسية او الاقتصادية التي كانت سائدة في هذه الفترة.

منذ أن تأسست في عام ١٩٢٠، ومجلة نيويوركر، تمتاز بتاثير واضح على الرأي العام الامريكي والعالمي احيانا، يساعدها على ذلك قوتها في مناقشة كل الموضوعات المطروحة على الساحة السياسية بجراة لا تتميز بها العديد من الصحف الاخرى التي تحكمها المصالح، والاهم انها تمتاز بقوة التحليل والعرض باستخدام كل الفنون الصحفية، و على رأسها فن الكاريكاتير. حولت النيويوركر الكاريكاتير إلى فن له مذاق خاص.. لاذع، تتطور خطوطه مع تطور الزمن، وتتحول تعليقاته إلى طلقات اقرب إلى طلقات الرصاص، لا تعترف بحدود، ولا تحسب حسابا لعشرات المصالح التي تقيد غيرها من الصحف.

كان الكاريكاتير ورسوم الكارتون فنا مستقلا بذاته في مجلة النيويوركر، ولذلك قام الرسامون فيها بجمعها في كتاب، وهو كتاب يضم اسطوانتين مدمجتين تحملان كل رسوم النيويوركر منذ ثمانين عاما بالالوان، ومزودة بمحرك بحثي يبحث في الكاريكاتير بوساطة اسم الفنان، او اسم الموضوع الذي يعبر عنه.

■

The red sea mountains of Egypt and Egyptian years
(جبال البحر الأحمر في مصر والسنوات المصرية)
L. A. treganza
AUC Press
2004, LE 100

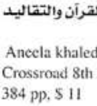


إن ليو ارثر تريجانزا، مؤلف الكتاب، هو مكتشف وأكاديمي إنجليزي، وصل إلى مصر عام ١٩٢٧ ليعمل مدرسا في إحدى المدارس.وظل يحيا في مصر حتى قيام الثورة عام ١٩٥٢. ويصف تريجانزا في كتابه «جبال البحر الأحمر في مصر والسنوات المصرية» جانبا من مصر ظل مجهولا بالنسبة إلينا لوقت طويل.

في ذلك العالم ما زالت مياه النيل تفيض، وما زال بدو الصحراء يحافظون على نمط حياتهم الذي لم يتغير لالاف السنين. ويضم الكتاب اكثر من ٣٢ صورة تدعم الوصف الذي يرد فيه.

■

Daily reflections from the Koran and Islamic traditions
(تأملات يومية في القرآن والتقاليد الإسلامية)
Aneela khaled arshad
Crossroad 8th Avenue
384 pp, $ 11



يوفر ذلك الكتاب صورة شاملة عن الاسلام ونصوصه المقدسة، من خلال اختيارات واضحة لأيات قرآنية واذكار صوفية، والاحاديث النبوية، تم اختيارها وترجمتها بدقة على يد المؤلفة «انيلا

خالد ارشد»، وهى عضو فى المركز الاسلامى فى لونج ايلاند، ولدت فى باكستان ولها اهتمام خاص بممارسات الصوفية وتأملاتهم الروحانية، وتحمل درجة الماجستير فى الفنون والدكتوراه فى الادب الانجليزى، مما يجعلها اكثر تمكنا من اللغة التى تنقل اليها ترجمتها.

تحاول انيلا فى مقدمة كتابها أن تقدم صورة شاملة عن السلام والمبادئ الاساسية فيه، اضافة إلى شرح واف لمعانى اسماء الله الحسنى التى تلعب دورا هاما فى الذكر الصوفى، وفى العقيدة الاسلامية عموما، ثم تركز على معانى كلمات النصوص الاسلامية التى اختارتها فى كتابها، ويبلغ عددها ٣٦٥ نصا بعدد ايام السنة، ووضعتها بحيث يصبح كل نص منها صالحا للتأمل يوما.

■

Our Oldest Enemy : A History of America's Disastrous Relationship with France

(اقدم عدو لنا: تاريخ علاقة امريكا الكارثية مع فرنسا)

john j.miller and mar molesky

Doubleday 304 pp, 2004, $ 16.97



شعر الامريكيون بنوع من الصدمة (وربما الاهانة) عندما قرر الرئيس الفرنسى جاك شيراك ان يقف فى وجه الحرب على العراق. ردد بعض الامريكيين كلمات عن الصداقة التاريخية التى تربط بين الولايات المتحدة وفرنسا، او على الاقل، المصالح المشتركة التى تربط بينهما، الا إن مؤلفى ذلك الكتاب يصران على اثبات أن فرنسا لم تكن قط حليفا للولايات المتحدة، بل انها كانت دائما بالنسبة للولايات المتحدة مجرد عدو، او شوكة فى الحلق، وان الموقف الذى اتخذته الحكومة الفرنسية من الحرب على العراق ليس سوى حلقة جديدة فى مسلسل العداوة التاريخى الذى يربط بين البلدين.

يعود المؤلفان بكتابهما إلى السنوات الاولى للتاريخ الامريكى المكتوب، حيث يرويان قصة غير معروفة لكثيرين، تدور احداثها حول مذبحة ارتكبها الفرنسيون والهنود الحمر ضد الضباط الامريكيين الأوائل، ويؤكد المؤلفان أن فرنسا لم تهب لمساعدة الامريكيين على الاستقلال الا بعد نهاية الثورة الامريكية على امل ايذاء البريطانيين وليس مساعدة الامريكان على الاستقلال. ويذكر المؤلفان بالعديد من المواقف التى اتخذتها فرنسا قبيل الحرب العالمية واعتبرها العالم كله دليلا على خرق لا شك فيه، ومنها مثلا قيام الرئيس الفرنسى الاسبق شارل ديجول بالانسحاب من الناتو، اضافة إلى تحميل فرنسا مسئولية انتاج وتفريخ الديكتاتور الكمبودى الاشهر بول بوت.

هو ببساطة كتاب يغذى موجة الكراهية الامريكية المتزايدة لكل ما هو فرنسى، معتمدا على المبالغات او المغالطات التاريخية احيانا، كى يصل بمن يقرا الكتاب إلى أن يؤمن بما يروج له فى نهاية الامر.

■

Historical dictionary of Egypt

(القاموس التاريخى لمصر)

Arthur goldsmith junior and Robert Johnston

AUC Press 2004

150 l.e.



تغطى هذه النسخة الجديدة والمعدلة من القاموس تاريخ مصر فى آخر قرنين ونصف، وتم تطويره بحيث يضم العديد من الأحداث الفاصلة فى السنوات العشر الأخيرة ويظل ذلك الكتاب مرجعا هاما لكل من يحتاج إلى معلومات دقيقة وحديثة عن مصر، كما انه يضم عددا من المداخل المهمة حول الأشخاص والأماكن والمؤسسات المؤثرة فى سير الأحداث.

■

Feast: Food to Celebrate Life

(العيد، طعام للاحتفال بالحياة)

nigella Lawson

Hyperion 480 pp, 2004, $ 23.80



ناجيلا لاوسون مؤلفة الكتاب هى واحدة من اشهر ناقدات الطعام فى امريكا، تكتب فى اشهر المجلات والصحف وعلى رأسها نيويورك تايمز وجورميه، قررت أن تقوم بمشروع كتاب طموح، هو محاولة الاحتفال بالحياة عن طريق الطعام. ببساطة تضع ناجيلا فى كتابها عدة وصفات لعيد الشكر، والكريسماس، وعيد الحانوكا اليهودى، وعيدى الفطر والاضحى الاسلاميين، اضافة إلى وصفات اخرى لاعياد رأس السنة، واعياد الميلاد من جميع انحاء العالم.

تقول ناجيلا فى كتابها إن العالم كله على اختلاف عاداته ودياناته يعتبر الطعام احدى وسائل الاحتفال فى الاعياد، مما يجعل الطعام بالتالى هو احدى الوسائل المعروفة للاستمتاع بالحياة. تستخدم ناجيلا وصفات الطعام على اختلافها وتنوعها قائلة انها تريد إن تنقل لكل انسان الطريقة التى يستمتع بها انسان اخر، وان تساعد الكل على الاحتفال بالحياة بطرق جديدة غير تلك التى اعتادوا عليها، وافقدتهم الاحساس بمذاق السعادة فى بعض الاحيان.

■

THE OFFICIAL GUIDE TO FAHRENHEIT 9/11

(الدليل الرسمى لفيلم فهرنهايت ٩/١١)

Michael moore

Simon & Schuste

256 pp. 2004, $ 11.20



قررت لجنة التحكيم فى مهرجان كان منح فيلم المخرج الامريكى مايكل مور جائزة السعفة الذهبية لاحسن فيلم فى المهرجان، وكان ذلك ايذانا بأن يحقق الفيلم اعلى الايرادات فى العالم كله، بوصفه اهم فيلم وثائقى اثار الجدل حول ادارة بوش، والاسلوب الذى تدير به سياستها الخارجية وحروبها ضد الارهاب.

ولان الفيلم مثير للجدل، تعرض احيانا للحذف او للرقابة فى بعض المناطق والدول، ربما تم منع الفيلم تماما فى بعض البلاد التى تسعى للحفاظ على مصالحها مع الولايات المتحدة او الدول التى يمسها الفيلم، لذلك قرر مايكل مور «المشاغب»، أن يصدر كتابه الجديد، ليضع فيه النص الكامل لفيلمه دون حذف، كى يدرك الكل ما تم اقتطاعه من الفيلم عند عرضه. ووضع فى كتابه ايضا كل المصادر و الوثائق التى تؤكد كلامه ووجهة نظره التى اوردها فى الفيلم، اضافة إلى العديد من الروابط والمواقع التى تؤكد صدق معلوماته.

ويضم الكتاب كذلك كل المقالات والصور والرسوم الكاريكاتورية والخطابات التى ارسلت إلى مخرج ومؤلف اكثر فيلم اثارة للجدل فى العام الحالى، فيلم فهرنهايت ٩/١١.

■

The employment crisis of female graduates in Egypt

(ازمة توظيف الخريجات فى مصر)

ghada f. barsoum

Aucpress, LE 15



ترى هذه الدراسة أن سوق العمل فى مصر يميل إلى تفضيل الخريجات اللواتى يتحدثن لغات أجنبية، ويملكن مظهر وحضور النخبة. الأمر الذى يضع الخريجات اللواتى لا يتمتعن بهذه المواصفات فى مرتبة أدنى.

وتهدف الدراسة إلى توثيق الكيفية التى تتم بها عملية الاستبعاد، والكيفية التى تقوم بها خريجات يملكن قدرا ادنى من المواصفات بتحديد إمكانياتهن كى تتلاءم مع أبنية سوق العمل.

■

History of the middle east

(تاريخ الشرق الأوسط)

Arthur goldsmith

AUC Press 2004, LE 100

Seventh edition



تمت مراجعة الطبعة السابعة من الكتاب بشكل موسع، كى تعكس الأحداث الأخيرة والمعاصرة فى الشرق الأوسط، بما فيها توابع حرب الخليج والمسألة الفلسطينية، و يركز الكتاب على تطور المؤسسات والثقافة الإسلامية، وعلى تأثير الغرب، والصراع من اجل الاستقلال السياسى، اضافة إلى الصراع العربى الإسرائيلى، وعملية إعادة إحياء القيم والقوى الإسلامية.

■

رسائل

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات، وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

اقتراح

اكتشفت مجلتكم اليوم، على موقع الجزيرة. نت، وكم سعدت بها بدرجة واطلب منكم ألا تتوقفوا فبفضلكم تظل صلتى بالعالم العربى قريبة، وبصراحة أحترم كل ما تقومون به من عمل، ولأنكم من المجلات التى لها صدى فى الوطن العربى كله، لذا سأقترح عليكم أن تحثوا المكتبات المصرية أن تشجع الشباب المصرى على القيام بأعمال تطوعية فى المكتبات، مساهمة فى توسيع دائرة الثقافة وشغل الشباب الصغير بما هو مفيد، كما أرى هنا.

نسرين رضا
الولايات المتحدة

ألف سلامة

الأستاذ الكبير الفاضل سلامة أحمد سلامة

.. هل علينا عدد أكتوبر من «وجهات نظر» خالياً من مقالكم المميز الرئيسى الذى اعتدناه وأدمناه منذ صدور المجلة قبل سنوات عديدة، ولعل المانع يكون خيراً، لأن المقال الأسبق فى عدد سبتمبر من المجلة كان يصدر منه أنات وتوجعات الأزمة الصحية الداهمة التى ألمت بكم مؤخراً، ولهذا فنحن منزعجون جداً لذلك الغياب.. لأن ضربتين فى الرأس يوجعان فعلاً يا أستاذ سلامة..

.. فلقد استأذن أستاذنا هيكل فى الانصراف وترك صفحات المجلة ذاهلة فى نفس الموعد ونفس الشهر من العام الماضى.. وبعده أنت فى نفس الشهر.. لماذا؟؟

.. لكن أستاذنا هيكل ترك الأرض وحلق فى الفضائيات لتسمعه آذاننا بعد أن حرمت العين من قراءته.. أرجو أن تكون أخذت بنصيحتى الساذجة واشتريت السنارة التى تنقذ بها ما تبقى لك من أيام وعثرت على الدهماء.. وهم كثر.. لتتحدث.. وتتحدث.. وكفى.. بلا لوم.. أو أدنى عتاب.. أو إحباط.. أو سراب أمل..

أستاذنا سلامة.. ألف سلامة.. مليون سلامة.

«ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً».

ابنكم: د. سمير عنتر
استشارى حميات - الهرم

عندما تتحكم الأيديولوجية فى صنع القرار السياسى

فى مقالته الأخيرة بمجلة «وجهات نظر» يكاد يكون الحاضر الغائب فى مقال عميد معهد دراسات الشرق الأوسط بجامعة كولومبيا/ نيويورك البروفيسور رشيد الخالدى - والذى تناول فيه الخالدى مجمل الأفكار الأساسية فى كتابه الأخير «آثار أقدام الغرب: الطريق الأمريكى المحفوف بالمخاطر فى الشرق الأوسط»؟ والتى تدور الفكرة الأساسية والرئيسية فى هذا الكتاب حول سيطرة أيديولوجية فكرية معينة على صناع القرار الأمريكى.

هذه الأيديولوجية الفكرية تكون بمثابة نقطة الارتكاز فى اتخاذ جميع القرارات السياسية الأمريكية تجاه دول العالم الخارجى - بالطبع منها الدول العربية والإسلامية - وعلى سبيل المثال لا الحصر - فإن الأيديولوجية التى تتحكم فى صنع السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الشرق العربى - الأوسط الكبير حالياً - هى الأيديولوجية الإسرائيلية بمعنى «سيطرة إسرائيل على مراكز صنع القرار الأمريكى تجاه الشرق الأوسط» فمن مراكز صنع/ اتخاذ القرار الأمريكى الرسمية من وزارة الخارجية إلى الدفاع ومن وكالة الأمن القومى إلى السلك الدبلوماسى الأمريكى حتى الكونجرس؟

وكذلك الوسائل والآليات غير الرسمية فى التأثير على صنع/ اتخاذ القرار السياسى الخارجى الأمريكى مثل: جماعات الضغط والمؤسسات الجماهيرية ومراكز العصف الفكرى، وقد باتت السياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط ذات صبغة إسرائيلية - أو بتعبير بول فندلى: «إسرائيلية» السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط، وللأسف الشديد سادت هذه النظرة حتى لدى علماء السياسة والعلاقات الدولية والسياسة الخارجية وإدارة الأزمات الذين يفترض فيهم الحيادية العلمية والفكرية. فباتت هذه المؤسسات والمراكز تنبع وتصب فى مصب واحد هو «كيفية تحقيق المصالح الأمريكية فى المقام الأول ثم المصالح الإسرائيلية فى المقام الثانى دون أدنى اهتمام بالآخرين» حتى بات ما هو فى صالح الولايات المتحدة هو بالتالى فى صالح إسرائيل والعكس كذلك.

ما يميز الإمبراطورية الأمريكية عن غيرها من الإمبراطوريات التى سبقتها فى التاريخ الحضارى البشرى أنها إمبراطورية مفتوحة.

أى يمكن التأثير على الاستراتيجية الخارجية لهذه الإمبراطورية من الداخل وليس من الخارج كما كان الحال مع الإمبراطوريات التى سبقتها. فالولايات المتحدة الأمريكية تسمح لكافة ألوان الطيف السياسى بالاختلاط والذوبان فى العملية السياسية الأمريكية فمن أقصى الليبراليين إلى أقصى المتطرفين، ومن عتاة الأصوليين الدينيين إلى عتاة الملحدين والعلمانيين.. إلخ. وذلك دون أدنى اختلاف أو تمييز وعلى أساس الحريات السياسية المكفولة للجميع على شرط وحيد هو «عدم المساس بالنظام السياسى الأمريكى» هذه الحرية السياسية الكاملة استفادت منها إسرائيل بصورة غير مسبوقة (لإسرائيل ما يزيد على ٥٠ ألف منظمة ومؤسسة داخل الأراضى الأمريكية) وهو الأمر الذى يفسر شدة الاهتمام الأمريكى الرسمى والشعبى بالوضع الإسرائيلى حتى بات الوضع فى إسرائيل أمراً سياسياً أمريكيا داخلياً يدافع عنه المواطن الأمريكى قبل الإسرائيلى.

لقد استفادت إسرائيل من صدور قانون اللوبيات والذى صدر عام ١٩٤٦ بغرض تقنين مسألة إنشاء المنظمات والمؤسسات الشعبية والمدنية - سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية.. إلخ، فأصبح لها بموجب هذا القانون آلاف من المنظمات والمؤسسات والمراكز الضاغطة التى تعمل ليلاً ونهاراً من أجل خدمة إسرائيل وتلبية احتياجاتها السياسية والعسكرية والاقتصادية من الخزانة الأمريكية ومن أموال الضرائب التى يدفعها المواطن الأمريكى، بل وبرضاء المواطن الأمريكى فى أغلب الأحيان وأحياناً أخرى متبرعاً.

إن هذه الطغمة الأيديولوجية ومنذ صعودها من إدارة الرئيس «جورج بوش الابن» أصبحت لا تنظر إلى الشرق الأوسط إلا من المنظور الإسرائيلى الذى لا يرى فى الشرق الأوسط إلا إسرائيل فقط؟ فتمت صياغة الاستراتيجية الأمريكية لهذه الإدارة على أيدى عتاة الصهاينة والمسيحيين الأصوليين المعادين لما هو عربى أو شرق أوسطى غير إسرائيلى؟ فهطلت علينا المشروعات الإسرائيلية فى ثوب أمريكى.

هذه المشروعات لا هدف لها سوى تحويل الشرق الأوسط إلى منطقة نفوذ إسرائيلى - أمريكى مشترك خلال العقود الأولى من القرن الحادى والعشرين. هذا ما تريده إسرائيل والولايات المتحدة بالضبط من المشروعات والمبادرات التى تدعو للإصلاح.

إن محاولة الوصول إلى آليات عمل مع الإمبراطورية الأمريكية تحتاج إلى جهود العلماء العرب المتخصصين فى مجالات العلوم السياسية والعلاقات الدولية وصنع القرار والسياسة الخارجية والاقتصاد.. إلخ. من أجل الوصول لتشخيص صحيح لأهم أزمة سياسية تواجه العرب بصورة خاصة؟ ودول العالم الثالث بصورة عامة الا وهى كيفية التعامل مع الإمبراطورية الأمريكية.

أحمد أبو زيد
تمهيدى ماجستير العلوم السياسية
جامعة أسيوط

الترجمة: أهي أيضًا عربيًا مكبلة؟!..

في سبتمبر الماضي، ناقشت «وجهات نظر» من خلال مقال للأستاذ محمد يحيى جمال، قضية الترجمة والمترجم في العالم العربي وكيفية تفعيل صناعة الترجمة من خلال حركة مهنية نشطة ودور أكبر للدولة وإعادة الاعتبار للمترجم العربي.. هنا إضافة ثرية للحوار.

لا شك أن مشاعر الغم والألم قد انتابت كل عربي أتيح له الاطلاع على تقرير الأمم المتحدة عن التنمية البشرية والذى اعتمد «مشروع الشرق الأوسط الكبير»، على الكثير مما جاء فيه في صياغة ديباجته، التي جاء فيها فيما يتعلق بالترجمة: (إن ما يترجم في اليونان التي لا يزيد عدد سكانها على ١١ مليون نسمة يفوق بخمسة أضعاف ما يترجم لجميع سكان الدول العربية مجتمعة!).

ما يضاعف إيلام تلك الحقيقة المرة، أن آباء وأجداد من يقرأها لم يكونوا فرسان حملة عادية من حملات الترجمة التي عرفتها وتفتخر بها العديد من أمم البشرية، بل كانوا حملة أقلام أكبر حملة ترجمة شهدتها البشرية على الإطلاق في حينها. فعلى سبيل المثال لا الحصر، يذكر أستاذ اللغة العربية وآدابها في جامعة «ييل» الأمريكية الدكتور «ديمتري غوتاس»، في مؤلفه المترجم للعربية (الفكر اليوناني والثقافة العربية) أنه اعتمد في تأليفه على (٤٥) مرجعًا عربيًا معظمها تراثي، وما يزيد على (٢٦٤) مصدرًا غربيًا معاصرًا، كما ذكرها في ملحق المراجع والمصادر، ولعل في المقارنة ما بين أعداد المراجع التراثية العربية والمصادر المعاصرة الغربية، خير دليل على ما يفصل الثقافة والترجمة العربية من سحيق هوه، لا فيما يخص المعارف والعلوم الإنسانية الحاضرة فحسب، بل وحتى فيما يتعلق بالتراث والمعارف العربية الغابرة مقارنة بحالتها الراهنة.

لا يكتفي ذلك الأكاديمي الموضوعي المنصف في كتابه الصادر عام (١٩٩٨م) بتأكيد تلك الحقيقة الناصعة نصًا وحرفيًا، بل ويمضي ليفند العديد من ادعاءات مستشرقي القرن التاسع عشر من مسلمات زائفة، ربما كان من أبرزها:

أولاً: إن حركة الترجمة إلى العربية ما كانت لتتم بذلك الزخم والكمية لولا رعاية الخلفاء، والعباسيين منهم على وجه الخصوص.. ومع الاعتراف بتلك الرعاية وأهميتها إلا أن رعاية ودعم الترجمة اشتركت بها شرائح أخرى لا تقل أثراً كالندماء والوزراء من أمثال بني المنجم في عهد المنصور والبرامكة في عصر الرشيد.

ثانيًا: الاعتقاد بأن الترجمة انحصرت في عصري الرشيد والمأمون دون غيرهما وما اشتهر عن مكتبة «دار الحكمة» في عهديهما وهو اعتقاد مضلل، فقد كان خالد بن يزيد بن معاوية أول من أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان وأمر بنقل الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي كما جاء في (الفهرست)، وتم نقل وترجمة الدواوين الرسمية، من الرومية إلى العربية أيام عبد الملك أو ابنه هشام، ومن الفارسية للعربية في العراق على يد الحجاج.

ثالثًا: تفنيد أسطورة الرفض أو المقاومة الإسلامية لترجمة العلوم والفلسفة، للغة العربية وخاصة من أتباع المذهب الحنبلي، اعتماداً على قاعدتين كثيراً ما أهملهما المستشرقون ومن تأثروا بطروحاتهم، أولاهما أن الدين الإسلامي لا يقر ولا يبيح النظام الكهنوتي، وثاني الأسس هو الاعتقاد المضلل بوجود صراع في العالم الإسلامي بين ما اصطلح عليه مدرستي «العقل» و«النقل»، أو العقل والإيمان، فذلك المصطلح هو في أصله مصطلح غربي وليس عربيًا، فالمناظرات والمجادلات كانت مباحة بل وبتشجيع ورعاية من أعلى السلطات في مختلف العلوم والآداب من مختلف المشارب والأديان.

ولابد من القول إن ما قد يدعو للتفاؤل، أن مسيرة الترجمة العربية المعاصرة، قد انبثقت وسارت على ذات خطى مثيلتها السابقة، التي مهدت لسموق الحضارة الإسلامية الباهرة، فيما تماثل أقرب ما يكون إلى التطابق! فمثلما بدأت الترجمة بعد عصور من ظلام الجاهلية قبل بزوغ شمس الإسلام، فقد بدأت الرحلة الحاضرة بعد قرون من ظلام جهل وتخلف بعد انهيار الإمبراطورية العربية الإسلامية.. ومثلما بدأت الرحلة الأولى بقطرات ترجمة متناثرة لم تنهمر إلا في القرن الثاني للهجرة عند بداية عصر التدوين، فقد مضى قرن من الزمان قبل أن ينهمر مطر سحب الترجمة الحديثة التي بدأت في أوائل القرن التاسع عشر، بعدما تم إنشاء مدرسة «الألسن» لتعليم اللغات، وعودة أوائل البعثات التي من أشهرها تلك التي ترأسها الفقيه الأزهري «رفاعة الطهطاوي» وما قام به من ترجمات كانت بمثابة قطرات إلى جانب ترجمات متناثرة أخرى في ذلك القرن والتي قد يكون من أبرزها ما قام به «فارس الشدياق» الذي أضاف إلى اسمه «أحمد» بعدما أعلن إسلامه، تمامًا كإسلام المترجم العالم ثابت بن قره في العهود السابقة.

ذلك التماثل في البدايات، يزيد من حرارة التساؤل حول ما آلت إليه النهايات من فارق شاسع ما بين حركة «ترجمة» فاقت كل ما سبقها وعاصرها من حركات إبان عصرنا الذهبي الزاهر، وأخرى في عصرنا الحاضر تدنت إلى ما لا يزيد على خمس ما يترجم لإحدى أقل دول أوروبا سكانًا؟! تساؤل لا يمكن الإجابة عليه بالتذرع بانتشار ما لم يكن متاحًا في العصور الغابرة من مسارح وأفلام وفضائيات، تلهي الشيب والشباب عن القراءة والمطالعة، فجميع تلك البدائل متوافرة في الدول الأوروبية بما يزيد أضعافًا مضاعفة عما هو موجود في الدول العربية، كمًا ونوعًا وإثارة، ومع ذلك فإن «الترجمة» ليست في تراجع بل هي في تزايد، كما أن ما يفند بشدة مقولة عزوف العرب عن القراءة، هو ذلك الإقبال المتعاظم سنة بعد أخرى على معارض الكتب وافتتاح المزيد من المكتبات عامًا بعد عام! وربما كان من أهم الأسباب العديدة لتراجع حركة الترجمة الحالية اثنان:

أولهما: يكمن في الحافز المادي، فمقارنة بما كان يحصل عليه المترجم آنذاك، فعلى سبيل المثال، ذكر ابن النديم في «الفهرست» أن أبناء موسى ابن شاكر (في عصر المأمون) كانوا يدفعون خمسمائة دينار شهريًا للعمل وقتًا كاملاً في الترجمة وكان الدينار آنذاك يساوي ٤,٢٥ جرام ذهبًا، فعليه يكون راتب المترجم الشهري ما يساوي ٢١٢٥ جم من الذهب وهو ما يعادل ٧٥ أونصه، فإذا ما حسبت بسعر ٣٦٠ دولارًا للأونصه حسب القيمة الحاضرة، فإن راتب المترجم يصل إلى ٢٧٠٠٠ دولار شهريا، أو ما يزيد على مائة ألف ريال شهريًا وهو ما يفوق ربما بأضعاف مضاعفة ما قد يحصل عليه أشهر مترجم عربي حالي، عن ترجمة كتاب قد تستغرق ترجمته شهوراً طويلة، بل وحتى سنوات!

وثانيهما: ما يعترض الترجمة من منع، بل وقمع أحيانًا إما من سلطات سياسية بحجة محاربة أفكار هدامة، أو من عصبة دينية متطرفة تكفر وتمنع بحجة الإلحاد والهرطقة تمامًا مثلما كانت الكنائس المتسببة في إظلام أوروبا تفعل، أو من خليط منهم من المحافظين بدعوى الخصوصية والخروج على الأعراف والتقاليد مثلما كان يجري في اليابان والصين إبان عصور الانغلاق.. فيما لم تحظر مطلقًا أية قيود على الترجمة في عصورنا.

يوسف الذكير
yathekair@hotmail.com

قـصـــــــــــة

في الحادي والعشرين من أكتوبر، وبعد عشرين عاما كاملة من المطاردة، وبصاروخين أطلقتهما طائرةٌ بدون طيار، تمكن الإسرائيليون من اغتيال عدنان الغول (٤٨ عاما) المسؤول العسكري لحركة حماس في غزة. وكانوا قد اغتالوا من قبل ولديه: بلال/البكْر (١٨ عاما) ومحمد (١٥ عاما) وابن عمه عمران ونسفوا بيته مرةً.. ثم أخرى بعد أن أعاد بناءه. وكانوا قد فشلوا في اغتياله: مرتين بالصواريخ ومرة بفنجان مسمم من القهوة. ثم كان أن نجحت المحاولة. وليلتها شرب الإسرائيليون الأنخاب، وخرج شارون إلى شاشات التلفزيون ليهنئ قادة جيشه. وليلتها أيضا حكى «أحدُهم» هذه القصة:

حتى عام ١٩٤٨، كان جد عدنان الغول هو مختار (عمدة) القرية العربية «عقير» (اسمها العربي الحقيقي: «هربيا»)، التي ارتبطت بعلاقات جيرة حسنة مع البلدة اليهودية «عقرون»، المسماة حالياً «كريات عقرون». وكانت تربط بين البلدتين: العربية واليهودية، علاقات جوار وصداقة رسختها العلاقة بين «شكولنيك»: مختار البلدة اليهودية التي كانت تضم قرابة ١٠٠ نسمة، وجد عدنان الغول: مختار البلدة العربية، التي كان يعيش فيها قرابة ٢٥٠٠ نسمة (لاحظ الأعداد).

وكان أنه في بداية الثلاثينيات، وكدليلٍ على الصداقة التي ربطت بينهما، أن تبادل الرجلان (شكولنيكٍ / اليهودي ومختار القرية العربية) العصي التي كانا يتكئان عليها،ليستخدم كلُ منهما عصا الآخر في حياته.

وفي عام ١٩٣٦ عندما اندلعت الثورة العربية، حمل جد عدنان الغول، العصا التي حصل عليها من شكولنيك، وجلس على الطريق المؤدي إلى «كريات عقرون» اليهودية. وضع العصا إلى جانبه، والبندقية على ركبتيه، وأبلغ أهالي القرية أنه سيتحتم على من يسعى إلى المس بيهود كريات عقرون، المرور على جثته هو، أولاً.

وكان أن اجتازت القريةُ اليهودية السنوات الثلاث للثورة، دون أن تسقط ولو شعرة واحدة من رؤوس سكانها. واستمرت العلاقات بين اليهود والعرب، في القريتين الجارتين طيبة... ثم جاء العام الثامن والأربعون. وفي الرابع من أيار/مايو وصلت الوحدة ٥٢ «اليهودية، التابعة للواء الخامس (جبعاتي)، إلى القرية العربية وأبلغت سكانها أن عليهم الرحيل والتوجه جنوباً، نحو غزة. فحمل جدُ الغول عصاه وتوجه نحو كريات عقرون، لمقابلة شكولنيك. وقال له: «الآن جاء دورك كي تدافع عنا».

حمل شكولنيك عصاه، التي أهداها له الغول، وتوجه إلى خيام ضباط جبعاتي التي أقيمت على مسافة قريبة. وروى لهم كيف دافع سكان القرية العربية عقير / هربيا عن الجيرة الحسنة، وما الذي فعله جد الغول. إلا أن حديث شكولنيك لم يثر أي انطباع لدى ضباط جبعاتي الذين أصروا على عدم وجود أي اعتبار لكون القرية صديقة، وأنه لابد من طرد سكانها.. «فورا».

عاد شكولنيك إلى جيرانه العرب في عقير / هربيا ليخبرٍ أهلها بأنه لا يستطيع فعل أي شيء، لأن الأوامر جاءت من الجهات العليا. فحمل العرب - الذين ظنوا أنهم عائدون لاحقاً - ماخفّ من متاعهم، واتجهوا شرقاً نحو أسدود، ومنها جنوباً، نحو المجدل، ثم إلى وادي غزة... حيث مازالوا هناك: يحتفظُ شيوخهم بمفاتيح بيوتهم القديمة «يحلمون بالعودة»، ويحتفظُ شبابهم بالبنادق والمتفجرات.. والحجارة، يدافعون بها عن «الشبر الأخير» في أرضهم ضد الدبابات والمجنزرات والطائرات.. والجرافات الإسرائيلية اليومية.

لو كانت القصةُ نشرت في صحيفة عربية لكانت قد وجدت طريقها السريع إلى صفحات «ميمري» ورسائلها المنتظمة «الضاغطة» إلى ذوي النفوذ في الولايات المتحدة، مقرونة باتهام زاعق «لا يقبل المراجعة» لصاحب القصة وناشرها بـ«اللاسامية». لولا أنه قد تصادف أن الراوي إسرائيلي هو البروفيسور عميرام شكولنيك: حفيد المختار اليهودي نفسه (توفي الجد قبل شهرين فقط)، وأن ناشر القصة أيضا إسرائيلي: «يديعوت أحرينوت» (١٠/٢٣).

لا جديد في القصة. فالكل - وإن نسي أو تجاهل - يعرف ما جرى عامي ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ ، والشهادات الموثقة تزدحم بها كتب المؤرخين الإسرائيليين الجدد أنفسهم. المفارقة أن قصة الجد «الفلسطيني» الذي حمى بعصاه أولئك الذين اغتالوا بعد سنواتٍ أربعةً من أحفاده، نُشرت في الأسبوع ذاته الذي وقع فيه جورج دبليو بوش قانونا لمراقبة «معاداة السامية»، وبعد أيام فقط من استخدام واشنطن حق الفيتو (للمرة السابعة حماية لإسرائيل) لإجهاض قرار لمجلس الأمن يدعو إسرائيل (المحتلة) لإيقاف عملياتها في الأراضي الفلسطينية (المحتلة). والتي أسفرت «إجمالا» وحتى تاريخ الفيتو الأمريكي عن استشهاد ٣٦٥١ بينهم ٦٥٤ طفلاً وصبياً و٢٤٢ امرأة آخرهن عجوز في السبعين كانت تجلس «داخل منزلها» إلى مائدة الإفطار في اليوم الأول من شهر رمضان. فضلا عن مايقرب من ٤٣ ألفا من الجرحى، وتدمير ٦٠٦٨٥ منزلا. (لا عداء للسامية هنا يستوجب مراقبة سيد واشنطن العادل لما يجري).

الفيتو الأمريكي، وقانون الكونجرس الذي وقعه بوش صدرا في الشهر ذاته الذي أصدر فيه الإسرائيليون «المحتلون» قراراً (غير معادٍ للسامية!!) بعدم السماح للمزارعين الفلسطينيين «أصحاب الأرض» بقطف ثمار زيتونهم «مصدر معيشتهم الوحيد» إلا لثلاثة أيام فقط، الأمر الذي يترتب عليه عمليا أن تذبل ٩٠٪ من الثمار على أشجارها. فضلا عن أن معظمهم لن يمكنهم الوصول أصلاً إلى كرومهم بسبب «الجدار».

نعرف أن ظاهرة العداء للسامية ظاهرةُ اجتماعيةُ تاريخيةُ مثلت تاريخياً أحد أبشع أشكال العنصرية داخل أوروبا. وكذلك نعرف أن السياسة الإسرائيلية، وهي وحشية من دون أي مجاز، لن تؤدي إلا إلى زيادة العنف وتعظيم المشاعر اللاسامية. ونعرفُ أن «إسرائيل تختبئ خلف أسوار اللاسامية وادعاء العدالة متجاهلةً حقيقة أن أفعالها تدفع بها نحو التفرقة العنصرية والتحول لدولة منبوذة في نظر العالم» (والرأي هنا لميرون بنفنستي في هآرتس ٢٠٠٣/١١/٦) وفي حين نفهم أن اللاسامية (التي نرفضها وندينها) تعني معاداة اليهود «لمجرد كونهم يهودا» إلا أننا نخشى يوماً يصبح فيه انتقادُ السياسات الإسرائيلية، أو وصفها بالوحشية «معاداةً للسامية». ويومها نصبحُ جميعا مدانين.

ونعرف أيضا - بحكم تراثنا الديني والفكري والتاريخي، وبدليل مافعله جدُ الغول مع جاره اليهودي - أن الناسَ سواسية. ولسنا بحاجة لأنٍ يعلمنا أحد أن معاداة السامية (بوصفها تمييزاً للناس على أساس يهوديتهم) عنصريةُ بغيضة. وكنا بالتأكيد سنرحب بقانون «السيد الأمريكي» إذا كان ضد العنصرية بجميع أشكالها: سواء كان مقصودا بها اليهود أو العرب أو المسلمون أو المسيحيون أو الأكراد أو الزنوج...الخ. ولكننا نستشعرُ قلقاً مشروعا من «زئبقيةٍ» نعرف - بحكم السوابق وموازين القوى، ومحاولة التماهي بين اليهودية والدولة - أنها ستطول التعريف والتفسير.

ثم إننا نستغرب لماذا ينسى الأمريكيون أن الحركة العنصرية الفاشية في أوروبا تستهدف العرب والمسلمين كما اليهود. ولماذا يتجاهلون أن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في عالمنا المعاصر التي تمارس الاستعمار (على الأقل بمنطق حدود ماقبل ٦٧)، وترفض تطبيق قرارات الشرعية الدولية، وتقيم جداراً عازلا على أسس عنصرية، وتمارس العقوبات الجماعية كما فعل النازيون. ولماذا يتناسى السادة في واشنطن أن هناك يهودا ضد سياسات إسرائيل ومن بينهم أيضاً أمريكيون، وليس «ناعوم تشومسكي» عالم اللسانيات اليهودي الأمريكي بمثالٍ فريد.

نستغربُ.. ونشعرُ بكثير من القلق والغضب لما نستشعره من أشكال أخرى للتمييز. نراه مثلا في عدم معاملة ما يُسفك من دماء الفلسطينيين والعراقيين على المستوى نفسه من الشجب والاستنكار والاهتمام الذي تحظى به الدماءُ الإسرائيلية، أو حتى دماءُ الغربيين في العراق. ورغم أننا نستنكر مايجري هناك (على يد أفراد) من إطاحة للرؤوس بالسيوف، إلا أننا - وبمنطق أن الدماء هي الدماء - لا نرى ذلك الفارق الهائل بين هذا الأسلوب «البدائي» وبين أسلوب القتل بالصاروخ الذي يمزّق الجسدَ أشلاء، أو القنبلة المسمارية التي تفتت أضلع طفلة حتى تكاد تشطرها شطرين. مثلما حدث (بعد أيام من الفيتو الأمريكي) للطفلة الفلسطينية حسناء شهوان، ابنة الستة أعوام في خان يونس جنوب قطاع غزة. وهل ثمة ما هو أسوأ وأكثر عنصرية من المفاضلة بين دماء المدنيين أو التمييز بين أساليب قتلهم؟!

تكمن المفارقة في أن الفيتو الأمريكي (السابع) أجهض الإرادة الدولية التي استهدفت حماية المدنيين في غزة في الأسبوع نفسه الذي وقع فيه الرئيس الأمريكي قانونه دفاعا عن اليهود و«منعاً لانتقادهم».

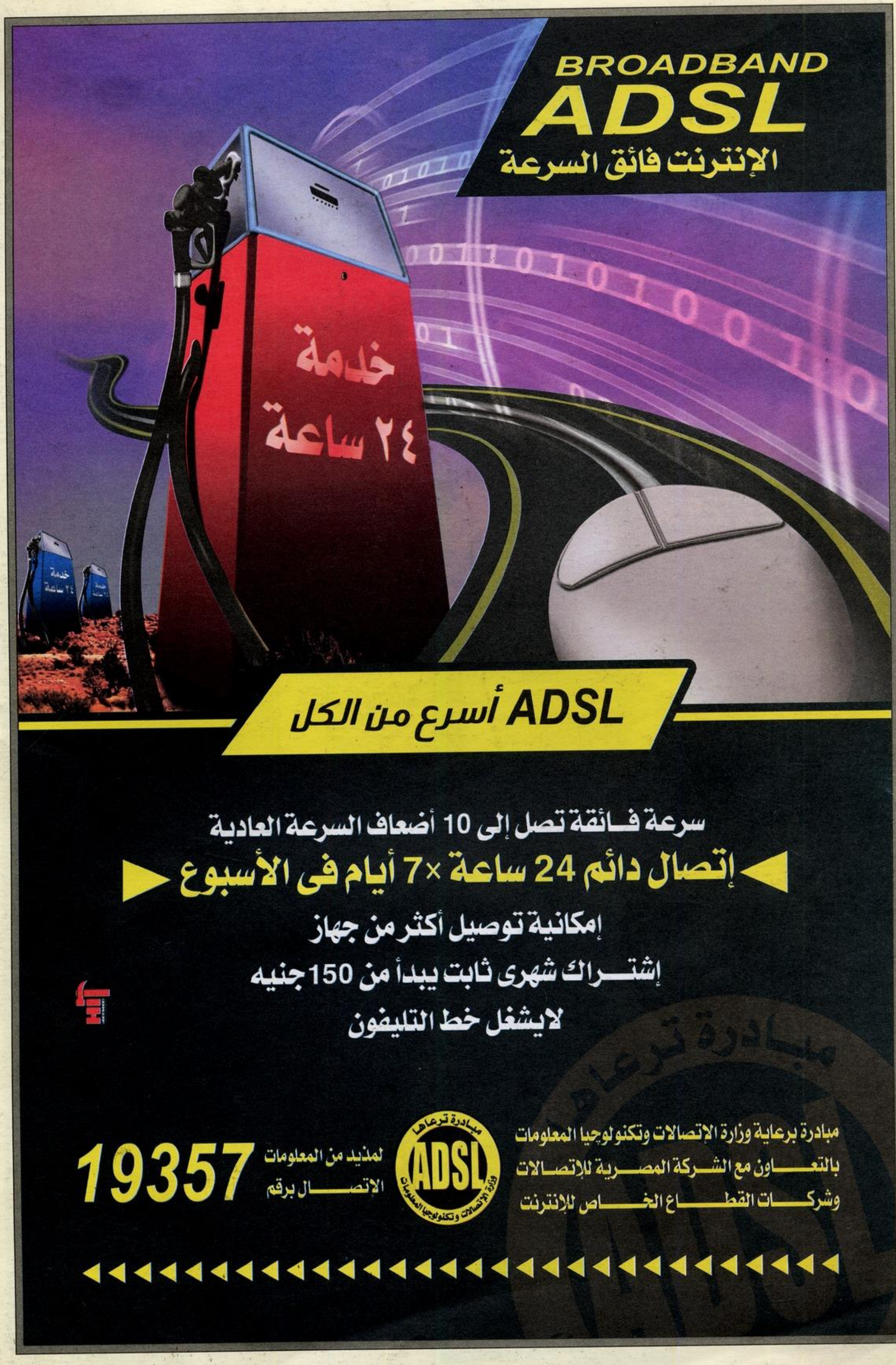
أليس في هذا تمييزٌ وعنصرية تشبهان ما في «اللاسامية» من تمييزٍ وعنصرية؟!

هل أخطأ الجدُ العربي حين حملَ عصاه قبل ثمانية وستين عاما ليدافعَ عن جيرانه اليهود؟ أم كان عدنان الغول (الحفيد) هو المخطئ حين استبدلَ بالعصا صواريخ القسام؟

في بلادنا العربية، من أوجد مشاعرَ اللاسامية؟ ومن روجها؟

اسألوا من فجرَ الفندقَ في طابا.. وأعيدوا قراءةَ القصة.

أيمـــن الصيـــاد



BROADBAND
ADSL
الإنترنت فائق السرعة
خدمة ٢٤ ساعة
ADSL أسرع من الكل
سرعة فائقة تصل إلى 10 أضعاف السرعة العادية
إتصال دائم 24 ساعة ×7 أيام فى الأسبوع
إمكانية توصيل أكثر من جهاز
إشتراك شهرى ثابت يبدأ من 150 جنيه
لايشغل خط التليفون
مبادرة برعاية وزارة الإتصالات وتكنولوجيا المعلومات
بالتعاون مع الشركة المصرية للإتصالات
وشركات القطاع الخاص للإنترنت
مبادرة ترعاها
ADSL
لمذيد من المعلومات
الإتصال برقم
19357